



٤٣٤

الكتاب الذي
هو في بيان

في البيان

قاله

الأستاذ الشيخ جعفر الشبلي

مؤسسة النشر الإسلامي
الطبعة الثانية في شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٠

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

الثمان ١٠٠٠٠ ريال



Subhānī

الْوَهَّابِيَّةُ

فِي الْمِيزَانِ

تَأَلَّفَ

الْأُسْتَاذِ الشَّيْخِ جَعْفَرِ السُّبْحَانِي

مُؤَسَّسَةِ النَّشْرِ الْإِسْلَامِي

التَّابِعَةِ لِمَجْمَاعَةِ الْمَدْرَسَةِ بِبُحْمِ الْمَشْرِقِ

(Arab)

BP 195

.W2 S83

1987

(RECAP)

مكتبة جامعة القاهرة
القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
القاهرة

الكتاب: الوهابية في الميزان

المؤلف: الاستاذ العلامة الشيخ جعفر السبحاني

الناشر: مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

المطبوع: ٥٠٠ نسخة

التاريخ: شعبان المعظم ١٤٠٧ هـ. ق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين.
وبعد؛ في عصر يشهد فيه العالم الاسلامي إقبالاً متزايداً على الدين
ومفاهيمه، ويقظة إسلامية واسعة في جميع الأقطار تصعّد الفرقة الوهابية من
جهودها الهدامة للوقوف في وجه هذه العودة المباركة الى الاسلام.

والفرقة الوهابية التي ما هي في الحقيقة إلا فتنة يقف وراءها الاستعمار
البغيض - كما يدلّ على ذلك تاريخها - تستهدف:

١ - الحطّ من مكانة وأهمية الشخصيات الدينية منعاً من التفاف الناس
حولها، وحول آثارها ومبادئها.

٢ - إبراز الاسلام في صورة الدين الجاف الجامد الذي لا يقبل التطبيق
في العصور المختلفة.

٣ - إيجاد الفرقة والإختلاف في صفوف المسلمين للحيلولة دون وحدتهم،
وتأخيهم.

٤ - محو آثار الرسالة بهدف تعريض أصلاتها للابهام والغموض الذي من
شأنه أن يحول الإسلام الى قضية أسطورية لاجذور واضحة لها في التاريخ.

ومن هنا تحتم على المفكرين الاسلاميين المخلصين التصدّي لهذا المخطط
الاستعماريّ الخطير، الذي تستر وراء قناع مذهبي، واتخذ من «التوحيد»
واجهة لمقاصده.

89-B5292

ومن هنا قام سماحة الاستاذ العلامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله بتأليف هذا الكتاب الذي كشف فيه عن زيف عقائد هذه الفرقة الاستعمارية بأسلوب أنيق واستدلال عميق مستمد من الكتاب والسنة، وسيرة الصحابة.

ومؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين التي كانت ولا تزال تهتمّ بنشر المعارف الاسلامية تعتزّ بتقديم هذا الكتاب القيم الى الملاّ الاسلامي خلعة منها للحقّ والحقيقه، والله خير معين.

مؤسسة النشر الاسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مع الوهابيين في عقائدهم

الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده،
والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه.
و الصلاة و السلام على نبيّه و خيرة خلقه الذي بعثه و الناس
ضلالاً في حيرة، و خابطون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء،
واستزلتهم الكبرياء، و استخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في
زلزال من الأمر، و بلاء من الجهل، فبالغ - صلى الله عليه وآله - في
النصيحة، و مضى على الطريقة، و دعا إلى الحكمة و الموعدة
الحسنة.

بعثه سبحانه لإنجاز عده، و تمام نبوته، مأخوذاً على النبيين
ميثاقه، مشهورة سماته، كرماً ميلاده، و أهل الأرض يومئذٍ مللٌ
متفرقة، و أهواء منتشرة، و طوائف متشتتة، بين مُشبهٍ لله بخلقهِ، أو
ملحدٍ في اسمه، أو مشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضلالة،
وأنقذهم بمكانه من الجهالة.

و الصلاة عليه و على آله الذين هم موضع سرّه، و ملجأ أمره،
وعيبة علمه، و موئل حكمه، و كهوف كتبه، و جبال دينه، بهم أقام

انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

و على أصحابه الذين قرأوا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة، وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه، لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمان بعد خوفهم، ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، صلاة دائمة مادامت السماء ذات أبراج، والأرض ذات فجاج (١).

أما بعد، فإن الأمة الإسلامية عن بكرة أبيهم أصفقت على التوحيد في مراحلها المختلفة، فاتفقوا على توحيد ذاته، وأنه واحد لا ندله، وفارداً مثل له.

كما اتفقت على أنه الخالق ولا خالق غيره، قال سبحانه «هل من خالق غير الله» (٢) وقال سبحانه: «قل الله خالق كل شيء» (٣).

كما أصفقت على توحيده في الربوبية، وأنه لا رب ولا مدبر سواه، قال سبحانه: «بَدَّبَرُوا أَمْرًا مِّنْ شَفِيعٍ إِلَّا مَن بَعَدَ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٤).

كما أجمعت على توحيده في العبادة وأنه الإله الذي يُعبد ولا يُعبد غيرُه، قال سبحانه: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

(١) الخطبة مقتبسة من كلمات الإمام علي - عليه السلام - في مواضع مختلفة في نهج البلاغة.

(٢) سورة فاطر: آية ٣.

(٣) سورة رعد: آية ١٦.

(٤) سورة يونس: آية ٣.

وَيَتَّبِعُكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» (١).

بل وهذه هي النقاط المشتركة بين الشرائع السماوية، وما يُرى من الشذوذ عن هذه الأصول لدى بعض أتباع الشرائع السابقة فأنما هو من فعل الدس والتحريف من قبل الأحرار والرهبان والقسيسين.

الوهابية وموقفهم الحقيقي من قضايا التوحيد

و العجب - وما عشت أراك الدهر عجباً - أن الوهابية وليدة فكرة شيخ الضلالة ابن تيمية الذي عرفنا التوحيد في كتابه بقوله: «إنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، عليّ على خلقه» (٢).

وعاد يقول: ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» (٣).

هذه ثقافة الرجل، وتنزهه لله سبحانه وهو صريح في القول بالتجسيم وإثبات الجهة لله سبحانه، وقد تمسك في ذلك بظواهر الآيات والأحاديث النبوية من دون أن يتعمق في الآيات الواردة في ذلك الموضوع ومن دون أن يحقق في اسناد الأحاديث

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤ .

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، العقيدة الواسطية ص ٤٠١ .

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٩ .

ومضامينها فاذا كان هذا رأي الأستاذ، فكيف بمن يلحس قصاعه
و يجلس على موائده أمثال ابن القيم ومحمد بن عبدالوهاب
وهؤلاء يريدون أن يكونوا أساتذة التوحيد ودعاته.
ولله درُّ القائل:

وَمِنْ عَجَبِ الدُّنْيَا حَكِيمٌ مَصْفَرٌّ
وَأَعْمَشُ كَحَالٍ وَأَعْمَى مُنْجَمٌ
وَقَارُونَا تَرْكِيٍّ وَهِنْدِيٍّ خَطِيبِنَا

تعالوا على الاسلام نبكي ونلطم
هذه عقيدة القوم في الله سبحانه، فاذا أردنا تقييم هذه الأفكار
يجب علينا أن نقارن بينها وبين ما روي عن أئمة أهل البيت في
ذلك الصدد، ثم نرى أي الفريقين أحق أن يُتبع.
أفهل من يصف الله سبحانه بالتجسيم والجهة والنزول إلى
السماء الدنيا أم من يصفه بقوله: «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته
القائلون، ولا يحصي نعمائه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون،
الذي لا يدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس
لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل
محدود، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد
جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن
أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم فقد ضمّنه،
ومن قال: علام فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا
عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا

بمزيلة...» (١).

وأنت إذا قارنت ما نُقل عن أصحاب الحديث في مجال توحيدِه وتزهِه سبحانه لقضيت منه عَجَباً، فهذا الإمام الأشعريّ ينقل عنهم أنّ معنى توحيدِه سبحانه في الخالقِيّة، أنّ سيّئات العباد يخلقها الله، وأنّ أعمال العباد يخلقها الله عزّوجل، وأنّ العباد لا يقدرّون أن يخلقوا منها شيئاً (٢).

إنّ ابن تيميّة ومَن لَفَّ لَفَه يصفون أنفسهم بأهل الحديث ويفسّرون التوحيد في الخالقِيّة بهذا المعنى، أفهل بعد هذا يمكن لهم تزهِه سبحانه عن الظلم والجور والتعدّي والتجاوز، فإذا كان هو الخالق لسيّئات العباد، وليس للعباد فيها صنع، لا استقلالاً ولا تَبَعاً، فلماذا يعذبهم؟ أوّليس هذا من مقولة قول القائل: «غيري جنا وأنا المعاقب فيكم».

وأنت خبير بأنّ التوحيد في الخالقِيّة ليس بالمعنى الذي ذكره أصحاب الحديث، وفي مقدّمته ومؤخّرتهم: الجبريّة وابن تيميّة وأشياعه. بل معناه، أنّ الخالق المستقلّ والمؤثّر الغنيّ عن كلّ شيء هو الله سبحانه، ولكن هناك فواعل ومؤثّرات تؤثّر بإذنه سبحانه، وتخلّق بأمره، وتقوم وتتعدّد بحوله وقوّته، فالإنسان هو المسؤول عن أعماله وأفعاله: «كلّ نفسٍ يا كَسَبَتْ رَهينَةً» (٣).

(١) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

(٢) مقالات الإسلاميين: ص ٣٢١.

(٣) سورة المدثر: آية ٣٨.

نزف علماء الوهابية إلى السلاطين

نرى أنّ علماء الوهابية في السعودية، وغيرها يتزلفون إلى أصحاب السلطات، وخلفاء الجور ويسعون في تبرير أعمالهم الظالمة، ومواقفهم الجائرة، ويجهدون في إضفاء طابع الشرعية على كلّ ما يصدر من حكّامهم وأولي أمرهم برّاً كان أو فاجراً. ولا عَجَبَ في ذلك لأنهم هم الذين يرون الصلاة خلف كلّ إمام برّ وفاجرٍ صحيحة، والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح فريضة، والخروج عليهم عند الانحراف محرّمة (١).

وأين هم من قول رسول الله -صلى الله عليه وآله- حسبنا نقله عنه سبطه الحسين بن عليّ أبو الشهداء إذ قال: «أيها الناس إنّ رسول الله -صلى الله عليه وآله- قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاًّ لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قولٍ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله» (٢).

قل لي بربك أيّ القولين وأيّ المنهجين ينبع من صميم الإسلام، ويُجسد رؤيته ونظريته. قال سبحانه: «ولا تتركوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار» (٣).

(١) المصدر السابق: ص ٣٢٢. وهو عقيدة أصحاب الحديث وابن تيمية وأتباعه من هذه

الفرقة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣٠٤، حوادث سنة إحدى وستين.

(٣) سورة هود: آية ١١٣.

الثورة الإسلامية وهجمة الوهابية

لقد أحدث نجاح الثورة الإسلامية في إيران زلزالاً كبيراً في المنطقة، وأقلق جميع الأنظمة الحاكمة فيها، وبالأخص ما يتصل منها بالقوى الكبرى، وتعتمد عليها كل الجهات والدوائر الإستعمارية، ومن هذه الأنظمة النظام الوهابي الحاكم على قطر كبير من الأقطار الإسلامية يزخر بأضخم الثروات الطبيعية، ويتمتع بموقع جغرافي خاص.

فعمد الإستعمار البغيض وأذنا به وعملائه وفي مقدمتهم دعاة الوهابية إلى الوقوف في وجه الثورة الإسلامية وتيارها بشتى الوسائل من إيجاد القلاقل في داخلها، وإشعال نيران الحرب في وجهها، وفرض الحصار الإقتصادي عليها، ولما فشلت جميع هذه المخططات المناهضة للثورة عمدوا إلى تشويه ثقافة الثورة ومسح مفاهيمها ورميها بأكاذيب ونسب مفتعلة لمنع الناس من اتباع نهجها، والاقتراء بها، وبقائدها.

وقد تمثل هذا المخطط العدواني على ثقافة الثورة الإسلامية في أمور:

١ - تحريك إذاعات وصحف مختلفة في شتى أقطار العالم للتحدث ضد الثورة، والتشويش عليها، وتشويه ثقافتها الواقعية.

٢ - طبع رسائل وكتب كثيرة جداً حول ثقافة الثورة بأيدي رجال وكتاب ماجورين لا يهتمهم إلا علفهم، وإلا مناصبهم الدنيوية، وفي مقدمتهم كيزبان أشوس هو إحسان إلهي ظهير، وهو من مرتزقة السعودية في المنطقة.

فقد قام بكلّ ما يملك من القوى، وبكلّ ما تقدّمه السعودية من العُدّة بتشويه ثقافة الثورة بين المسلمين، والمسكين فقير في كلّ شيء حتى في ما يدّعيه من المعرفة بمذهب الشيعة الإمامية، فجعل يخلط ويخبط، ولا يميّز بين الأصل والفرع ولا بين العقيدة والرواية، ويستدلّ بالرواية على كونها مذهب الشيعة.

أضف إلى ذلك كثيراً من أكاذيبه وافتعالاته واستنتاجاته الزائفة. فلنا مع الرجل موقف آخر في كتاب مستقل.

٣ - نشر المذهب الوهابي بين الشباب في المنطقة بأساليب مختلفة، مصرّحين بأنهم هم المسلمون الموحدون العاملون بالكتاب والسنة، وغيرهم بُعداء عن ذلك.

فلأجل ذلك وضعنا تلك الرسالة في تبين المذهب الوهابي، وأوضحنا فيها قيمة ما تقوله الوهابية ومدى بُعدها عن الكتاب والسنة وسيرة المسلمين.

وفي الختام نقترح على علماء الإسلام المتواجدين في جميع الآفاق والأقطار أولاً، وعلى كتاب الوهابية ثانياً القيام بعقد مؤتمر عالمي إسلامي يضمّ علماء المسلمين من كافة الطوائف الإسلامية لدراسة هذه المسائل على ضوء الكتاب والسنة، ونشر نتائج ذلك المؤتمر في الملأ الإسلامي، حتى يتبين الحق بأجل مظاهره، ويتبع، والحق أحقُّ أن يتبع، والله هو الموفق والمعين.

جعفر السبحاني

قم المشرفة

١/ صفر المظفر/ ١٤٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحاجه إلى مؤتمر عالمي إسلامي لدراسة التوحيد والشرك

إنَّ الكعبةَ أوَّلَ بيتٍ بُنيَ لعبادةِ اللهِ وتوحيدهِ فيه، وقد وضعتُ أسسه وقواعده قبل عهد نوح النبيِّ عليه السَّلامُ وينبئنا عن ذلك قولُ الله سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ» (١).

و لقد تعرَّضت الكعبةُ المعظَّمةُ بعد ذلك - وبسبب الطوفان - لما أوهى بُنيانها، وصدَّعَ جدرانها، فلما جاء النبيُّ إبراهيم الخليل - عليه السَّلام - عمَّدَ إلى بنائها كما يخبرنا سبحانه عن ذلك إذ يقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ» (٢).

وبعدَ ما أرسى الخليلُ - عليه السَّلام - قواعدها وأعاد تشييدها وَجَّهَ الدَّعْوَةَ - وبأمرٍ من الله ووحيه - إلى كلِّ الموحِّدين لزيارة هذا البيت والحجِّ إليه، قال تعالى: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» (٣).

(١) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

وقد جعل الله بيته الحرام مركزاً لاجتماع المؤمنين وداراً أمنٍ للموحّدين، فيجب أن لا يتوجسّ أحدٌ عنده خيفةٌ، ولا يخشى خطراً، ولا يخاف ظلماً، كما يدلّ عليه قوله تعالى: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا» (١).

على أنه تعالى قد جعل زيارة بيته الحرام ضماناً لاستمرارية حياة المؤمنين، وصارت إقامة مراسم الحجّ تؤمّن الحياة الفردية والاجتماعية، المادية والمعنوية لهم.

«جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ» (٢).

وفي ضوء هذه الآية الكريمة يقول الإمام الصادق -عليه السلام-:

«لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا مَا قَامَتِ الْكَعْبَةُ» (٣).

إنّ مزايا زيارة بيت الله الحرام أكثر من أن نتحدّث عنها في هذه المقدمة، ولكنّ الشيء الذي نوّد الإشارة إليه هو الوضع الذي تعيشه «الكعبة» اليوم، وهي في قبضة من يعتبرون أنفسهم «خُدَمَ الحرمين الشريفين» ويفتخرون بذلك.

إننا -وانطلاقاً من المزايا التي خصّ الله بها الكعبة - نتساءل عن أمرين هامّين:

الأول: هل تُعتبر مراسم الحجّ - اليوم - «قياماً للناس» بالفعل؟

(١) سورة البقرة: آية ١٢٥، وراجع سورة القصص: آية ٥٧.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ١٤.

هل إنَّ زيارة الكعبة واجتماع أكثر من مليوني مسلم حولها،
 أمَّنتِ الحياة المادية والمعنوية لهم وضمنت استمرارية حياتهم؟
 اذا كان الأمر كذلك حقيقة، فتعالوا لتتساءل: في أيِّ موسم
 -من مواسم الحج السنوية- تحدّث خطباء الحرمين عن المسائل
 الحيوية للمسلمين؟!!

و هل طُرحت قضايا المسلمين ومشاكلهم على بساط المناقشة
 والمعالجة في هذه الاجتماعات العظيمة؟!
 ومتى عالَج خُدّام الحرمين وخطباؤهم قضايا المسلمين
 ومآسئهم؟!!

و كنموذج من الوضع المأساوي الذي تمرّبه الكعبة
 الشريفة أذكر هذه القضية:

في سنة ١٣٩٦هـ تشرفتُ لزيارة بيت الله الحرام وأداء العمرة،
 مع مجموعة من براعم حفاظ القرآن الحكيم وذلك للمشاركة في
 مسابقة حفظ القرآن.

في تلك الأيام كانت الإذاعات ووسائل الإعلام تنشرنا
 احتلال إسرائيل لجنوب لبنان، وعمليات القمع الوحشي التي
 قامت بها إسرائيل على الفلسطينيين وغيرهم.

وفي يوم الجمعة حضرنا في مركز تحفيظ القرآن الكريم الكائن
 بجنب الحرم الشريف، وبعد انتهاء جلسة المسابقة ارتفع صوت
 الأذان وحان وقت الصلاة، واستقرّ خطيب الجمعة على المنبر
 لإلقاء الخطبة.

كنت أتصوّر أنّ هذا الخطيب سوف يتحدّث عن قضية الساعة -وهي احتلال جنوب لبنان وما يجب القيام به على المسلمين تجاه هذا الغزو الصهيونيّ التوسّعي- ولكن سرعان ما تبدّل الظنّ الحسن الى يقين سيّء، إذ أنّ الخطيب بدأ يتحدّث عن النظافة و استحبابها وآثارها الحسنة وعن آداب المسجد وصلاة الجمعة وما شابه ذلك، ولم يتحدّث عن قضية الساعة حتى بحرف واحد!!

كان جالساً الى جانبي رجل من شخصيات مصر، من الاخوان المسلمين الهاربين من مصر والملتجئين الى الحجاز، فقلت له: هل كانت هذه الخطبة مناسبة للوضع الذي يعيشه المسلمون اليوم؟

ولأن الرجل كان مُنصفاً فقد شاركني في الأسف والانزعاج. وعلى ما يبدو فإنّ خطب صلاة الجمعة كلّها تخضع -قبل كلّ شيء- للرقابة والتفتيش، والحكومة هي التي تعيّن الخطوط العامّة للخطباء، حتى لا يتجاوزوا ذلك النطاق... فلا حديث عن الاستعمار ومكائده ضدّ الاسلام، ولا كلام عن أعداء الاسلام و أوضاع المسلمين، ولا... ولا...

أمّا الحديث عن الشيعة و «المجوس!!» فهو الى ما شاء الشيطان!

وقد صدر-بعد الثورة في ايران- كتاب اسمه: «وجاء دور

المجوس!!!»

بعد ذكرهما سبق، هل يصح أن يُقال: إنَّ حكام نجد والحجازهم خدام حرم الله وأمناء بيت الله؟! وهل صارت الكعبة «قياماً» للعالم الإسلامي في عهدهم؟! الثاني: هل الحرم الإلهي دار أمن وأمان في الوقت الحاضر؟ إنَّ القرآن الكريم يعتبر مكة ونواحيها حرم «أمن» إلهي فيقول سبحانه:

«وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً» (١).

وإنَّ إبراهيم الخليل - وهو أبو المسلمين جميعاً - سأل ربه أن يجعل الحرم منطقة أمن وأمان فقال عز من قائل:

«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» (٢).

والآن نتساءل: هل أنَّ خدام الحرمين هم - بالفعل - حماة لهذا التشريع الإلهي؟! هل يملك المسلمون - على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم الحرية في أن يُعالجوا قضاياهم السياسيّة ويتبادلوا وجهات نظرهم في الحرم الشريف؟! هل يستطيع المسلمون - المجتمعون حول الكعبة - من أن يبتثوا

آلامهم ويُطلع بعضهم الآخر على أوضاعهم ومآسئهم؟! هل الأمر كذلك، أم أنَّ حرية الكلمة وإبداء الرأي تُمنح للمذهب «الحنبلي» فقط من بين المذاهب الإسلاميّة؟!

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٥.

ولا يُسمح بنشر الأفكار والمعارف العالية في الإسلام إلا الأفكار الجوفاء الهزيلة لابن تيمية وابن القيم... وبالتالي: أفكار محمد بن عبد الوهاب!!

ولا يُتحدث - في خطب الجمعة وغيرها - عن أي موضوع إسلامي سوى «زيارة القبور» و «تحريم الاحتفال بمولد الرسول» و «حرمة تعظيم أولياء الله تعالى» وكأن الإسلام ينحصر في هذه المواضيع فقط!!

ومن يخالف أفكارهم الباطلة، فجزاؤه الحكم بكفره و شركه، وأنه يجوز شتمه وضربه ولعنه، وأنه كافر... مشرك... و...

فهل هذا معنى قوله تعالى: «حَرَمًا آمِنًا»؟!!

وهل نخالف الواقع إذا قلنا: إن «الكعبة» اليوم ترزح تحت وطأة «...»؟!!

إن الفكرة الوهابية قائمة على أساس تكفير المذاهب والفرق الإسلامية، وزرع التفرقة بين المسلمين، وتشويه سمعة الإسلام وتعاليمه السمحة، وسحق آثار الوحي والرسالة، والمصالحة والمجاملة مع كل الطغاة والحكام الفسقة الفجرة... حتى مثل يزيد بن معاوية!!

والخطباء و المؤفون - الذين تستخدمهم السلطان الوهابية - ليسوا إلا خطباء مستأجرين للبلاط، ووعاظاً للسلطين، لا يقولون ولا يكتبون إلا بما يشتهي أسيادهم من الوهابيين السلفيين

الغرباء عن الدين .

أيها القارئ الكريم: لعلك تتصور أننا قد بالغنا في التعبير
وابتعدنا عن جادة الحق والانصاف فيما ذكرناه عن هذه الزمرة .
ولكي لا تظلل في التيه، ولا تتهمنا بالإسراف في التعبير فإننا
نضع أمام عينيك صورة غلاف إحدى الكتب التي طبعتها
الحكومة السعودية ونشرتها بصورة واسعة، وهذا الكتاب هو تعظيم
وتقديس لرجل رمى جيشه الكعبة بالمنجنيق! (١) وأباح مدينة
رسول الله - صلى الله عليه وآله - لجيشه ثلاثة أيام كاملة، يهبون
الأموال ويهتكون الأعراض ويقتلون الأنفس!
وترى بعينيك مكتوباً على الغلاف أنّ وزارة المعارف في
الحكومة الوهابية هي التي تكفلت طبع ونشر هذا الكتاب
الباطل .

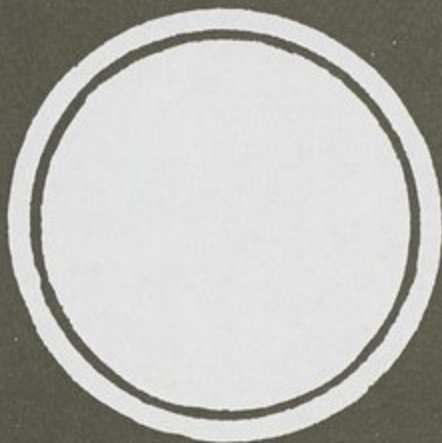
(١) المنجنيق: آلة حربية تُرمى بها الأحجار والقذائف .

المكتبة العربية للبيروت

وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

حَقَائِقُ عَنِ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

يُزَيْنُكَ مِنْ مَعَاوِيَةَ



بعد ذكر ما سبق... نقول: إن في الحجاز حرية مطلقة بلا حدود، وفي نفس الوقت فيه خنق وقيود بلا حدود.

أما الحرية المطلقة فهي للوهابية ومن يتعاون معها من المرتزقة، فالكتب والمطبوعات المحشوة بتمجيد الظالمين وتعظيم الفسقة الأمويين والعباسيين، هذه الكتب تُطبع وتُنشر بلا أي قيد أو شرط، بل إن الحكومة تساهم في طبعها ونشرها.

وأما الخنق والضغط والكبت والمنع والحرمان فهو للمطبوعات التي تتحدث عن الإسلام - كما نزل من عند الله تعالى - وعن أهل البيت الذين جعلهم الله عدلاً للقرآن وأنزل القرآن في بيوتهم وطهرهم من الرجس تطهيراً.

نعم... إن كل كتاب يدخل الحجاز لابد وأن يخضع للرقابة والتفتيش، ولا يُسمح بدخوله في تلك البلاد إلا بعد موافقة وزارة «الاعلام!!».

إنني في العام الماضي - سنة ١٤٠٤ هـ - تشرّفتُ للحجّ وزيارة المراقدة المقدسة للنبي وآله الطاهرين - عليهم السلام - في المدينة المنورة. في مطار المدينة كان معي عشرُ نسخ من كتاب «مصدر الوجود» وهو كتاب يبحث عن الأدلة الفطرية والعقلية لوجود الله سبحانه، وكان الهدف من حمل هذه النسخ إلى تلك البلاد هي المساهمة في نشر التوحيد والايان بالله تعالى هناك. ولكن المؤسف أن المسؤول عن المطبوعات في المطار حُكِمَ «بالقاء القبض» على هذه النسخ وتوقيفها حتى إشعار آخر!!

وقال لي -بعد مطالعة إجمالية للكتاب-: بالرغم من أن هذا الكتاب مفيد ورائع إلا أنه لا بدّ من إرساله إلى وزارة الإعلام، وعليك باستلامه منهم.

نعم، هذا معنى قوله تعالى: «بَلَدًا آمِنًا»!!!

* * *

كلمة «الشرك» تُلاحقك عن يمينك ويسارك

إنّ من جملة الكلمات الرخيصة المتداولة في السعودية هي كلمة «الشرك» وتوجيه هذه التهمة إلى كثير من العلماء والشخصيات الإسلامية!

إذا التقيت برجال «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!» فإنّ أكثر ما تسمعه منهم هي هذه الكلمة القاسية وأمثالها، وكأنّه لا يوجد في قاموسهم سوى هذه الكلمات المنفّرة البذيئة، وكأنّه لا مهمّة لهم سوى توجيه هذه التهمة إلى ضيوف الرحمان وحُجاج بيت الله الحرام!!

في خلال كتابة هذه المقدمة، و صلني كتاب «الشيعنة والتشيع» لمؤلف باكستاني حاقد، من مرتزقة الوهابية اسمه: إحسان إلهي ظهير، وقد طبع في السعودية، وفيه يكيل المؤلف التهم والافتراءات على الشيعة، ويزعم أنّه يروي عن كتبهم ومصادرهم.

فترى - مثلاً - في ص ٢٠ من الكتاب، يذكر كلمة للمرحوم الاستاذ الجليل الشيخ محمد حسين المظفر، ثمّ يشرحها حسب

هواه، وبما تمليه عليه نفسه الأمانة بالسوء!.

وفيا يلي نضع نصب عينيك - أيها القارئ الكريم - تلك الكلمة مع شرح هذا الوهابي، لترى بنفسك كيف يلجأ الوهابيون - المفلسون من الدليل - إلى أسلوب التهمة والافتراء والكذب على الشيعة.

يقول المرحوم المظفر:

«... فكانت الدعوة للتشيع لأبي الحسن - عليه السلام - من صاحب الرسالة

- صلى الله عليه وآله وسلم - تمشي منه جنباً لجنب مع الدعوة للشهادتين».

و معنى كلامه - رحمه الله - إن التشيع ليس وليد الظروف ولا مذهباً مبتدعاً، بل هو مذهب أصيل يمدُّ جذوره إلى زمن صاحب الرسالة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فكان النبي يدعو إلى إمامة أمير المؤمنين - عليه السلام - إلى جانب الدعوة للشهادتين. ثم يعتمد هذا الوهابي الأثيم إلى التعليق على كلمة الشيخ المظفر فيقول:

«إن النبي - حسب دعوى المظفري - كان يجعل علياً شريكاً له في نبوته

ورسالته»!!.

إذا لم يكن هذا الكاتب أسيراً للهوئى والعصبية، ومرتزقاً للوهابية، وإذا كان مطلعاً على مبادئ العقائد الإسلامية الشيعية وأوليآتها، لما كان يصدر منه هذا التعليق السخيف، ولا انتقد الشيخ المظفر العالم الجليل.

ثمّ إننا نقول: اذا كانت الدعوة الى إمامة علي -عليه السلام- تُعتبر دعوة الى الشرك أو الى المشاركة في النبوة، فهذا القرآن الكريم قد سبق الى ذلك، فقد دعا الى طاعة الله ورسوله وطاعة «أولي الأمر» في سياق واحد، فقال سبحانه:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (١).

فعلى رأي هذا الكاتب الوهابي فإن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بدّل أن يدعو الى التوحيد دعا الى الشرك والثنوية، لأنه قرن بين طاعة أولي الأمر وطاعة الله تعالى، لأن كلمة «أولي الأمر» - كينها فسرناها - تشمل الإمام علياً -عليه السلام- قطعاً، بل هو من مصاديقها البارزة.

وقد ذكر المؤرخون والمفسرون والمحدثون أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لما نزل عليه قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (٢) دعا أقرباءه الى مأدبة طعام في داره، ثم أعلن فيهم نبأ نبوته ورسالته، وبعد ذلك قال:

«فَأَبِّئْكُمْ بِوَأَزُّنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ؟».

فلم يقم أحدٌ منهم إلا الإمام علي -عليه السلام- فقال:

«أنا يا رسول الله».

فكرّر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كلامه مرّة ثانية و ثالثة، كي يترك لهم فرصة اتخاذ القرار.. ولم يجبه أحد إلا

(٢) سورة الشعراء: آية ٢١٤.

(١) سورة النساء: آية ٥.

أمير المؤمنين - عليه السلام - فقال النبي:

«إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» (١).

فانطلاقاً من هذه الحقيقة التاريخية يقول الشيعة بأن من ذلك اليوم الذي أمر فيه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بالدعوة الى التوحيد والرسالة، أمر فيه أيضاً بالدعوة الى إمامة علي - عليه السلام - وخلافته من بعده، فكانت الدعوة الى الايمان بالرسالة مقرونة بالدعوة الى الايمان بالإمامة.

فهل يصح أن يُقال: إن الشيعة تعتقد بأن علياً كان شريكاً مع النبي في النبوة؟!!

وهل الدعوة الى خلافة الإمام علي - عليه السلام - بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وآله - معناها الدعوة الى النبوة؟!!

الأخطاء في كتب أهل السنة

نعم، إن النقص والخطأ في كتب أهل السنة - وخاصة الوهابيين السلفيين - يعود الى أمرين:

الأول: عدم توفر المعلومات الكافية لديهم عن هذا المذهب الحق، وهذا النقص عندهم لا يختص بزماننا هذا، بل يعود الى قرون بعيدة في التاريخ، ولعلّ السبب في ذلك هو ما كانت

(١) مصادر هذا الحديث مذكورة في كتب المؤرخين والمحدثين والمفسرين، وهو معروف عندهم بـ «يوم الانذار» و «بدء الدعوة» وممن رواه: الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٦٣ طبعة مصر.

تمارسه الحكومات الجهنمية - من أموية وعباسية وغيرها - من الضغط على الشيعة وكبت حرياتهم وعدم السماح لهم ببيان عقائدهم الحقّة في المحافل والمجامع العلميّة، كي يتعرّف الناس على التشيع من أفواه أوليائه لا من مخاريق أعدائه.

إن التاريخ يثبت لنا أن جميع المذاهب كانت تملك الحرية في إبداء الرأي وتبيان العقيدة إلا هذا المذهب الحق فإنه كان ممنوعاً من ذلك .

نعم، هبّ على الشيعة نسيم من الحرية في فترات وجيزة لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف .

وعلى كلّ حال، فالجهل بمذهب الشيعة - والحقّد أحياناً - صار سبباً لاختلاف هذه الأكاذيب والافتراءات وملأ الكتب بها وتشويه سمعة هذا المذهب الحق .

ولقد اعترف أحمد أمين المصري - صاحب كتاب فجر الإسلام - بهذا الأمر، بعد أن نشر كتابه مشحوناً بالأكاذيب والافتراءات ضدّ الشيعة، ثمّ زار مدينة النجف الأشرف، فعاتبه بعض العلماء على هفواته ومغالطاته ضدّ الشيعة، وكان أقصى ما عنده من الاعتذار هو عدم الاطلاع وقلة المصادر!

الثاني: تغيير المناهج التعليميّة في المجامع العلميّة لأهل السنّة، واستبدال الكتب العميقة - مثل كتاب المواقف وشرح المقاصد - بالكتب السطحيّة القشريّة. وقد أدّى ذلك إلى السطحيّة في التفكير والتأليف وغياب التعمّق الفكري، حتى أنه لم يوجد في

كثير من البلاد الإسلامية من يُحسن تدريس هذين الكتابين اللذين كُتبا في القرن الثامن الهجري.

من هنا، فليس عجباً أن نرى «إحسان الهي ظهير» - على سبيل المثال لا الحصر - يخط هذه الخبطة العشواء، فلا يفرق بين الدعوة الى الإمامة والدعوة الى النبوة، وأن يكتب كتاباً حول الفرق في التأريخ وينشره مدعوماً بأموال البترول الذي تبرّه حكومة الاحتلال الوهابي في الحجاز، هذا مع العلم أن الكاتب جاهل بمبادئ عقائد الشيعة.

قليلاً من التعمق في التفكير

يقول حفيد رسول الله الامام الصادق - عليه السلام -:

«العالمُ بِرَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَايِسُ».

على ضوء هذا الحديث الشريف، علينا أن نفكر في الوضع المأساوي والحوادث المُرّة التي يمرّ بها العالم الاسلامي اليوم، علينا أن نعرف العدو الحقيقي للإسلام.

منذ أكثر من مائة عام والحرب الفكرية ضدّ الإسلام تسعر نارها، والشرق والغرب - بالتعاون مع عملائها في المنطقة - يبذلان قصارى جهودهما من أجل ضرب هذا الدين الحنيف وتشويه سمعته، وما من اسبوع أو شهر إلا ويصدر كتاب ضدّ الإسلام العظيم.

في مثل هذه الظروف الأليمة، هل يصحّ ان تُجنّد السعودية

طاقاتها وإمكانياتها ومطبوعاتها في سبيل محاربة التشيع فقط؟!!

و كأنه ليس في العالم الاسلامي مشكلة سوى التشيع!!
 هذا... ولو كانت تلك الكتب تتحدّث على أساس المنطق
 والدليل لم تكن نمانع منها - في الجملة - لأن المنطق مقبول عند علماء
 الشيعة، فهم إمّا يسلّمون به أو يردّون عليه بالمنطق والبرهان،
 ولكن - ومع كلّ أسف - ترى أكثر كتبهم مليئة بالكذب والبهتان والمغالطة
 والتزوير، ضدّ الشيعة وضدّ علماءهم الأبرار - رضوان الله عليهم -.

بل ترى في بعضها ما لا يخلو من الإهانة وسوء الأدب تجاه
 إمام المتقين وأمير المؤمنين سيّدنا ومولانا علي - عليه السلام -.

وخذ مثلاً من ذلك: كتاب «الشيعة والتشيع» المشار اليه، فهو
 نموذج بارز من تلك الكتب المنحرفة، فترى المؤلف - نقلاً عن
 الطبري وابن كثير وابن خلدون وغيرهم من أعداء الحق - يعتبر
 التشيع وليدة أفكار عبدالله بن سبأ اليهودي، ثمّ يستشهد بما كتبه
 أحمد أمين المصري - في كتاب فجر الاسلام - ضدّ الشيعة، ثمّ يكمل
 الشوط بالاستشهاد بمقالات المستشرقين - من يهود ونصارى - ك:
 «دوزي» و«ملّر» و«هاوزن»، ولكنه لا يذكر شيئاً من كتب
 الشيعة، فهل هذا من الانصاف في شيء؟!؟

إن علماء الشيعة القدامى - كالشيخ الصدوق المتوفّي
 سنة ٣٨١هـ، والشيخ المفيد المتوفّي سنة ٤١٣هـ وغيرهما - قد كتبوا
 عقائد الشيعة ونشروها بين الناس، وهاهي متوقّرة في المكتبات،
 وهي تعكس الصورة الحقيقية لعقائد الشيعة، فلماذا لا يعتمد
 عليها في النقل؟!؟

أليس «أهل البيت أدرى بما فيه»؟! وهل أحمد أمين المصري -الغريب عن التشيع والجاهل به باعترافه- أعرف بهذا المذهب الحقّ من علمائه الأبرار؟! وترى هذا الكاتب الوهابي الأثيم يُحاول ان يُبرّر ما ارتكبه ضدّ الشيعة من الاعتماد على كتب أعدائهم فيقول: إن هذه الكتب -أي كُتُب عقائد الشيعة- هي كتب إعلامية دعائية للشيعة، أمّا عقيدتهم الواقعية فليست مذكورة في هذه الكتب!!

و الأسوء من ذلك أنه يأتي الى حديث مذكور في كتاب «بحار الأنوار» و«الأنوار النعمانية» ويعتبره دليلاً على عقيدة الشيعة، مع العلم أن ممّا لا شكّ فيه هو وجود أحاديث ضعيفة في كتب السنّة والشيعة، هذا ما نعلمه جميعاً، وذكر حديث واحد لا يكون دليلاً على عقيدة قوم -بأي وجه- فهناك الراوي الضعيف والكذاب والمجهول ، فلا يمكن الاعتماد على حديث إلا بعد التحقيق في سنّده ورواته.

ولنا أن نسأل هذا الوهابي الأجير وأمثاله من المرتزقة: هل أن كلّ ما جاء في تاريخ الطبري مُعتبر صحيح بلا تردّد، أم أن الاعتماد على ما يرويه يتوقّف على التحقيق في اسناده؟! إن ممّا لا شكّ فيه هو وجود رواة كذّابين ووضّاعين في روايات الطبري، ولسنا الآن بصدد التفصيل في هذا الموضوع، ولكننا نذكر نموذجاً من ذلك:

في كتاب «الشيعة والتشيع» ص ٤٩ يتّهم المؤلّف الشيعة بأنّها

استلهمت أفكارها من عبدالله بن سبأ، المتولد من يهودي يمني، والذي يعتقد فيه الطبري أنه أظهر الإسلام وأبطن اليهودية، واتخذ من محبة الإمام علي غطاء لنشر أفكاره. ولكن: هل أن عبدالله بن سبأ كانت له حقيقة في هذا الوجود يوماً ما، أم أنه رجل مختلق نسجته أفكار أعداء الشيعة للطعن على هذه الطائفة الحقّة؟! فهذا ما لانبجث عنه الآن.

فترى الكاتب الوهابي يعتمد على ما يرويه الطبري حول هذا البهتان. أمّا سند الرواية التي يروها الطبري فهي كالتالي - بالنص -:

«كُتِبَ إِلَيَّ السَّرِيِّ عَنْ شَعِيبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ يَزِيدَ الْفُقَعَسِيِّ: كَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ يَهُودِيًّا مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ...» (١).

نحن الآن نضع سند هذه الرواية على طاولة البحث والتحقيق، لنرى هل يجوز الاعتماد على رواية هؤلاء الرواة المذكورة أسماؤهم هنا - أم لا؟

نظرة عاجلة في كُتُبِ علم الرجال - التي كتبها علماء السُنة - تكفينا لمعرفة أحوال هؤلاء الرواة . وإليك التحقيق:

١ - السري: سواء كان السري بن إسماعيل الكوفي أو السري بن عاصم المتوفى ٢٥٨ كلاهما من الكذابين والوَصّاعين (٢).

(١) وقد رواها أيضاً: ابن خلدون المغربي و ابن كثير الشامي ومن على شاكلة الطبري من أعداء أهل البيت.

(٢) راجع تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٣ ص ٤٦، تاريخ الخطيب: ج ٩ ص ١٩٣، ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٧، لسان الميزان: ج ٣ ص ١٣.

٢ - شعيب بن إبراهيم الكوفي: مجهول (١).
 ٣ - سيف بن عمر: يروي الأحاديث الكاذبة وينسبها الى
 رواة ثقات (٢).

٤ - يزيد الفقعسي: مجهول لم يُذكر اسمه في كتب الرجال.
 والجدير بالذكر أن الطبري يروي - في الجزء الثالث والرابع
 والخامس من تاريخه - ٧٠١ رواية حول الحوادث التي حدثت من
 سنة ١١ هـ الى ٣٧ هـ، وهي فترة حكومة أبي بكر وعمر وعثمان،
 وكلّ تلك الروايات مروية عن هؤلاء الخمسة فقط!!
 ونتيجة لذلك فقد زوّر الطبري كثيراً من تلك الحوادث
 وذكرها كما تُمليه عليه نفسه!!، فهل يصحّ وهل يجوز الاعتماد
 على مثل هذه الروايات؟!

ومما يثير الدهشة أكثر هو أن روايات هؤلاء الخمسة تنحصر
 في الجزء الثالث والرابع والخامس من تاريخ الطبري فقط، أمّا
 الأجزاء الأخرى فلا ترى فيها ذكراً لأسمائهم ولا رواية منهم
 سوى رواية واحدة فقط في الجزء العاشر!!.

فهل أن المعلومات التاريخية لـ «السري» و «سيف بن عمر»
 كانت منحصرة في حوادث هذه الفترة الزمنية فقط، وكانت
 محدودة بما يرتبط بالمذهب؟!!

نعم، أن كلّ من يعن النظر في روايات هؤلاء الخمسة

(١) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٤٧، لسان الميزان ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٣٨، تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٢٩٥.

يُدرِك - بوضوح - أنها من وضع رجل واحد، وأن من ورائها هدفاً واحداً .
ويبعد الظن أن يكون هذا الأمر ملتبساً على الطبري وغائباً
عنه . فلماذا ذكر الطبري كلّ هذه؟

الجواب: إنه الحبّ والبغض الذي يُعمي ويُصمّ!
ومن المؤسف جداً أن ثلّة من المؤرخين جاءوا بعد الطبري
فرووا عنه واقتفوا أثره، فأوردوا هذه الروايات الموضوعة المزوّرة في
تواريخهم، من دون أدنى تحقيق في صحتها ورجال سندها، ظناً
منهم أن كلّ ما يرويه الطبري إنما هو عين الواقع وواقع الحقيقة .
أنظر تاريخ ابن عساكر، والكامل لابن الأثير، والبداية
والنهاية لابن كثير، وتاريخ ابن خلدون وغيرها، ترى صحّة ما قلناه .
وهكذا لم تسلّم كتب التاريخ الحديثة من هذا التزوير
الفضيع والاختلاف المقيت .

ولكن من حُسن الحظّ أن رجال السند في روايات تاريخ
الطبري مذكورة، وذلك ممّا يفسح المجال لمعرفة الرواية الصحيحة
وفرزها من الرواية الضعيفة أو الموضوعة، كما قدّمنا لك نموذجاً
عابراً من ذلك .

والآن نعود الى الحديث عن كتاب «الشيعه والتشيع»
فنقول: إن كتاباً يعتمد على مصادر رواياتها موضوعه ورواياتها
كذابون وضاعون، هذا الكتاب لا يملك أدنى قيمة، ونحن في
عصر الدراسات والتحقيق .

فهل يصحّ أن تُنسب طائفة إسلاميّة عظيمة - لها حظّ كبير في

العلوم الاسلامية وإحياء السُّنة النبوية الشريفة، وهي في طبيعة المحاربين لإسرائيل الغاصبة - هل صحيح ان تُنسب الى رجل يهودي مجهول، اعتماداً على تواريخ هزيلة ثبت كذب رواها؟! !!

القياس الخاطيء

ونسير مع الكاتب الوهابي - في كتابه التافه - فنراه ينتقد الإمام علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه - في صورة استفهام وسؤال عن سبب تسرعه - عليه السلام - في عزل معاوية فور وصوله - عليه السلام - الى الحكم، ويتساءل: لماذا ولماذا؟

إن الذي دعاه الى الاعتراض هو مقايسته الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - بالحكام المصلحيين الذين لا يفكرون إلا في مصالحهم الشخصية ويقدمونها على الأحكام الشرعية والتكاليف الإلهية، بل يُضحون بالجانب الشرعي لهدف المحافظة على الرئاسة والسلطة، فالغاية - عندهم - تبرّر الوسيلة.

هذا التفكير الخاطيء هو الذي دعا الكاتب الوهابي الى الاعتراض على إمام المتقين - عليه السلام - في صورة سؤال واستفهام.

نعم، لو كان الإمام أمير المؤمنين علي - عليه السلام - كسائر الحكام المصلحيين، لكان اعتراض هذا الوهابي وارداً، وكان المطلوب منه أن يترك الفسقة الظالمين - كمعاوية ونظرائه - يتحكّمون على رقاب المسلمين بما تشبهه أنفسهم الشيطانية وأهواؤهم الفاسدة،

ولكن الإمام - صلوات الله عليه - ليس من هذا النوع من الحكماء،
كلّا إنه حاكم مخلص يقول في جواب المغيرة بن شعبة - ونظرائه -
«وَلَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَرَانِي أَتَخَذَ الْمُضَلِّينَ عَضُدًا» (١).

أبها القارئ الكريم: الى هنا نقطع شريط الكلام، والذي
نرجوه هو أن يكون هذا الردّ السريع «النموذجي» قد كشف لك
عن اتجاه هذا الوهابي الحاقد على آل محمد وشيعتهم، وعن إفلاسه
الشديد في المعلومات الدينية والعقائد الإسلامية الحقّة، وعن
مغالطاته وهفواته المقصودة ورواياته الكاذبة، وسوف يتصدّى
علماء الدين وحملة الشريعة الحقّة لهذه الحملات الوهابية
الشرسة . ونأمل أن يصدر قريباً الردّ القاطع على أكاذيب هذا
الوهابي الضالّ المضلّ، إن شاء الله تعالى.

الى عقد مؤتمر إسلامي

إن من الضروري جداً عقد مؤتمر إسلامي، تُعالج فيه
المسائل المختلّف فيها، على ضوء العلم والمنطق والدليل.
ففي الوقت الحاضر يوجد إختلاف كبير بين الوهابية السلفيّة
وسائر المذاهب الإسلاميّة حول التوحيد والشرك، أليس من
الجدير - لهدف التقريب بين الطرفين - عقد مؤتمر علمي تُطرح فيه
هذه المسائل على بساط البحث والتحقيق، لهدف إزالة الباطل
وإحقاق الحق، عسى أن يشعّ منها نورينير الطريق للتائبين؟

(١) كتاب واقعة صفين: ص ٥٨ طبعة مصر.

و يجب أن يتخذ هذا المؤتمر طابع الجِدِّ والحقيقة، لا أن يكون مجرد عمل إعلاني تتخذ منه وسائل الإعلام مادة دسمة للدعاية لصالح حكومة معينة.

ولكي يتم هذا الأمر على ما يرام، ينبغي مراعاة الشروط الآتية:

- ١ - أن توجه الدعوة الى المفكرين الإسلاميين - من مختلف المذاهب الإسلامية - الذين يمثلون ذلك المذهب، ويُعتبرون - بحق - علماء ومفكرين له، وأن لا يقتصر على علماء البلاط السعودي، الذين يتواجدون في الهند وباكستان ومصر المظلومة.
- ٢ - وبالإضافة الى ممثلي المذاهب الأربعة، يجب أن توجه الدعوة الى علماء ومفكرين الشيعة الاثني عشرية، والى الطائفة الزيدية، حتى ينطبع المؤتمر بطابع الشمولية والعمومية للمسلمين جميعاً.
- ٣ - يجب منح الحرية الكاملة لأعضاء المؤتمر، حتى يستطيع كل واحد منهم المناقشة حول المسائل المطروحة في الساحة، ويملك الحق في الدفاع الحر عن أفكاره ومعتقداته، ويتجنب المؤتمر كل ما يمس بكرامة أعضائه، من كلمات السب والإهانة الرائجة في البلاد السعودية اليوم.
- ٤ - و يجب أن تكون الإدارة - التي تدير المؤتمر - محايدة تماماً، لا أن تكون منحازة الى جهة خاصة، والأفضل أن تكون متشكلة من مختلف المذاهب المشتركة في المؤتمر.

تمارسه الحكومات الجهنمية - من أموية وعباسية وغيرها - من الضغط على الشيعة وكبت حرياتهم وعدم السماح لهم ببيان عقائدهم الحقّة في المحافل والمجامع العلميّة، كي يتعرّف الناس على التشيع من أفواه أوليائه لا من مخاريق أعدائه.

إن التاريخ يثبت لنا أن جميع المذاهب كانت تملك الحرية في إبداء الرأي وتبيان العقيدة إلا هذا المذهب الحق فإنه كان ممنوعاً من ذلك.

نعم، هبّ على الشيعة نسيم من الحرية في فترات وجيزة لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف.

وعلى كلّ حال، فالجهل بمذهب الشيعة - والحقّد أحياناً - صار سبباً لاختلاف هذه الأكاذيب والافتراءات وملاً للكتب بها وتشويه سمعة هذا المذهب الحق.

ولقد اعترف أحمد أمين المصري - صاحب كتاب فجر الاسلام - بهذا الأمر، بعد أن نشر كتابه مشحوناً بالأكاذيب والافتراءات ضدّ الشيعة، ثمّ زار مدينة النجف الأشرف، فعاتبه بعض العلماء على هفواته ومغالطاته ضدّ الشيعة، وكان أقصى ما عنده من الاعتذار هو عدم الاطلاع وقلة المصادر!

الثاني: تغيّر المناهج التعليميّة في المجامع العلميّة لأهل السنّة، واستبدال الكتب العميقة - مثل كتاب المواقف وشرح المقاصد - بالكتب السطحيّة القشريّة. وقد أدّى ذلك الى السطحيّة في التفكير والتأليف وغياب التعمق الفكري، حتى أنه لم يوجد في

كثير من البلاد الإسلاميّة من يُحسن تدريس هذين الكتابين اللذين كُتبا في القرن الثامن الهجري.

من هنا، فليس عجباً أن نرى «إحسان الهي ظهير» - على سبيل المثال لا الحصر - يخبط هذه الخطبة العشواء، فلا يفرّق بين الدعوة الى الإمامة والدعوة الى النبوة، وأن يكتب كتاباً حول الفرق في التأريخ وينشره مدعوماً بأموال البترول الذي تبرزه حكومة الاحتلال الوهابي في الحجاز، هذا مع العلم أن الكاتب جاهل بمبادئ عقائد الشيعة.

قليلاً من التعمّق في التفكير

يقول حفيد رسول الله الامام الصادق - عليه السلام -:

«العالمُ بِزمانِهِ لا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللّوَيْسُ».

على ضوء هذا الحديث الشريف، علينا أن نفكر في الوضع المأساوي والحوادث المُرّة التي يمرّ بها العالم الاسلامي اليوم، علينا أن نعرف العدو الحقيقي للإسلام.

منذ أكثر من مائة عام والحرب الفكرية ضدّ الإسلام تسعر نارها، والشرق والغرب - بالتعاون مع عملائها في المنطقة - يبذلان قصارى جهودهما من أجل ضرب هذا الدين الحنيف وتشويه سمعته، وما من اسبوع أو شهر إلا ويصدر كتاب ضدّ الإسلام العظيم.

ففي مثل هذه الظروف الأثيمة، هل يصحّ ان تُجند السعودية

طاقاتها وإمكاناتها ومطبوعاتها في سبيل محاربة التشيع فقط؟! !!

لمحات عن حياة مؤسس الوهابية

تُنسب الطريقة الوهابية الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي، وباسم أبيه «عبد الوهاب» تُسمّى طريقته. أمّا السبب في عدم تسميتها بـ«المحمدية» نسبة الى مؤسسها: محمد، فهو- كما يقول البعض- للحذر من وقوع التشابه بينها وبين المسلمين أتباع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والحيلولة دون استغلاله (١).
وُلد الشيخ محمد عام ١١١٥هـ في قرية «غيينة» إحدى القرى التابعة لـ«نجد» وكان والده قاضياً فيها.

كان محمد بن عبد الوهاب -منذ طفولته- ذاعلاقة شديدة بمطالعة كتب التفسير والحديث والعقائد، وقد درس الفقه الحنبلي عند أبيه الذي كان من علماء الحنابلة. وكان -منذ شبابه- يستقبح كثيراً من الشعائر الدينية التي كان يمارسها أهالي نجد. ولم يقتصر ذلك على نجد بل تعداه الى المدينة المنورة بعد ما انصرف من

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي: ج ١٠ ص ٨٧١ نقلاً عن مجلة المقتطف:

مناسك الحج، فقد كان يستنكر على الذين يتوسلون برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عند مرقد المقدس.

ثم عاد الى نجد وبعدها ارتحل الى البصرة -وهو في طريقه الى الشام- وهناك في البصرة طفق يستنكر على الناس شعائرهم الدينية وينهاهم عنها، فثار عليه أبناء البصرة الغيارى وأخرجوه مدحوراً من ديارهم، فتوجّه الى مدينة الزبير.

وفي الطريق -بين البصرة والزبير- تعب من المشي ونال منه الحرّ والعطش نيلاً شديداً بحيث كاد أن يهلك -وليته هلك- فأدركه رجل من الزبير فعطف عليه عندما رآه مرتدياً زيّ رجال الدين، وسقاه الماء وأركبه وأوصله الى المدينة.

كان محمد بن عبد الوهاب عازماً على السفر الى الشام، لكنه لم يكن يملك ما يكفيه من المال والزاد، فسافر الى الأحساء ومنها الى حرمة التابعة لـ «نجد».

في تلك السنة -وكانت سنة ١١٣٩هـ- انتقل والده عبد الوهاب من عُيينة الى حرمة فلازم الولد والده وتلمذ على يده، وواصل حملاته المسعورة ضدّ الشعائر الدينية في نجد، ممّا أدّى الى نشوب النزاع والخلاف بينه وبين أبيه من جهة، وبينه وبين أهالي نجد من جهة أخرى، واستمرت الحالة على هذه حتى عام ١١٥٣هـ حيث توفي والده (١).

عند ذلك خلا الجوّ لمحمد بن عبد الوهاب، فراح يُعلن عن

(١) اقتطفناه من تاريخ نجد للأوسى: من ص ١١١ الى ص ١١٣.

عقائده الشاذة، ويستنكر على الناس ما يمارسونه من الشعائر الدينية، ويدعوهم الى الانخراط في حزبه وتحت لوائه، فانخدع بعض ورقض آخرون، واشتهر أمره في المدينة.

عندها قفل راجعاً الى «عُيينة» وكان يحكم عليها عثمان بن حمد، فاستقبله واکرمه، ووقع القرار بينهما على أن يُدافع كلٌّ عن صاحبه، باعتبار أن لأحدهما السلطة التشريعية وللآخر السلطة التنفيذية، فحاكم عُيينة يمدّه بالقوة ومحمد بن عبد الوهاب يدعو الناس الى طاعة الحاكم واتباعه.

ووصل الخبر الى حاكم الأحساء بأن محمد بن عبد الوهاب يدعو الى آرائه ومبتدعاته، ويعضده حاكم عُيينة فأرسل حاكم الأحساء رسالة تحذيرية الى حاكم عُيينة، فاستدعى الحاكم محمد بن عبد الوهاب واعتذر من تأييده، فقال له ابن عبد الوهاب: لوساعدتني في هذه الدعوة لملكنت نجد كلها، فرفضه الحاكم وأمره بمغادرة عُيينة مذموماً مدحوراً.

كان ذلك في عام ١١٦٠هـ عند ما خرج ابن عبد الوهاب من عُيينة وتوجّه الى الدرعية التي كانت من أشهر المدن التابعة لنجد، وكان حاكمها -يومذاك- محمد بن سعود -الجدُّ الأعلى لآل سعود- فزاره الحاكم واکرمه ووعده بالخير.

والمقابل بشره ابن عبد الوهاب بالهيمنة على بلاد نجد كلها، وهكذا وقع القرار المشؤوم (١).

(١) لقد ذكر أحد المؤلفين العثمانيين - في كتابه تاريخ بغداد ص ١٥٢ - بداية العلاقة بين

و الجدير بالذكر: أن أهالي الدرعية كانوا يعانون من فقر مُدقع وحرمان فظيع، حتى وصول ابن عبد الوهاب وعقد الاتفاقية بينه وبين محمد بن سعود.

يقول ابن بشر النجدي - فيما يرويّه عنه الآلوسي -:

«... وكان أهل الدرعية - يومئذ - في غاية الضيق والحاجة، وكانوا يحترفون لأجل معاشهم...»

ولقد شاهدتُ ضيقهم في أول الأمر، ثم رأيتُ الدرعية بعد ذلك - في زمن سعود - وما عند أهلها من الأموال الكثيرة والأسلحة المخلاة بالذهب والفضة والخيل الجياد والنجائب العُمانية والملابس الفاخرة، وغير ذلك من أسباب الثروة التامة، بحيث يعجز عن عدّه اللسان ويكلُّ عن تفصيله البيان.

ونظرتُ السى موسمها يوماً - في الموضع المعروف بالباطن - فرأيتُ موسم الرجال في جانب، وموسم النساء في جانب آخر، فرأيتُ من الذهب والفضة والأسلحة والإبل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه، والموسم ممتدّ - قدّ البصر، وكنتُ أسمع أصوات البائعين والمشتريين وقوفهم: بعثُ واشترت كدويّ النحل...» (١).

ولكن: من أين كلّ هذه الثروات الهائلة؟
إن «ابن بشر النجدي» لم يتعرّض لذكر مصدر هذه الثروات

محمد بن عبد الوهاب وآل سعود بصورة أخرى، ولكن الظاهر صحة هذا القول الذي ذكرناه.

(١) تاريخ نجد للآلوسي: ص ١١٧ - ١١٨.

الهائلة، لكن المستفاد من التاريخ هو أن ابن عبد الوهاب كان يحصل عليها من خلال الهجمات الجبابة التي كان يشتها - مع أتباعه - على القبائل والمدن التي ترفض الانحراف اليه، وكان يسلب أموالها وينهب ثرواتها ويوزعها على أهل الدرعية.

و كان محمد بن عبد الوهاب ينتهج اسلوباً خاصاً في تقسيم الغنائم - المسلوبة من المسلمين الراضين للانحراف - فقد كان يتصرف فيها حسب رغبته الشخصية، فرة كان يقسمها - رغم كثرتها - بين اثنين أو ثلاثة من أتباعه، وكان أمير نجد يأخذ نصيبه من الغنائم، بموافقة ابن عبد الوهاب نفسه.

و من أهم نقاط الانحراف في ابن عبد الوهاب هو هذه المعاملة السيئة مع المسلمين الذين ما كانوا يخضعون لأهوائه وآرائه، فقد كان يعاملهم معاملة الكافر المحارب، ويبيح أموالهم وأعراضهم. و خلاصة القول: إن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو الى التوحيد، ولكن لتوحيد خاطيء من صنع نفسه، لا التوحيد الذي يُنادي به القرآن الكريم، فمن خضع له و «لتوحيده» سلمت نفسه وأمواله، ومن أبى فهو كافر حربي، ودمه وماله هدر!!

و على هذا الأساس كان الوهابيون يشتون المعارك في نجد وخارجها - كاليمن والحجاز ونواحي سوريا والعراق - وكانوا يبيحون التصرف بالمدن - التي يسيطرون عليها - كيفما يشاؤون، فإن أمكنهم ضم تلك الأراضي الى ممتلكاتهم وعقاراتهم فعلوا ذلك،

وإلا اكتفوا بنهب الغنائم منها (١).

وكان قد أمر كل من ينخدع بدعوته أن يتقدم اليه بالبيعة،
ومن رفض البيعة وجب قتله وتوزيع أمواله!!

ولهذا عندما رفض أهالي قرية الفصول - من ضواحي
الأحساء - بيعة هذا الرجل الشاذ هجم عليهم وقتل ثلاثمائة رجل
ونهب أموالهم وثرواتهم! (٢).

وأخيراً... مات محمد بن عبدالوهاب عام ١٢٠٦هـ (٣)
ولكن أتباعه واصلوا طريقه وأحيوا بدعه وضلاله.

ففي عام ١٢١٦هـ أعدَّ الأمير سعود - الوهابي - جيشاً ضخماً
يتألف من عشرين ألفاً وشنوا هجوماً عنيفاً على مدينة كربلاء
المقدسة بالعراق. وكانت كربلاء - ولا زالت - مدينة مقدسة،
تتمتع بشهرة بالغة ومحبة في قلوب المؤمنين ويقصدها الزوار -
بمختلف جنسياتهم من إيرانيين وأتراك وعرب وغيرهم - فحاصر
الجيش الوهابي هذه المدينة المقدسة ثم اقتحمها ودخلها واكثر فيها
القتل والنهب والخراب والفساد.

وقد ارتكب الوهابيون - في مدينة كربلاء المقدسة - جرائم و
فجائع لا يمكن وصفها، فقد قتلوا خمسة آلاف مسلم أو أكثر - حتى
قيل ٢٠ ألفاً -.

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين: ص ٣٤١.

(٢) تاريخ المملكة العربية السعودية: ج ١ ص ٥١.

(٣) الأقوال متعددة في سنة ولادة محمد بن عبدالوهاب ومماته.

وعند ما انتهى الأمير سعود من العمليات الحربية هناك ،
عمد الى خزانة حرم الامام الحسين بن علي -عليهما السلام- والتي
كانت مليئة بالذخائر النفيسة والهدايا القيمة التي أهداها الملوك
والأمراء وغيرهم الى الروضة المقدسة فابتزها نهباً .

وبعد هذه الفاجعة الأليمة اتخذت مدينة كربلاء لنفسها طابع
الحزن والكآبة، حتى نظم الشعراء قصائد في رثائها (١).

و كان الوهابيون يشنون بين فترة وأخرى -وخلال مدة تتراوح
بين اثني عشرة عاماً- هجماتهم وغاراتهم الحاقدة على كربلاء
المقدسة وضواحيها، وعلى مدينة النجف الأشرف، ويعودون
ناهبين سارقين، وكانت البداية هي الهجوم على مدينة كربلاء
عام ١٢١٦هـ كما سبقت الاشارة اليه .

وقد اتفقت كلمات المؤلفين من الشيعة على أن ذلك الهجوم
كان في يوم عيد الغدير المجيد، ذكرى تعيين النبي -صلى الله
عليه وآله وسلم- الإمام علي بن أبي طالب خليفة له من بعده (٢).

يقول العلامة المرحوم السيد محمد جواد العاملي (٣):

«وقد من الله سبحانه بفضلته وإحسانه وببركة محمد وآله

-صلى الله عليه وآله- لإتمام هذا الجزء من كتاب مفتاح الكرامة، بعد

انتصاف الليل من الليلة التاسعة من شهر رمضان المبارك سنة

(١) تاريخ كربلاء للدكتور عبد الجواد الكلبدار.

(٢) لمزيد المعلومات عن عيد الغدير المجيد راجع الجزء الأول من الغدير للشيخ الأميني.

(٣) في كتابه الفقهي القيم: مفتاح الكرامة ج ٧ ص ٦٥٣.

١٢٢٥ هـ على يد مصتفه... وكان مع تشويش البال واختلال الحال وقد أحاطت الأعراب - من غنيزة القائلين بمقالة الوهابي الخارجي - بالنجف الأشرف ومشهد الإمام الحسين - عليه السلام - وقد قطعوا الطرق ونهبوا زوار الحسين - عليه السلام - بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جماعة غفيرة، وأكثر القتلى من العجم، ورتما قيل بأنهم مائة وخمسين، وقيل أقل...».

نعم، إن التوحيد الذي كان يدعو اليه محمد بن عبد الوهاب وجماعته - و كانوا يبيحون دماء وأموال من يرفض دعوتهم - هو القول بأن الله جسم ذو أعضاء وجوارح وجوانب. يقول الآلوسي - في حديثه عن الوهابية -:

«... ويصدقون الأحاديث التي جاءت عن رسول الله - ص - أن الله ينزل الى سماء الدنيا، فيقول: هل من مستغفر؟!» (١)

الى أن يقول:

«ويُقرّون أن الله تعالى يجيء يوم القيامة كما قال: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (٢) وأن الله تعالى يقرب من خلقه كيف يشاء، كما قال: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٣).

ويظهر من كتاب «الرد على الأحنائي» لابن تيمية أنه كان يعتبر الأحاديث المروية في فضل زيارة رسول الله - صلى الله

(١) تاريخ نجد ص ٩٠ - ٩١، ويراجع رسالة العقيدة الحموية لابن تيمية.

(٢) سورة الفجر: آية ٢٣.

(٣) سورة ق: آية ١٦.

عليه وآله وسلّم - أحاديث موضوعة، ويصرّح بأن من يعتقد بحياة رسول الله بعد وفاته، كحياته زمن حياته فقد ارتكب خطأ كبيراً. وهذا ما يعتقدّه محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، وقد زادوا على ابن تيمية في الانحراف والباطل.

لقد أدّت معتقدات الوهابيين الباطلة الى أن يعتبر بعض الباحثين حول الاسلام -ممن نظروا في كتبهم وتعرّفوا على الإسلام من مطبوعاتهم- أن يعتبروا الاسلام ديناً جامداً محدوداً لا يُنتفع به في كلّ العصور والأزمان. يقول «لوتروب ستودارد» الامريكي:

«... وقام على أثر ذلك عدد من التقدّة، اتخذوا الوهابيّة دليلاً لكلامهم وقالوا: إن الاسلام -بجوهره وطابعه- غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور ومماشاة أحوال الترقّي والتبدّل، وليس إلفاً لتطورات الأزمنة وتغيّرات الأيام...» (١).

ومن الجدير بالذكر أن علماء المذهب الحنبلي ثاروا ضدّ محمد ابن عبد الوهاب وحكموا بانحرافه وبطلان عقائده منذ البداية. وأول من تصدّى له وأعلن الحرب عليه هو أبوه الشيخ عبد الوهاب ثم أخوه الشيخ سليمان وكلاهما من علماء الحنابلة. وقد كتب الشيخ سليمان كتاباً بعنوان: «الصواعق الإلهية في الردّ على الوهابيّة» ردّ فيه على أباطيل أخيه وخزعلاته. يقول زيني دحلان - ما معناه -:

«... وكان عبد الوهاب -والد الشيخ محمد- رجلاً صالحاً من أهل العلم، وكان الشيخ سليمان -أخو محمد- من أهل العلم أيضاً، وما أن الشيخ عبد الوهاب والشيخ سليمان كانا من بداية الأمر- أي من يوم كان محمد يواصل دراسته في المدينة المنورة- على علم بأفكار محمد الشاذة، لذلك كانا يلومانه على أقواله ويحذران الناس منه...» (١).

ويقول عباس محمود العقاد المصري:

«... واكبر من خالف الشيخ في ذلك أخوه الشيخ سليمان -صاحب كتاب الصواعق الإلهية- وهو لا يُسلم لأخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة... (٢).

ويرى الشيخ سليمان أن البدع التي يمر بها الأمة -جيلاً بعد جيل- ولا يُكفرون أصحابها، لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذي يوجب القطع به ويُستباح من أجله القتال، ويقول الشيخ سليمان في ذلك: إن هذه الأمور حدثت من قبل زمن الإمام أحمد بن حنبل في زمان أئمة الإسلام وأنكرها من أنكرها

(١) الفتوحات الإسلامية: ج ٢ ص ٣٥٧.

(٢) هذه الجملة تستدعي التوقف والتأمل، فمحمد بن عبد الوهاب كان يدعي بلوغه درجة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة، ولكن أخاه الشيخ سليمان كان يرد عليه هذا الادعاء ويعتبره دون منزلة الاجتهاد والاستقلال بالرأي -وأهل البيت أدري بما فيه- إذن: آراء محمد بن عبد الوهاب وأفكاره كلها باطلة وخاطئة -بشهادة أخيه الشيخ- لأنها نابعة من علم ناقص وفكر هابط.

منهم، ولا زالت حتى ملأت بلاد الإسلام كتّها،
 وفعلت هذه الأفاعيل كتّها التي تُكفّرون بها، ولم يُرو
 عن أحدٍ من أئمة المسلمين أنهم كفّروا بذلك ولا قالوا
 هؤلاء مرتدّون، ولا أمروا بجهادهم، ولا سمّوا بلاد
 المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفرتم
 من لم يكفّر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها...» (١)

هذا... ولا يخفى أن محمّد بن عبدالوهاب ليس مبتكراً في
 آرائه وأفكاره، بل سبقه الى ذلك - قروناً عديدة - ابن تيميّة الحرّاني
 وتلميذه ابن القيم الجوزيّة وأمثالهما، إلا أن أفكارهم لم تتخذ
 لنفسها طابع المذهب كما أحدث ذلك ابن عبدالوهاب.

مَن هو ابن تيميّة؟

هو أبو العباس أحمد بن عبدالحليم، المعروف بابن تيميّة، كان
 من علماء الحنابلة وتوفّي سنة ٧٢٨هـ.
 ونظراً لآرائه السقيمة وأفكاره المنحرفة المخالفة لعقائد
 المسلمين - على اختلاف مذاهبهم - فقد كان علماء عصره يتصدّون
 له ويُعلنون الحرب عليه ويحكمون بفسقه وانحرافه، وخاصة بعد ما
 كتب عقائده الباطلة ونشرها بين الناس.

وقد تلخّصت الحرب الدينية ضدّ ابن تيميّة في نقطتين:
 الأولى: تأليف الكتب وكتابة الردود على أفكاره الباطلة،

(١) الاسلام في القرن العشرين: ص ١٠٨ - ١٠٩.

وتزييفها على ضوء القرآن والسنة الشريفة.

و كنموذج من ذلك نُشير الى بعض ما صدر ضده من

الكتب:

١ - شفاء السقام في زيارة قبر الإمام: بقلم تقي الدين سبكي.

٢ - الدرّة المضيئة في الردّ على ابن تيميّة: بقلم المؤلّف

السابق.

٣ - المقالة المرضية: تأليف قاضي قضاة المالكية تقي الدين

أبي عبدالله الأحنائي.

٤ - نجم المهدي ورجم المقتدي: بقلم فخر بن محمّد

القرشي.

٥ - دفع الشبهة: بقلم تقي الدين الحصني.

٦ - التحفة المختارة في الردّ على منكر الزيارة: بقلم تاج الدين.

هذه بعض الردود التي كُتبت ضدّ عقائد ابن تيميّة وآرائه

السقيمة، وكشفت عن سفاهتها وقشريّتها.

الثانية: هجوم العلماء والفقهاء عليه، وإصدار الحكم والفتوى

بفسقه تارةً وبكفره تارةً أخرى، والتحذير من البدع التي أحدثها

في الدين الحنيف.

ومنهم قاضي القضاة في مصر «البدر بن جماعة» فقد كتبوا

اليه رأي ابن تيميّة في زيارة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-

فكتب قاضي القضاة:

«إن زيارة النبي -ص- سنة مستحبة، وقد اتفق العلماء على ذلك، وكلّ

من يرى حرمة زيارته فيجب على العلماء زجره ونهيه عن مثل هذه الآراء ، فإن لم يردعه ذلك لزم حبسه وفضحه بين الناس حتى لا يقتدوا به» .

وليس هذا القاضي الشافعي في مصر وحيداً في فتواه هذه، بل أصدر قضاة المالكية والحنبلية فتاوى مماثلة في تفسير ابن تيمية والحكم بضلاله وانحرافه (١).

وبالإضافة الى ذلك كله، فقد كتب الذهبي -الذي يُعتبر من علماء القرن الثامن الهجري وله تأليفات قيمة في الحديث والرجال وكان مُعاصراً لابن تيمية- كتب رسالة ودية اليه ينهيه فيها عن منكراته، وشبّهه فيها بالحجاج الثقفي في ضلاله وفساده (٢).

الى أن أهلك الله ابن تيمية في عام ٧٢٨ في سجن الشام، فحاول تلميذه ابن القيم أن يواصل نهج استاذه، لكنه لم يفلح في ذلك ، فمات أفكار ابن تيمية بموته، وفتيت بفنائمه، وزالت بزواله، واستراح المؤمنون من بدعه وضلالاته .

الى ان ألقى الشيطان حبائله من جديد، فجاء محمد بن عبد الوهاب حاملاً أفكار ابن تيمية البائدة، واتفق مع آل سعود ليقوم كلٍ منها بتأييد الآخر، هذا في الحكم وذلك في التشريع، فعاد الضلال ينشر خيوطه في «نجد» وانتشرت الوهابية في بلاد

(١) للتفصيل راجع كتاب دفع الشبهة تأليف تقي الدين الحصني.

(٢) وقد نُشرت هذه الرسالة في كتاب تكلمة السيف الصيقل ص ١٩٠، كما نُشر نصّها

الشيخ الأميني في كتاب الغدير ج ٥ ص ٨٧ - ٨٩ فراجع.

نجد انتشار السرطان الأثيم في الجسم، فانخدع جمعٌ من الناس، و تحزّبوا -ومع كلّ أسف- باسم التوحيد للقضاء على أهل التوحيد، وأراقوا دماء المسلمين باسم الجهاد مع المشركين، وراح الالوف من الناس -رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً- ضحيّة لهذه البدع والأباطيل، وتوسّعت شقّة الخلاف بين المسلمين، وأضيف على مذاهبهم المتعدّدة، مذهب جديد.

وقد بلغت المصيبة ذروتها عند ما سقط الحرّمان الشريفان -مكة والمدينة- في قبضة هذه الزمرة المنحرفة، وعمد النجديون الوهابيون -وبالتعاون مع بريطانيا الحاقدة التي كانت تهدف تفكيك الدولة الاسلامية الى دويلات صغيرة تحدّها الحدود الجغرافية- عمدوا الى محو الآثار الاسلامية في مكة والمدينة، وهدم قبور أولياء الله وهتك حرمة آل رسول الله، وغير ذلك من الجرائم والمنكرات التي يهترها ضمير المسلم.

يقول بعض المؤرّخين:

«بادر الوهابيون -لما استولوا على مكة- بالمساحي فهدموا -أولاً- ما في «المعلّى» -مقابر قريش- من القباب، وهي كثيرة، منها قبّة سيّدنا عبدالمقلب جدّ النبي -صلى الله عليه وآله- وقبّة سيّدنا أبي طالب -رضوان الله عليه- وقبّة السيدة خديجة -رضوان الله عليها- كما هدموا قبّة مولد النبي -صلى الله عليه وآله- ومولد أبي بكر، ومولد الامام علي -عليه السلام- وهدموا قبّة زمزم والقباب التي حول الكعبة، وتنبّعوا جميع المواضع التي فيها آثار الصالحين فهدموها، وكانوا -عند الهدم- يرتجزون

ويضربون بالطبول ويُغنون ويُبالغون في شتم القبور... حتى قيل إن

بعضهم بال على قبر السيد المحجوب!!...» (١).

قال العلامة السيد صدرالدين الصدر -المغفور له- :

لعمري إن فاجعة البقيع

يُشيبُ هونها فؤود الرضيع

وسوف تكون فاتحة الرزايا

إذا لم يُصَحَّ من هذا الهجوع

أما من مسلم لله يرعي

حقوق نبيّه الهادي الشفيع

وقال آخر:

تَبّاً لأحفاد اليهود بما جَنُوا

لم يكسبوا من ذلك إلا العارا

هتكوا حريم محمّد في آله

يا ويلهم قد خالفوا الجبارا

هدموا قبور الصالحين بمقدهم

بُعداً لهم قد أغضبوا المختارا

وانطلاقاً من قول النبي -صلى الله عليه وآله- :

«إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه، وإلا فعليه لعنة

الله».

فقد تصدّى علماء الشيعة -وعلماء السنة أيضاً كما ذكرنا- لهذا

(١) كشف الارتباب: نقلاً عن الجبرتي.

الغزو الوهابي الحاقد، وكتبوا الكتب ونشروا المطبوعات، في فضح هذا الرجل -الذي جاء يُحقق أهداف بريطانيا في ثوب جديد- وكشف القناع عن حقيقته والردّ على آرائه الشاذّة.

و أول كتاب صدر في الردّ على ابن عبدالوهاب هو كتاب «الصواعق الالهية في الردّ على الوهابية» بقلم أخيه الشيخ سليمان.

كما أن أول كتاب صدر ضدّه من علماء الشيعة هو كتاب «منهج الرشاد» للشيخ الكبير المرحوم الشيخ جعفر كاشف الغطاء -المتوفى سنة ١٢٢٨هـ- وقد كتب كتابه هذا جواباً على رسالة بعثها اليه الأمير عبدالعزيز بن سعود- أحد الأمراء السعوديين في وقته- وقد زيّف في كتابه أفكار محمد بن عبدالوهاب وأثبت بطلانها على ضوء القرآن والسنة. وقد طبع الكتاب في عام ١٣٤٣هـ في النجف الأشرف في العراق.

ثم تتابع الردّ والنقد في ظروف مختلفة، وصدرت الكتب تترى، واحدة تلو الأخرى، حتى زماننا هذا.

وفي عصرنا الحاضر صعّد الوهابيون حملاتهم المسعورة ضدّ الاسلام والمسلمين، بفعل الثروة الطائلة التي يجنيها آل سعود من أرباح البترول العائدة اليهم فقط.

لقد خصّصت السلطان السعودية المحتلّة جزءاً كبيراً من أرباح البترول لترويج هذا المذهب البريطاني ونشره بين المسلمين، ولولا هذه الأموال الطائلة لما عاش هذا المذهب الواهي الى هذا الوقت.

لقد وَجَدَ الاستعمار ضالَّته في هذا المذهب، واتَّخَذَهُ خيراً وسيلةً لإلقاء التفرقة بين المسلمين وتشتيت صفوفهم، وضرب بعضهم البعض.

وقد حَقَّقَ هذا المذهب أهداف الاستعمار البريطاني الأثيم، فتراه قد أوجد الفتنة بين المسلمين، هذا يُفَسِّقُ ذاك وذاك يُكْفِرُ هذا... ولا حول ولا قوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

أيها القارئ الكريم: لقد قرَّرنَا - في هذا الكتاب - أن نطرح عقائد الوهابيين على بساط البحث والتحقيق، ونرفع الستار عن حقيقتها، حتى يثبت لك أن عقائد المسلمين مستندة إلى القرآن والسنة المطهرة، وأن عقائد الوهابيين مخالفة للقرآن وسنة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وقد انتهجنا أسلوب الإيجاز والاختصار.

الوهّابيون و بناء قبور الأولياء

تُعتبر مسألة بناء القبور و تشييد مراقد الأنبياء و أولياء الله الصالحين من المسائل الحساسة عند الوهّابيين، وقد كان ابن تيمية - وتلميذه ابن القيم - أول من أفتى بحرمه بنائها و وجوب هدمها. يقول ابن القيم:

«يجب هدم المشاهد التي بُنيت على القبور، ولا يجوز إبقاؤها - بعد القدرة على هدمها وإبطلها - يوماً واحداً» (١).

و في عام ١٣٤٤ هـ - بعد ما استولى آل سعود على مكة المكرمة و المدينة المنورة و ضواحيهما - بدأوا يبحثون عن دليل يبرر لهم هدم المراقد المقدّسة في البقيع و محو آثار أهل البيت - عليهم السلام - و الصحابة، فلجأوا الى الاستفتاء من علماء المدينة المنورة حول حرمة البناء على القبور، محاولة منهم لتبرير موقفهم أمام الرأي العام الاسلامي - و خاصة في الحجاز - لأنهم كانوا يُدركون جيّداً أن المسلمين في الحجاز هم كالمسلمين في كل مكان، يعتقدون

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم، ص ٦٦١.

بكرامة أولياء الله وقدسيّتهم وجواز البناء على قبورهم، فحاول الوهابيون ان يُلبسوا جريمتهم هذه بلباس الاسلام، دفعاً لنقمة المسلمين! سبحان الله!!

أرسلت السلطة السعودية قاضي القضاة في نجد - واسمه: سليمان بن بليهد- الى المدينة المنورة للاستفتاء من علمائها حول بناء مراقد أولياء الله، ولكن الجدير بالذكر هو أن الأسئلة التي طرحها ابن بليهد كانت تحمل في طوايا الأجوبة المطابقة لآراء الوهابيين أنفسهم، وما كان من العلماء إلا الاجابة بمثل ما هو مذكور في الاستفتاء نفسه، ولم يكن علماءهم يملكون الشجاعة والبطولة في التجاهر بالحق والافتاء بالصواب، بل كانوا - وهم كذلك طوال التاريخ- يرتزقون على أبواب السلطان، وكانوا يعرفون - مسبقاً- أن الافتاء على خلاف آرائهم يُعرضهم للتهمة بالكفر والشرك، ومن ثم يحكمون عليهم بالقتل إن رفضوا التوبة!!

وقد نشرت جريدة «أم القرى» الصادرة في مكة - في شوال ١٣٤٤هـ- تلك الأسئلة والأجوبة، وقد أثارت ضجة كبرى بين المسلمين - الشيعة والسنة- لأنهم كانوا يعلمون أن وراء هذا الاستفتاء - الذي قد صدر تحت وطأة التهديد والترهيب - هو شروع بهدم القباب والبناء المشيد على قبور قادة الاسلام وعظماء المسلمين.

وهذا ما حصل بالفعل، فبعد ما صدرت تلك الفتوى من خمسة عشر عالماً من علماء المدينة، وانتشر في الحجاز، بدأت

السُّلطان الوهابيَّة بهدم قبور آل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في الثامن من شوال من نفس العام، وقضت على آثار أهل البيت -عليهم السلام- والصحابة، ونهبت كلَّ ما كان في ذلك الحرم المقدَّس من فُرش غالية وهدايا ثمينة وغيرها، وحوَّلت تلك الزمرة الوحشيَّة البقيع المقدَّس الى أرض قفراء موحشة (١).

وفيا يلي نذكر جانباً من الاستفتاء، لتعرف كيف ضمَّن السائل الجواب في سؤاله، وأن الهدف لم يكن السؤال والاستفتاء، بل كان للحصول على مستمسك لتضليل الرأي العام وتدمير آثار النبوة والرسالة.

ولو كان الهدف هو الاستفتاء الحقيقي ومعرفة رأي الاسلام في ذلك، فما معنى تضمين الجواب في مطاوي الاستفتاء؟! بل إننا نظن أن الاستفتاء والجواب كانا قد أعدا مسبقاً في ورقة خاصَّة، ثم أرسلت تلك الورقة الى علماء المدينة للتوقيع عليها فقط، وإلا فليس من المعقول ان يُغيَّر علماء المدينة وجهة نظرهم

(١) يقول المؤرِّخ الجليل الشيخ آغا بزرك الطهراني -في كتاب الذريعة ج ٨ ص ٢٦١-: لقد سيطر الوهابيون على الحجاز في سنة ١٣٤٣هـ وفي الثامن من شهر شوال من نفس العام هدموا قبور الأئمة الطاهرين -عليهم السلام- والصحابة في البقيع. انتهى كلامه. أقول: إن جريدة «أم القرى» نشرت نصَّ الاستفتاء وجوابه في تاريخ ١٧ شوال سنة ١٣٤٤هـ، وحدَّدت تاريخ صدور الفتوى من علماء المدينة بـ ٢٥ رمضان، لهذا ينبغي القول ان احتلال المدينة وهدم قبور أولياء الله حدِّثاً معاً في سنة ١٣٤٤هـ. ويعتقد المرحوم السيد محسن الأمين أن الاحتلال الكامل والهدم قد وقعا في عام ١٣٤٤هـ، راجع كتاب كشف الإرتياب: ص ٥٦ - ٦٠.

فجأة، ويُصدروا الفتوى بتحريم البناء على القبور ووجوب هدمها، مع العلم أنهم كانوا وآباؤهم -طوال سنوات عديدة- من الداعين الى حفظ الآثار النبوية، وكانوا يزورون تلك المشاهد المقدسة.

يقول ابن بليهد في سؤاله:

«ما قول علماء المدينة المنورة -زادهم الله فهماً وعلماً- في البناء على

القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟

وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهياً شديداً، فهل يجب

هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟

وإذا كان البناء في مسئلة (١) كالبيع وهو مانع من الانتفاع

بالمقدار المبني عليه، فهل هو غضب يجب رفعه، لما فيه من ظلم

المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟».

و تحت التهديد و التخويف، يجيب علماء المدينة على سؤال

«الشيخ» بما يلي:

«أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في

منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث

علي -رضي الله عنه- أنه قال لأبي الهيثاج: ألا أبعثك على ما بعثني عليه

رسول الله أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سوتته».

و يقول الشيخ النجدي - في مقال نشرته جريدة «أم القرى»

في عددها الصادر في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥ هـ -:

«إن بناء القباب على مرقداً وأولياء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجري».

(١) مسئلة: موقوفة في سبيل الله تعالى.

نعم ، هذه نماذج من أقوال الوهابيين حول بناء القبور، وترى أن عمدة استدلالهم - في كتبهم ومؤلفاتهم - على الحرمة تعتمد على أمرين:

- ١ - إجماع علماء الاسلام على التحريم.
- ٢ - حديث أبي الهيثاج عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - وماشابه ذلك .

نحن الآن نتحدث فقط عن مسألة البناء على القبور وإقامة الظلال والسُّقف والأبنية عليها .
أما مسألة زيارة القبور فهو موضوع مستقلّ سوف نتحدث عنه في فصل خاص إن شاء الله تعالى .

بالنسبة الى المسألة الاولى فالحديث عنها في ثلاث نقاط:

١ - ما رأي القرآن الكريم تجاه البناء على القبور، وهل نجد في القرآن بياناً لهذه المسألة؟

٢ - هل صحيح أن الأمة الاسلامية متّفقة على حرمة البناء على القبور؟ أم أن البناء كان متداولاً في كلّ العهود الاسلامية، بدء بزمان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والصحابة؟

٣ - ما ذا يعني حديث أبي الهيثاج وحديث جابر وأُم سلمة وناعم ممّا يستغلّه الوهابيون للاستدلال على باطلهم؟

أ - رأي القرآن في البناء على القبور

لم يتطرّق القرآن الكريم الى حكم البناء على القبور بصورة

خاصة، إلا أنه يمكن استنباط حكمه من خلال بعض الآيات
الكريمة العامة، وإليك التفصيل:

١- البناء على قبور الأولياء تعظيمٌ للشعائر الإلهية

إن القرآن الحكيم يعتبر تعظيم شعائر الله سبحانه دليلاً على
تقوى القلوب، فيقول عز وجل:

«وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (١).

ونتساءل: ما معنى تعظيم شعائر الله؟

الجواب: إن «شعائر» كلمة جمع، ومفردتها: «شعيرة» وهي
بمعنى الدليل والعلامة، وليس المقصود من «شعائر» - في هذه
الآية - العلام التي تُثبت وجود الله تعالى، ذلك لأن الكون كله
دليل على وجوده سبحانه. يقول الشاعر:

وفي كل شيء له آيةٌ

تَدُلُّ على أنه واحدٌ

كما أنه ليس هناك من يقول: إن تعظيم كل ما هو موجود في
الكون دليل على التقوى، وإنما المقصود هو تعظيم شعائر دين الله،
ولهذا يقول المفسرون - في هذه الآية - إن كلمة «شعائر الله» معناها
معالم دين الله (٢).

وإذا كان «الصفاء والمرورة» وكذلك البعير الذي يُساق إلى

(١) سورة الحج: آية ٣٢.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج ٤ ص ٨٣ طبعة صيدا، وغيره.

منى' للنحر من شعائر الله (١) فانما هو بسبب كونها من معالم الدين الحنيف وإبراهيم الخليل - عليه السلام - .

و إذا كانت «المزدلفة» تُسمى بـ «المشعر» فإنما هو بسبب كونها من علامات دين الله تعالى، وأن الوقوف في المشعر دليل على طاعة الله سبحانه .

و إذا كانت «مناسك الحج» تسمى بالشعائر فإنما هي لكونها علامات للتوحيد والدين الحنيف .

و خلاصة القول: إن كل ما هو شعيرة لدين الله فان تعظيمه مما يُقرب الى الله تعالى .

و مما لا شك فيه أن الأنبياء و أولياء الله تعالى هم من اكبر وأبرز علامات دين الله، إذ أنهم كانوا خير وسيلة لإبلاغ رسالة الله ونشره بين الناس .

إن من الثابت لدى كل منصف أن وجود النبي والأئمة الطاهرين - عليهم السلام - هو من علامات الاسلام وشعائر هذا الدين المقدس، فتعظيمهم تعظيم لله وعلامة على تقوى القلوب .

و لا شك أن صيانة آثارهم و المحافظة على قبورهم من المحو والزوال إنما هي نوع من تعظيم شعائر الله سبحانه .

و بعبارة أخرى: نستطيع أن ندرك ضرورة تعظيم قبور أولياء الله من خلال هاتين النقطتين:

(١) /١ قوله تعالى: «إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ». سورة البقرة: آية ١٥٨ .

٢/ قوله تعالى: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ». سورة الحج: آية ٣٦ .

الف: إن أولياء الله - وخاصة أولئك الذين ضحوا من أجل الدين ونشره - هم من شعائر الله وعلام دينه .

باء: إن بناء قبورهم - بالإضافة الى تخليد ذكرياتهم والسير على نهجهم السديد - هو نوع من تعظيمهم واحترامهم .

و على هذا الأساس فإننا نرى كافة الشعوب والأمم في العالم تُخصّص مناطق خاصة لمشوى شخصياتهم السياسية والدينية، كي تبقى رمزاً خالداً لأتباعهم الى الأبد، فكأن حفظ مراقدهم من المحو والانداس يؤدّي الى خلود ذكراهم وحياة أفكارهم ومناهجهم .

ولكي نعرف هذه الحقيقة جيّداً، لابدّ من أن نتأمّل الآية السادسة والثلاثين من سورة الحج:

«وَالْبُذْنُ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» .

إن بعض حجاج بيت الله الحرام كانوا يسوقون معهم بغيراً من بلادهم «هدياً بالغ الكعبة» كي يُنحر بجوار بيت الله، وكانوا يتركون على عنقه قلادة - أو غيرها - كناية عن أنه يُساق للنحر في مكّة، فهو لله تعالى لا يُباع ولا يُشترى، فكان يتميّز به هذه القلادة عن بقية الإبل .

لهذا السبب اعتبره الله تعالى «من شعائر الله» ولهذا حكم الاسلام باحترام هذا الهدى، فلا يجوز ركوبه - مثلاً - ويجب توفير المأكل والمشرب له حتى ساعة الذبح بجوار الكعبة .

فإذا كان هذا البعير يكتسب هذا الاحترام والإكرام، فقط

لكونه صار من شعائر الله تعالى، فما تقول في الأنبياء والأئمة الطاهرين؟!

ألا يُعتبر الأنبياء والأئمة الطاهرون -عليهم السلام- والعلماء والشهداء -الذين خلعوا على أنفسهم قلادة العبودية لله منذ البداية ونذروا أنفسهم لخدمة دين الله وقاموا بدور الوسيط بين الله وخلقه في هدايتهم وإرشادهم- ألا يُعتبرون من شعائر الله؟!

ألا يجب تعظيمهم واحترامهم، في حياتهم وبعد مماتهم، التعظيم اللائق بهم؟!

إذا كانت الكعبة والصفاء والمروة ومنى وعرفات -وما هي إلا جمادات مركبة من التراب والحجر- تُعتبر من شعائر الله وتستحق الاحترام والتعظيم المناسب لها بسبب ارتباطها بالله سبحانه، فلماذا لا يكون أولياء الله -الذين هم حُماة دين الله وناشروا أحكامه- وما يرتبط بهم، لماذا لا يكونوا جميعاً من شعائر الله؟!

إننا ندعو الوهابيين إلى تحكيم وجدانهم -في هذا المجال- ونطرح عليهم هذا السؤال: هل تشكّون وتترددون في أن الأنبياء والرسل هم من شعائر الله؟!

ألا يحكم الوجدان بضرورة تعظيمهم وتخليدهم والتمسك بمناهجهم؟!

هل أن البناء على قبورهم وتنظيف الساحة التي تضم مرقدهم تعظيم واحترام لهم، أم هدم قبورهم وإهمال الساحة

المحتضنة لمراقدهم وتحويلها الى خربة مهجورة موحشة هو
التعظيم!؟

٢- المودّة في القربى

إن القرآن الكريم يأمرنا - بكلّ صراحة - بالحبّ والمعاملة
الحسنة مع أقرباء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فيقول:
«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» (١).
ومن الواضح لدى كلّ من يُخاطبه الله بهذه الآية أن البناء
على مرقد أهل بيت النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هو نوع من
أنواع إظهار الحبّ والمودّة لهم.
وهذه العادة مُتَّبَعَةٌ عند كافة الشعوب و الأمم في العالم،
والجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودّة لصاحب ذلك القبر، ولذلك
تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنائس
ومقابر مشهورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها.

٣- البناء على القبور في الأمم السابقة

يستفاد من بعض الآيات الكريمة - في القرآن - أن تعظيم قبور
المؤمنين كان أمراً شائعاً بين الأمم التي سبقت ظهور الاسلام،
فبالنسبة الى أصحاب الكهف - بعد ما انتشر خبرهم بين الناس
وهرعوا الى الكهف لمشاهدتهم - وقع الخلاف والنزاع حول مدفهم

(١) سورة الشورى: آية ٢٣.

وانقسموا قسمين، فقال أحدهما:

«ابنوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا».

وقال الآخر:

«لَتَنخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا».

هنا نلاحظ أن القرآن الكريم يذكر لنا هذين الرأيين، من دون أن ينتقدهما، وعلى هذا يمكن القول بأنه لو كان الرأيان باطلين لانتقدهما، أو قصص قصتها بأسلوب رافضٍ مستنكر. ويقول المفسرون: إن النزاع -حول مدفن أصحاب الكهف- إنما وقع بين المؤمنين والكافرين، أما الكافرون فقالوا:

«ابنوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا».

والمؤمنون قالوا:

«لَتَنخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا».

و كانت الغلبة مع المؤمنين حيث قال سبحانه:

«قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أُمَّرِهِمْ لَنَنخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» (١).

و بُني المسجد و صار قبور أصحاب الكهف مركزاً للتعظيم والاحترام.

وهكذا يظهر لنا أن الهدف من البناء على قبور أصحاب الكهف إنما كان نوعاً من التعظيم لأولياء الله الصالحين.

أيها القارئ الكريم: بعد ما مرّ عليك من الآيات الكريمة الثلاث، لا يمكن القول بجرمة البناء على قبور أولياء الله ولا

بكرهته بأي وجه، بل يمكن اعتباره نوعاً من تعظيم شعائر الله و
مظهراً من مظاهر المودة الى القربى.

٤- الإذن في ترفيع بيوت خاصة

لقد أذن الله تعالى في ترفيع البيوت التي يُذكر فيها اسمه
عز وجل، فقال عز من قائل:

«فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُذَكَّرُوا فِيهَا سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَزَّ وَجَلَّ وَالَّذِي هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١)

و الاستدلال بهذه الآية - على جواز البناء على القبور - يتم
ببيان أمرين:

الأول: ما هو المقصود من البيوت؟

الثاني: ما هو المقصود من الرفع؟

بالنسبة الى الأمر الأول: ليس المراد من البيوت هو المساجد
فقط، بل المراد منها ما هو الأعم من المساجد والأماكن التي يُذكر
فيها اسم الله تعالى، سواء كانت مساجد أو غير مساجد، كبيوت
الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - والصالحين الذين لا تُلهيهم تجارة
ولا بيع عن ذكر الله، فهذه البيوت تُعتبر من المصاديق البارزة للآية
الكريمة.

بل يمكن أن يقال: إن المراد من البيوت هو غير المساجد، لأن
البيت هو البناء الذي يتشكّل من جدران أربعة وعليها سقف

قائم، وإذا كانت الكعبة يُقال لها: بيت الله فإنما هو بسبب كونها مُسَقَّفة، والقرآن الحكيم يعتبر البيت هو المكان المسقَّف فيقول سبحانه:

«لَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ...» (١).

إن الاستفادة من هذه الآية الكريمة هو أن البيت لا ينفك عن السقف، مع العلم أنه يستحب شرعاً أن تكون المساجد غير مُسَقَّفة. هذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً تحت السماء من دون سقف يُظَلِّله.

و على كل تقدير... فالمقصود من البيوت إقامتها هو الأعم من المساجد، أو غير المساجد.

هذا بالنسبة إلى الأمر الأول.

وأما الأمر الثاني - وهو معنى الرفع - فيحتمل أمرين: أن يكون المراد منه هو الرفع المادي الظاهري، الذي يتحقق بإرساء القواعد وإقامة الجدار والبناء، كما قال سبحانه:

«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ» (٢).

أو يكون المراد منه هو الرفع المعنوي، كما قال: عز وجل:

«وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» (٣).

(١) سورة الزخرف: آية ٣٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٣) سورة مريم: آية ٥٧.

أي: منحناه مكانةً عالية.

فإن كان المراد هو المعنى الأول، فهو يدلّ - بكلّ وضوح - على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء وتعميرها، في حياتهم وبعد وفاتهم، ومن المعلوم أن مدفن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومدفن عدّة من الأئمة الطاهرين والأولياء الصالحين إنما هو في بيوتهم، فتشييد هذه البيوت وصيانتها من الخراب والاندثار عملٌ جائز بنصّ الآية الكريمة، بل هو محبوب ومرغوب فيه.

وإن كان المراد منه هو الرفع المعنوي والعظمة المعنوية، كانت النتيجة من الإذن برفعها هو الإذن بتكرّمها وتبجيلها وصيانتها وتطهيرها ممّا لا يليق بشأنها.

وعلى كلّ حال، فالإذن في الرفع - سواء كان مادياً أم معنوياً - إنما جاء بسبب وجود الرجال الصالحين الذين يذكرون الله سبحانه فيه بالغدوّ والآصال.

بعد هذه الآية وآيات أخرى مماثلة كيف يجوز للوهابيين أن يهدموا بيوت آل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - التي كانت مهبطاً لملائكة الله ومركزاً لذكر الله ونشر دينه وأحكامه؟!!!

كيف يجوز لهم أن يهدموا هذه المراقد المقدّسة التي هي مهوى أفسدة ملايين المؤمنين، وكانوا يزورونها - رجالاً ونساءً، صباحاً ومساءً - ويذكرون الله فيها بالصلاة والدعاء والتسبيح؟!!

لماذا أقدم الوهابيون على تحقير هذه البيوت المقدّسة وإذلالها

وإهمالها، وحولوها الى قفار موحشة مهجورة، يُرثى لها ويحن قلب كل مؤمن لوضعها المأساوي؟!
لماذا؟ ولماذا؟

وقد روى الحافظ السيوطي عن أنس بن مالك وبريدة: أن رسول الله -صلى الله عليه وآله- قرأ قوله تعالى: «(في بيوت إذن الله أن ترفع...» فقام اليه رجل وقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟

فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: بيوت الأنبياء.
فقام اليه أبوبكر وقال: يا رسول الله وهذا البيت منها؟
-وأشار الى بيت علي وفاطمة -عليهما السلام- فقال النبي: نعم،
من أفاضلها(١).

ب - الأمة الاسلامية و البناء على القبور

عندما انتشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية، وعمّ نوره منطقة واسعة من الشرق الأوسط، كانت لقبور الأنبياء -التي كانت معروفة يومذاك - بناءً وسقفاً وظلالاً، وكانت لبعضها قباب مشيئة وضرائح منضدة، لا زال البعض منها موجوداً حتى الآن.

(١) تفسير الدر المنثور ج ٥ ص ٥٠. وفي سؤال أبي بكر عن بيت علي وفاطمة -عليهما السلام- وجواب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مجال للتأمل والتعليق، لما كان يعلمه النبي بما سيُعرض له هذا البيت المقدس بعد وفاته -صلى الله عليه وآله-.

وفي مكة نفسها ترى قبر النبي إسماعيل وأمه هاجر -عليهما السلام- يستقرآن في الحجر المعروف بحجر إسماعيل، كما أن قبر النبي دانيال يقع في مدينة شوش في إيران، وقبور الأنبياء هود وصالح ويونس وذو الكفل -عليهم السلام- في العراق، وكذلك قبر النبي إبراهيم وأولاده إسحاق ويعقوب ويوسف تقع في القدس المحتلة، بعد أن كانت في مصر، فنقل النبي موسى -بأمر الله تعالى- أجسادهم الطاهرة الى القدس، ولا زالت موجودة حتى الآن، ولكل منها معالم وأبنية مشيدة.

وقبر أم البشر السيدة حواء يقع في مدينة «جدّة» بالحجاز -على ما هو المشهور- وقد سُميت المدينة بـ«جدّة» نظراً الى مثنوى السيدة حواء فيها، وقد كانت لقبرها آثار مشهودة، ولما احتلّ الوهابيون الحجاز عمدوا الى محو آثاره وطمس معالمه!

كلّ هذه المراقد و القبور كانت بمرأى من المسلمين يوم فتحوا تلك البلاد، ومع ذلك لم يصدر منهم أي رد فعل سلبي تجاهها، ولم يأمرؤا بهدمها وتخريبها، فلو كان البناء على القبور و دفن الموتى في مقابر مسقفة عملاً محرماً في الاسلام، لكان المفروض على اولئك المسلمين أن يقوموا -قبل كل شيء- بهدم تلك القبور التي لا زالت متواجدة، في مناطق متعدّدة من الاردن والعراق، ولكانوا يمنعون من تجديد بنائها أو اعادته على مرّ العصور والأزمان، ولكننا نرى أنهم لم يأمرؤا بهدمها فحسب بل دأبوا على تعمييرها وصيانتها طوال أربعة عشر قرناً.

لقد كانوا يدركون -بوحى من العقل- أن حماية آثار الأنبياء وصيانتها إنما هي نوع من الاحترام تجاههم، وأن ذلك يُقرِّبهم إلى الله عزوجل ويُنبئهم الأجر والثواب.

يقول ابن تيمية -في كتابه الصراط المستقيم-:

«عندما تم فتح القدس كانت لقبور الأنبياء هناك أبنية ولكن أبوابها

كانت مغلقة حتى القرن الرابع الهجري» (١).

فلو كان البناء على القبور حراماً لكان هدمه واجباً، ولم يكن هناك مبرر لتركها على حالها مغلقة الأبواب، بل كان الإسراع إلى هدمها واجباً -على فرض صحة قول ابن تيمية من اغلاق أبوابها إلى القرن الرابع وليس بثابت-

و خلاصة القول: إن بقاء تلك الأبنية والقباب على القبور طوال هذه الفترة، وبمراى علماء الإسلام وفقهائه دليل واضح على جوازها في الدين الاسلامي المقدس.

الآثار الاسلامية دليل على أصالة الدين

مما لا شك فيه أن المحافظة على آثار الأنبياء -وخاصة آثار النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- من قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه، وكذلك بيوتهم التي كانوا يسكنون فيها، والمساجد التي كانوا يقيمون الصلاة فيها -لا شك أن فيها نتائج محمودة وفوائد كثيرة نذكر منها مايلي:

اليوم وبعد مضي عشرين قرناً -تقريباً- على ميلاد السيد المسيح -عليه السلام- تحوّل المسيح وأمه العذراء وكتابه الانجيل وكذلك الحواريون، تحوّلوا -في عالم الغرب- الى أسطورة تاريخية، و صار بعض المستشرقين يُشكّكون -مبدئياً- في وجود رجل اسمه المسيح وأمه مريم وكتابه الانجيل، ويعتبرونه أسطورة خيالية تشبه أسطورة «مجنون ليلي».

لماذا؟

لأنه لا يوجد أي أثر حقيقي و ملموس للمسيح، فثلاً لا يُدرى -بالضبط- أين وُلد؟ وأين داره التي كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته -على زعم النصارى أنه قُتل-؟

أمّا كتابه السماوي فقد امتدّت اليه يد التحريف والتغيير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا ترتبط اليه بصلة وليست له، بل هي لـ «متى» و «يوحنا» و «مرقس» و «لوقا» ولهذا ترى في خاتمها قصة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح -كالشمس في رابعة النهار- أنها قد كُتبت بعد غيابه.

وعلى هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين و المحققين أن هذه الأناجيل الأربعة إنما هي من الكتب الأدبية التي يعود تاريخها الى القرن الثاني من الميلاد.

فلو كانت الميزات الخاصة بـ عيسى محفوظة، لكان ذلك دليلاً على حقيقة وجوده وأصالته حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والاستفهامات من قبل المستشرقين ذوي

الخيالات الواهية.

أما المسلمون فهم يواجهون العالم مرفوعي الرأس، ويقولون: يا أيها الناس لقد بُعث رجل من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سنة لقيادة المجتمع البشري، وقد حقق نجاحاً باهراً في مهمته وهذه آثار حياته محفوظة تماماً في مكة والمدينة، فهذه الدار التي وُلد فيها، وهذا غار حراء حيث هبط عليه الوحي والتنزيل، وهذا هو مسجده الذي كان يُقيم الصلاة فيه، وهذا هو البيت الذي دُفن فيه، وهذه بيوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذريته وأوصيائه - عليهم السلام - .

والآن ، اذا قضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجوده - صلى الله عليه وآله وسلم - ودلائل أصالته وحقيقته، ومهدنا السبيل لأعداء الاسلام ليقولوا ما يريدون.

إن هدم آثار النبوة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إساءة اليهم - عليهم السلام - وهتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصالة نبوة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القوم.

إن رسالة الاسلام رسالة خالدة أبدية، وسوف يبقى الاسلام ديناً للبشرية جمعاء حتى يوم القيامة، ولا بد للأجيال القادمة - على طول الزمن - أن تعترف بأصالته وتؤمن بقداسته، ولأجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ - أبداً - على آثار صاحب الرسالة المحمدية - صلى الله عليه وآله وسلم - لكي نكون قد خطونا خطوة في سبيل استمرارية هذا الدين وبقائه على مدى العصور القادمة،

حتى لا يُشكك أحدٌ في وجود نبيّ الاسلام -صلى الله عليه وآله وسلم- كما شككوا في وجود النبيّ عيسى -عليه السلام- .

لقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبيّ محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وسيّره وسلوكه حتى أنهم سجّلوا دقائق أموره وخصائص حياته ومميّزات شخصيته، حتى أنهم سجّلوا ما يرتبط بخاتمه وحذائه وسواكه وسيفه ودرعه ورمحه وجواده وإبله وغلّامه، وحتى الآبار التي شرب منها الماء، والأراضي التي أوقفها لوجه الله سبحانه، والطعام المفضّل لديه، بل وكيفية مشيته واكله وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدّسة وخضابه لها، وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض منها باقية الى يومنا هذا(١).

ومن خلال مراجعة تاريخ المسلمين وتفقد البلاد الاسلامية الواسعة واستطلاع معالمها وآثارها يظهر لنا -بوضوح- أن البناء على القبور وصيانتها من الزوال والفناء كان شيئاً متداولاً عند كافة المسلمين في أنحاء الوطن الاسلامي الكبير، ولا زالت هناك الضرائح المشيّدّة على قبور الأنبياء والأولياء والرجال الصالحين، ويقصدها المسلمون بالزيارة والدعاء، وتُعتبر تلك الضرائح من الآثار التاريخية الاسلامية، وهناك الموقوفات الكثيرة التي تُصرف عائداتها لحفظ هذه الآثار وصيانتها ونظافة الساحات المحيطة بها وغير ذلك .

ولقد كانت قبور أولياء الله عامرة ومشيدّة حتى في الحجاز

(١) راجع طبقات الصحابة لابن سعد: ج ١ ص ٣٦٠ الى ٥٠٣ حول هذا الموضوع.

نفسه، وكانت - حتى قبل فتنة الوهابية واحتلالها للحرمين الشريفين وضواحيهما - كانت قبور أولياء الله في كافة أرجاء الحجاز عامرة ومشيدة، تحظى باهتمام المسلمين كافة، ولم يكن هناك أي عالم ديني يستنكر بقاءها أو يعترض على بنائها وتعميرها.

وليست إيران هي البلد الوحيد الذي تتواجد فيه الضرائح المشيدة على قبور أولياء الله تعالى، بل إن ذلك منتشر في البلدان الإسلامية، وخاصة في مصر وسوريا والعراق والمغرب وتونس والاردن، فهناك المقابر المعمورة للعلماء وكبار المسلمين، ويقوم المسلمون بزيارتها أفواجاً أفواجاً، ويبتهلون الى الله تعالى بتلاوة القرآن - وخاصة سورة الفاتحة - وإهداء ثوابها الى روح صاحب القبر الذي جاءوا لزيارته.

كما أن لكل من هذه المراقد المشيدة موظفين يقومون بالخدمة والحراسة والنظافة والصيانة وغيرها.

مع كل ما سبق... كيف يمكن اعتبار تعمير القبور حراماً، مع أن العادة المتبعة عند المسلمين منذ صدر الاسلام الى يومنا هذا كانت ولا زالت جارية على ذلك، وهذا ما يُسميه الفقهاء والعلماء بـ«سيرة المسلمين» وهي التي تمد جذورها الى زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو زمن أحد من الأئمة الطاهرين من أهل البيت - عليهم السلام -.

إن هذه السيرة قائمة على جواز البناء على القبور، بل مرغوبيته ومطلوبيته، ولم تتعرض هذه السيرة - طوال وجودها - لأي نقد أو

اعتراض، وهذا يكشف عن أصالتها وصحتها عند المسلمين طوال التاريخ، وأنها كانت من السنن المتبعة عندهم. وقد اعترف بهذه الأصالة احد الكتاب الوهابيين فكتب يقول:

«هذا أمر عم البلاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً، بحيث لا بلدة من بلاد الاسلام إلا فيها قبور ومشاهد، بل مساجد المسلمين غالباً لا تخلو عن قبر ومشهد، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ الى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الاسلام» (١).

وبالرغم من اعتراف هذا الوهابي بأن سيرة المسلمين قائمة على تعمير قبور أولياء الله وتكريمها، فإنه لا يكف عن عناده وسوء سريرته، فتراه يعتبر ذلك منكراً ويستنكر سكوت العلماء عليه، وأن سكوت اولئك - في تلك الفترة الطويلة - لا يمنع من نهي العلماء عنه في هذه الفترة.

ولكن الرد عليه واضح: فكيف سكت العلماء سبعة قرون ولم ينطقوا ببنت شفة؟! فهل كان هؤلاء جميعاً - طوال هذه القرون - يسكتون على المنكر ويتحفظون عن النهي عنه - على ما زعم -؟!

وعند ما فتح المسلمون بيت المقدس - في عهد عمر بن الخطاب - لماذا لم يأمر عمر بهدم قبور الأنبياء هناك؟! فهل تعتبرونه مسالماً للمشركين؟!

(١) تطهير الاعتقاد: ص ١٧، طبعة مصر.

حول جواب علماء المدينة

و أغرب ما في المقام هو الجواب المنسوب الى علماء المدينة...
حيث قالوا:

«أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في

منعه، وهذا أفنى كثير من العلماء بوجوب هدمه».

كيف يصح دعوى الإجماع على تحريم البناء على القبور في حين أن المسلمين قد دفنوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في البيت الذي كانت تسكنه عائشة، ثم دفنوا - من بعده - أبابكر وعمر الى جواره للتبرك، وبعدها أقاموا جداراً في وسط البيت، ليصبح نصفها منزلاً للسيدة عائشة والنصف الآخر مقبرة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبي بكر وعمر، وبما أن ارتفاع الجدار كان قليلاً، فقد زيد في ارتفاعه في زمن عبدالله بن الزبير، ثم كان هذا البيت - المقبرة - يتجدد أو يُعاد بناؤه بين حين وآخر على مرّ العصور والأزمان، وفقاً للفن المعماري الخاص بكل عصر، وفي عهد الأمويين والعباسيين كان البناء على القبر يحظى باهتمام بالغ، وكان يتجدد كما يقتضيه الفن المعماري الخاص بكل عصر.

و آخر بناء أقيم على القبر الشريف - والذي لا زال حتى الآن -

كان في عهد السلطان عبدالحميد في عام ١٢٧٠ هـ واستغرق أربع سنوات، وبإمكانك - أيها القارئ - مراجعة كتاب وفاء الوفا للسهمودي - من صفحة ٣٨٣ الى صفحة ٣٩٠ - للحصول على

تفاصيل أخرى حول ما مرَّ على مرقد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من بناء وتجديد وتعمير، طوال التاريخ الإسلامي، وحتى عصر السمهودي، ومن بعده في الكتب الخاصة بتاريخ المدينة المنورة.

ج - حديث أبي الهياج

و الآن قدحان الوقت في أن نبحث في الحديث الذي يتمسك به الوهابيون في حرمة البناء على القبور.
قبل كل شيء نذكر نص الحديث بالسند الذي رواه مسلم في صحيحه:

«حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا - وَقَالَ الْآخَرَانِ: حَدَّثَنَا - وَكَيْعُ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ أَبِي وائِلٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أُبْعَثُكَ عَلَيَّ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ لَا تَدْعَ تَمْثَالًا إِلَّا ظَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَيْتَهُ» (١).

لقد اتخذ الوهابيون هذا الحديث دليلاً على حرمة البناء على القبور، من دون أي تحقيق في رجاله وسنده.

مناقشة الحديث

بصورة عامة إذا أردنا الاستدلال بحديث من الأحاديث

(١) صحيح مسلم: ج ٣ كتاب الجنائز ص ٦١، السنن للترمذي: ج ٢ ص ٢٥٦ باب ماجاء في تسوية القبر، السنن للنسائي: ج ٤ باب تسوية القبر ص ٨٨.

علی حکیم من أحكام الله تعالى، فلا بدّ أن يتوفّر في ذلك الحديث هذان الشرطان.

١ - صحة السند: بأن يكون رواية الحديث ورجاله - في جميع المراحل والطبقات - رجالاً ثقات يمكن الاعتماد عليهم وعلى أقوالهم.

٢ - دلالة الحديث: بأن تكون في ألفاظ الحديث و عباراته دلالة كاملة على مقصودنا منه، بحيث يفهمه غيرنا - ممّن يُحسن لغة ذلك الحديث ويعرف قواعدها - بمثل ما نفهمه نحن ويستنتج ما نستنتجه.

و من حُسن الحظ أن حديث أبي الهيثاج فاقد لهذين الشرطين، وخاصة للشرط الثاني، فلا علاقة له بالبناء على القبور إطلاقاً. توضيح ذلك:

أما بالنسبة الى السند، ففيه رواية لم تتفق كلمة علماء الرجال على وثاقته، وفيما يلي نذكر أسماء الرواة - في هذا الحديث - الذين رفض علماء الرجال أحاديثهم:

١ - وكيع.

٢ - سفيان الثوري.

٣ - حبيب بن أبي ثابت.

٤ - أبو وائل الأسدي.

هؤلاء الرواة الأربعة إنتقدهم الحافظ ابن حجر العسقلاني - في كتابه تهذيب التهذيب - وذكرهم بما يسلب الثقة من حديثهم

هذا وأحاديثهم الأخرى.

١ - وبالنسبة الى «وكيع» يروي الحافظ العسقلاني عن أحمد ابن حنبل - إمام الحنابلة - انه قال فيه:

«إنه أخطأ في خمسمائة حديث» (١).

ويقول أيضاً نقلاً عن محمد بن نصر المروزي:

«كان [وكيع] يحدث بالمعنى ولم يكن من أهل اللسان» (٢).

٢ - وبالنسبة الى «سفيان الثوري» يقول العسقلاني عن ابن

مبارك:

«حدّث سفيان بجديث، فجثته وهو يُدّسه، فلما رآني استحيى» (٣).

إن التديليس - بأيّ معنى كان - في الحديث يدلّ على أن الراوي المدّس كان فاقداً لملكة العدالة والصدق، ولذلك كان يُصوّر غير الواقع واقعاً - كما هو معنى التديليس في اللغة -.

وعند ترجمة حياة يحيى القطان، يقول الحافظ العسقلاني: إن

يحيى القطان قال:

«جهد سفيان الثوري ان يُدّس عليّ رجلاً ضعيفاً فما أمكنه» (٤).

٣ - وبالنسبة الى «حبيب بن أبي ثابت»، كتب العسقلاني

نقلاً عن أبي حبان: إن حبيب:

(١) تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج ١١ ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق: ج ١١ ص ١٣٠.

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١١٥.

(٤) المصدر السابق ج ١١ ص ٢١٨.

« كان مُدلساً » (١) .

و كتب نقلاً عن قَطَّان : إن حبيب

« لا يتابع عليه ، وليست بمحفوظة » (٢) .

٤ - و أما بالنسبة الى « أبي وائل » فقد كان من المنحرفين عن الامام علي أمير المؤمنين - عليه السلام - وممن نصب العدا والبغضاء له - عليه السلام - (٣) ، فكيف يُعتمد عليه وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

« يا علي لا يُجِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْعِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ » (٤) .

والجدير بالذكر: أن راوي حديث أبي الهيثاج ليس له حديث في كلِّ الصحاح الستة - من أولها الى آخرها - إلا هذا الحديث فقط ، فماذا تقول في رجل ليست له إلا رواية واحدة؟! إن هذا يدل على أن الرجل ليس راوياً للحديث ، وعلى هذا الأساس فالاعتماد على حديثه لا يخلو من إشكال .

أيها القارئ الكريم: هذا سند حديث أبي الهيثاج ، وقد عرفت ضعف رواته وعدم اتفاق علماء الرجال عليهم ، فاذا كان الحديث محفوظاً بهذه الاشكالات المتعددة ، فلا يمكن لأي فقيه أن يستند عليه في استنباط الحكم وإصدار الفتوى .

و أما دلالة الحديث فلا يقلل إشكالاته عن السند ذاته ، إذ أن

(١) تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ١٧٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٩ ص ٩٩ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى: ج ٩ ص ١٣٣ ، وروى قريباً منه الترمذي في صحيحه: ج ٢

ص ٣٠١ ، ومسلم في صحيحه: كتاب الايمان وغيرهم .

النقطة المهمة التي يستشهدون بها- في هذا الحديث- هو قوله:

«وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ».

هنا لا بد من وقفة تأمل وتحقيق عند كلمتي:

١ - مشرفاً.

٢ - سَوَّيْتُهُ.

١ - إن لفظة «المشرف» معناه: العالي والمرتفع. قال في

المنجد:

«المشرف من الأماكن: العالي والمطلّ على غيره».

وقال صاحب القاموس- وهو أكثر أصالة في ترتيب معاني

الألفاظ:-

«الشَّرْف - محرّكة -: العلو، ومن البعير: سنامه».

إذن: معنى «مشرف» هو الارتفاع المطلق، وخاصة الارتفاع

الذي على شكل سنام البعير.

فيجب هنا - مع الانتباه والالتفات الى القرائن- أن نبحث

عن المعنى المراد من «المشرف» في الحديث.

٢- لفظة «سَوَّيْتُهُ» معناها: جعل الشيء متساوياً، وتقويم المعوجّ.

سَوَّيْتُ الشَّيْءَ: جعلته سويّاً، يقال: سَوَّيْتُ المعوجَّ فاستوى:

صنعتُهُ مستويّاً.

وجاء في القرآن الكريم:

«الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» (١).

بعد الاطلاع على معاني المفردات، يجب أن نعلم: ما هو المقصود من هذا الحديث؟

الواقع: لهذا الحديث احتمالان، ولا بد من تعيين أحدهما على ضوء معاني المفردات والدلائل الأخرى.

الاحتمال الأول: أن يكون الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - قد أمر أبا الهيثج بهدم القبور المرتفعة، وتسويتها مع الأرض تماماً. ولكن هذا الاحتمال - الذي يتمسك به الوهابيون - مردود ومرفوض لعدة أسباب:

أولاً: لأن لفظة «التسوية» لم تأت - في اللغة - بمعنى الهدم والتدمير، ولو كان المقصود به هنا هو ذلك لكان المفروض أن يقال: «ولا قبراً إلا سويته بالأرض» والحديث يخلو من ذلك. ثانياً: لو كان المقصود منه هو الهدم فلماذا لم يُصدر أحدٌ من علماء الاسلام الفتوى بذلك؟!!

بالإضافة الى أن تسوية القبر بالأرض هي خلاف للسنة الاسلامية والاستحباب الشرعي، إذ أنه يُستحب شرعاً أن يكون القبر مرتفعاً عن الأرض، وقد أفتى جميع فقهاء الاسلام باستحباب ارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً. جاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة - الذي يطابق فتاوى أئمة المذاهب الأربعة - مايلي:

«ويندب ارتفاع التراب فوق القبر بقدر شبر» (١).

فاذا كان هذا الاحتمال الأول مردوداً، وجب ان تُفسر الحديث بالاحتمال الآتي.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود من تسوية القبر هو جعل سطحه مستوياً ومسطحاً، بعكس القبور التي تُبنى على شكل ظهر السمك وسانم البعير، وعلى هذا الأساس فإن الحديث يعني أن يكون سقف القبر مسطحاً ومستوياً، ولا يجوز أن يكون كظهر السمك أو مُسنماً، كما هي العادة عند بعض أهل السنة، وقد أفتى أئمة المذاهب الأربعة - باستثناء الشافعي - باستحباب تسويم القبر (١).

وبذلك فإن هذا الحديث يؤيد فتوى علماء الشيعة الذين يقولون بأن القبر ينبغي أن يكون مسطحاً ومستوياً في نفس الوقت الذي يكون مرتفعاً عن الأرض.

وتجدر الإشارة الى أن مسلماً أورد في صحيحه حديث أبي الهيثاج وحديثاً آخر - سنذكره - تحت عنوان: باب الأمر بتسوية القبر، وكذلك ذكره الترمذي والنسائي في سننهما تحت نفس العنوان، والمقصود من هذا العنوان هو أن يكون القبر مسطحاً ومستوياً، ولو كان المقصود منه تسوية القبر بالأرض لكان

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج ١ ص ٤٢٠ وفيه «ويُجعل كسانم البعير، وقال الشافعي: جعل التراب مستوياً مسطحاً أفضل من تسويمه».

أقول: فعلى هذا فإن حديث أبي الهيثاج لا يُعمل به إلا في المذهب الشافعي والمذهب الشيعي.

المفروض تسمية الباب المذكور بـ «باب الأمر بتخريب القبور وهدمها».

وهذا ما تجده في اللغة أيضاً، فكلمة «تسوية» لو أطلقت على شيء - كالقبر - كان معناها أن يكون القبر نفسه مسطحاً ومستوياً، لا أن يسوى بشيء آخر كالأرض مثلاً.

وإليك الحديث الآخر الذي ذكره مسلم في صحيحه - والذي يحتوي نفس المضمون الذي اخترناه -:

«كُنْتَمَعَ فَصَالَةَ بْنِ عُثَيْدٍ بِأَرْضِ الرُّومِ بِـ «رَوْدِسٍ» فَتُوْفِّيَ صَاحِبُ لَنَا، فَأَمَرَ فَصَالَةَ بْنَ عُثَيْدٍ بِقَبْرِهَ فَسُوِّيَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُ بِتَسْوِيَتِهَا» (١).

والخلاصة: إن مفتاح معرفة هذا الحديث يكمن في لفظ «تسويته» وفيه ثلاث احتمالات، ومع الانتباه إلى الدلائل والقرائن لا بد من انتخاب احتمال واحد. والاحتمالات هي:

١ - أن يكون المعنى هو هدم البناء المشيد على القبر. وهذا الاحتمال باطل، لأن القبور التي كانت في المدينة لم تكن لها قباب وضرائح يومئذ.

٢ - أن يكون المعنى هو تسوية القبر مع الأرض. وهذا الاحتمال مردود أيضاً، لأن السنة القطعية تقتضي بارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً.

٣ - أن يكون المعنى هو تسطيح القبر، وتعديل ما فيه من

(١) صحيح مسلم: ج ٣ كتاب الجنائز ص ٦١.

اعوجاج، والحيلولة دون تسنيمه كظهر السمك وسنام البعير.
و هذا هو المتعین، و على هذا فلا علاقة له بمقصود الوقايبي
الذي استدلّ به.

و الآن تعال الى العلامة النووي - شارح صحيح مسلم - لترى
كيف يشرح الحديث ويقول:

«إن السُّتة أن القبر لا يُرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يُسنم، بل
يُرفع نحو شبر ويُسطح» (١).

يظهر من هذه العبارة أن شارح صحيح مسلم قد استنبط
نفس المعنى الذي استنبطناه من هذا الحديث، بأن الامام
أمير المؤمنين - عليه السلام - أوصى أبا الهيثاج بتبديل القبور المسنمة
- أو التي على شكل ظهر السمك - الى قبور مسطحة، ولم يأمر
بتسوية القبور بالأرض.

و لم نفرد نحن في استنباط هذا المعنى من هذا الحديث، بل
قال به الحافظ القسطلاني في كتاب «إرشاد الساري في شرح
صحيح البخاري»، فبعدما يذكر أن السُّتة في القبر تسطيحه وأنه
لا يجوز ترك هذه السُّتة، لمجرد أنها صارت شعاراً «للرافض» وأنه
لا منافاة بين التسطيح وحديث أبي الهيثاج ... يقول:

«... لأنه لم يُرد تسويته بالأرض وإنما أراد تسطيحه، جمعاً بين

الأخبار» (٢).

(١) شرح صحيح مسلم للنووي.

(٢) إرشاد الساري ج ٢ ص ٤٦٨.

بعد هذا كله، لو كان المعنى - في وصية الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - لأبي الهياج - هو هدم القباب والبناء المشيد على القبور، فلماذا لم يأمر - عليه السلام - بهدم القباب التي كانت على قبور الأنبياء في زمانه؟!

مع العلم أنه - عليه السلام - كان يومذاك الحاكم المطلق على البلاد الاسلامية كلها، وكان يعلم بالقباب المشيدة على قبور الأنبياء في كل من فلسطين وسوريا والعراق ومصر وايران واليمن. ومع غض النظر عن ذلك كله، ولو فرضنا أن الامام - عليه السلام - أمر أبا الهياج بهدم القبور المرتفعة وتسويتها مع الأرض تماماً، فليس في الحديث ما يدل على وجوب هدم البناء المشيد على القبور، ذلك لأن الامام - عليه السلام - قال لأبي الهياج - على فرض صحة الحديث -:

«ولا قبراً إلا سويته».

ولم يقل: «ولا بناءً ولا قبّة إلا سويتها» مع العلم أن البحث ليس عن القبر نفسه، وإنما عن الأبنية المقامة عليه، هذه الأبنية التي يستظلّ المؤمنون بظلالها، لتلاوة القرآن والدعاء وإقام الصلاة، فهل في هذه العبارة ما يدل على هدم هذه الأبنية والآثار التي تُساعد الزوّار على العبادة وتصونهم عن الحرّ والبرد؟!

احتمالان... في النهاية

وفي النهاية وختام البحث هناك احتمالان آخران، لا

مناص من ذكرهما تمييزاً للموضوع.

الاحتمال الأول: أن يكون هذا الحديث - وأحاديث أخرى مشابهة - إشارة الى ما كان متعارفاً عند بعض الأمم السابقة، من اتخاذ قبور الصالحين قبلة لهم يتوجهون اليها عند العبادة، وكانوا ينصبون صورةً الى جانب القبر، وبذلك يتركون التوجه الى القبلة التي أمرهم الله تعالى بالتوجه اليها حال العبادة.

وعلى هذا الاحتمال فلا يمكن أن تكون لهذا الحديث أية صلة بقبور المسلمين، ولم يُعهد من أيّ مسلم أن يتوجه اليها في الصلاة أو يسجد عليها، بل جرت سيرة المسلمين على الصلاة بجوار القبور، من دون أن تكون قبلة لهم، بل وجوههم نحو الكعبة، يقيمون الصلاة ويتلون كتاب الله وهم بجوار القبور.

وإذا كان المسلمون يتسارعون الى زيارة قبور أولياء الله الصالحين، ويقضون هناك ساعات في عبادة الله تعالى بجوار تلك المراقد المقدسة، فإنما هو بسبب ما اكتسبته تلك الأرض من الشرف والقدسية بسبب احتضانها لذلك الجسد الطاهر. ولهذا البحث تفصيل قادم.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود من قوله - عليه السلام - لأبي الهيثاج: «أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سوتته» أن يكون المقصود من «التمثال» تصاوير الأصنام، ومن «القبر» قبور المشركين التي كانت مشمولة بالعطف والعناية من ذويهم.

والخلاصة: إن حديث أبي الهيثاج لا علاقة له بالبناء على

القبور أصلاً، بل هو بشأن القبور المسئمة، أو بشأن قبور المشركين وتمائيل الأصنام.
 وفيما يلي نذكر فتوى أئمة المذاهب الأربعة حول البناء على القبور:

«يكره أن يُبنى القبر بيتٍ أو قبةً أو مدرسةً أو مسجدًا» (١).

فما دام أئمة المذاهب الأربعة متفقين على كراهية البناء على القبور... فكيف يتجرأ قاضي نجد على الفتوى بجحمة البناء؟!!!
 «إن هذا إلاً اختلاق».

مع العلم أن الحكم بالكراهة لا دليل صحيح عليه، وخاصة إذا كان البناء مساعداً للزائر لإقامة الفرائض الدينية وتلاوة القرآن الحكيم عند القبر الذي يُقام عليه البناء.

د - حديث جابر

يُعتبر حديث جابر من جملة الأدلة التي يتمسك بها الوهابيون على حرمة البناء على القبور، وقد روي هذا الحديث في الصحاح والسُنن بألفاظ مختلفة، ويوجد في جميع أساندها ورواتها رجالان:

١ - ابن جريج.

٢ - أبو الزبير.

والتحقيق في صحة هذا الحديث يتوقف على معرفة أحوال رواه ورجال سنده، وفيما يلي نذكر الحديث بألفاظه المتعددة المختلفة:

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج ١ ص ٤٢١.

جاء في صحيح مسلم - باب النهي عن تخصيص القبر والبناء عليه - حديث جابر مروياً بثلاث طرق وفي صورتين:

١ - حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقَعَّدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ.

٢ - حَدَّثَنِي هَارُونَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا حَتَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، جَمِيعاً عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَمِثُّهُ.

٣ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ أُتَيْبٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى عَنْ تَجْصِيسِ الْقُبُورِ (١).

و جاء في صحيح الترمذي - باب كراهة تخصيص القبور والكتابة عليها - حديث واحد عن طريق واحد هو:

٤ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَسْوَدِ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ تَجْصِيسِ الْقُبُورِ وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا وَأَنْ تُوْطَأَ.

ثم يذكر الترمذي عن الحسن البصري والشافعي أنها أفتيا بجواز تخصيص القبور (٢).

و جاء في صحيح ابن ماجه - باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتخصيصها والكتابة عليها - هذا الحديث بطريقتين

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنائز ج ٣ ص ٦٢.

(٢) السنن للترمذي: ج ٢ ص ٢٠٨ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان طبعة المكتبة السلفية.

وصورتين هما:

٥ - حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ مَرْوَانَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنْ أَبِي ثُيُوبٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ تَجْصِيسِ الْقُبُورِ.

٦ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُكْتَبَ عَلَى الْقَبْرِ شَيْءٌ (١).

و بعد ذكر هذا الحديث يقول السندي - شارح الحديث - نقلاً عن الحاكم النيسابوري أن الحديث صحيح ولكنه غير معمول به، لأن قادة الاسلام - في شرق الأرض وغربها - جرت سيرتهم على الكتابة على القبر، خَلْفًا عن سَلَف. و جاء في صحيح النسائي - باب البناء على القبر - هذا الحديث بطريقتين و صورتين هما:

٧ - أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا يَقُولُ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ تَجْصِيسِ الْقُبُورِ أَوْ يُسَبَّ عَلَيَّهَا أَوْ يُجَلِّسَ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

٨ - أَخْبَرَنَا عِمْرَانُ بْنُ مُوسَى قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو ثُيُوبٍ، أَبِي عَنْ الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ تَجْصِيسَ الْقُبُورِ (٢) و جاء في سنن أبي داود ج ٣ ص ٢١٦ - باب البناء على القبر -

(١) صحيح ابن ماجه: ج ١ كتاب الجنائز ص ٤٧٣.

(٢) صحيح النسائي: ج ٤ ص ٨٧ - ٨٨ المطبوع مع شرح الحافظ السيوطي.

حديث جابر بطريقتين وصورتين هما:

٩ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ،

أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ نَهَى أَنْ يُقْعَدَ

عَلَى الْقَبْرِ وَأَنْ يُجَصَّصَ وَيُنْبَى عَلَيْهِ.

١٠ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ

غِيَاثٍ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، وَعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ

جَابِرٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قَالَ عُثْمَانُ: «أَوْزَادُ عَلَيْهِ». وَزَادَ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى:

«أَوْ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ».

أما أحمد بن حنبل - إمام الحنابلة - فقد روى الحديث في

مسنده على الشكل التالي:

١١ - عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ

ابن عبد الله يقول: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَنْهَى أَنْ يُقْعَدَ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ وَأَنْ

يُجَصَّصَ وَأَنْ يُنْبَى عَلَيْهِ (١).

هذا ما روي عن جابر في هذا الموضوع، ذكرناه بألفاظه

المختلفة وأسانيده المتعددة. والآن يأتي دور البحث والتحقيق فيها،

لنرى هل تصلح للاستدلال أم لا؟!!

نقاط الضعف في الحديث

حديث جابر هذا، فيه مجموعة كبيرة من نقاط الضعف،

(١) مسند أحمد: ج ٣ ص ٢٩٥ و ٣٣٢، ورواه أيضاً مُرسلاً عن جابر في ص ٣٩٩.

بحيث تسقطه عن الحجية والاعتبار، ولا يمكن الاستدلال به بأي وجه. وفيما يلي نذكر نقاط الضعف فيه:

أولاً: لقد جاء في جميع أسانيده اسم ابن جريح (١) وأبو الزبير (٢) كلاهما معاً، أو بصورة منفردة، فإذا عرفنا هوية هذين الراويين وأحوالهما، فلاحاجة الى معرفة حال الرواة الآخرين فيه، بالرغم من وجود مجهولين أو ضعاف الحديث فيه. في كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني تقرأ رأي علماء الرجال في ابن جريح فيمايلي:

سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريح فقال: ضعيف. ف قيل

له: إنه يقول: أخبرني، قال: لا شيء... كله ضعيف (٣).

وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريح: قال فلان وقال فلان

وأخبرْتُ، جاء بمنكير (٤).

أي: أحاديثه منكرة ومجهولة، أو أنها منكرات.

وقال مالك بن أنس: كان ابن جريح حاطب ليل (٥).

«وقال الدارقطني: تجبّ تدليس ابن جريح، فانه فيح التديليس، لا

(١) هو عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريح الأموي.

(٢) هو محمد بن مسلم الأسدي.

(٣) تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٤٠٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٤٠٤. و (حاطب ليل)، في أصل معناه: جامع الخطب

في الليل، حيث لا يرى ما يجمع، ويُضرب به المثل لمن يجمع كل شيء لا يُميّز الجيد من الردي.

يُدلس إلا فيما سمعه من مجروح.

وقال ابن حبان: كان ابن جريح يُدلس في الحديث (١).

بالله عليك - أيتها القارئ - هل يجوز الأخذ برواية هذا الرجل مع ما ورد فيه من الذم والقبح والتضعيف من علماء الرجال؟! وهل يجوز أن نُعرض عن سيرة المسلمين - القائمة على بناء قبور أولياء الله واحترامها - استناداً إلى حديث هذا الراوي المدلس؟!!

وهل يجوز أن نرمي المسلمين بالشرك والكفر والزندقة، لأنهم يُحيون السنّة الاسلامية وينتهجون سيرة السلف الصالح في البناء على القبور وزيارتها واحترامها؟! هذا بعض ما يتعلق بابن جريح. وأما أبو الزبير، فهذا ابن حجر يذكر أقوال علماء الرجال فيه فيما يلي:

«عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه إمام الخنابلة، عن أيوب أنه

كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية».

وعن شعبة أن أبا الزبير ما كان يُحسن الصلاة

وعن شعبة أيضاً أنه قال:

«لم يكن في الدنيا أحب إليّ من رجل يقدم فأسأله عن أبي الزبير،

فقدِمْتُ مكة فسمعتُ منه، فبينما أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله

عن مسألة، فردّ عليه فافتري عليه».

(١) تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٤٠٢ وص ٥٠٦ طبعة دار المعارف النظامية.

فقلت: يا أبا الزبير تفترى على رجل مسلم؟!

قال: إنه أغضبني.

قلت: ومن يُغضبك تفترى عليه؟! لا رويتُ عنك شيئاً».

وعن ورقاء قال:

«قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبي الزبير؟

قال: رأيتُه يَزِنُ ويسترجع في الميزان».

وقال ابن أبي حاتم:

«سألتُ أبي عن أبي الزبير؟

فقال: يُكتب حديثه ولا يُحتجُّ به».

قال: وسألتُ أبا زرعة عن أبي الزبير؟

فقال: بروي عنه الناس.

قلت: يُحتجُّ بحديثه؟

قال: إنما يُحتجُّ بحديث الثقات (١). «كناية عن أنه ليس

بثقة».

نعم يا أخي... هذا حال ابن جُريح وأبي الزبير، وهما من رواة حديث جابر في جميع أسانيده، فهل يمكن الاستدلال بحديثٍ فيه هذان الراويان؟!

وقد سبقت الإشارة الى أن في سند هذا الحديث رواة ضعافاً غير ابن جُريح وأبي الزبير، كعبدالرحمن بن أسود المتَّهم بالكذب والوضع.

(١) تهذيب التهذيب، في ترجمة أبي الزبير.

فهل يجوز هدم آثار أهل بيت النبوة والرسالة - عليهم الصلاة والسلام - وهدم آثار الصحابة، ونسبة الخطأ والانحراف الى المسلمين طوال أربعة عشر قرناً، كلّ ذلك اعتماداً على هذا الحديث الضعيف المردود المرفوض الساقط؟!!

ثانياً: إن حديث جابر مضطرب جداً من حيث المتن والألفاظ، وهذا الاضطراب يدلّ على أن رواة هذا الحديث كانوا فاقدين للضبط والتدقيق في الرواية، مع العلم أن الضبط شرط في الراوي، وهذا الاضطراب يمنع الاطمئنان بهذا الحديث ويسلب الثقة والاعتماد عليه.

واليك تفصيل البحث:

لقد روي حديث جابر بسبع صور، مع العلم أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نطق به بصورة واحدة، وإليك توضيح الصور السبع:

١ - نهى رسول الله عن تخصيص القبر والاعتماد عليه. الحديث رقم ١، ٢، ٩.

٢ - نهى رسول الله عن تخصيص القبر. الحديث رقم ٥، ٨.

٣ - نهى رسول الله عن تخصيص القبر والكتابة عليه والبناء عليه والمشى عليه. الحديث رقم ٤.

٤ - نهى رسول الله عن الكتابة على القبر. الحديث رقم ٦.

٥ - نهى رسول الله عن الجلوس على القبر وتخصيصه والبناء

والكتابة عليه. الحديث رقم ١٠.

٦ - نهى رسول الله عن الجلوس على القبر وتخصيصه والبناء عليه. الحديث رقم ١١.

و الفرق بين هذه الصورة والصورة الأولى هو أن الأولى منعت الاعتماد والاتكاء على القبر، وهذه تمنع الجلوس عليه.

٧ - نهى رسول الله عن الجلوس على القبر وتخصيصه والبناء عليه والزيادة عليه والكتابة عليه، ونلاحظ في هذه الصورة - مضافاً الى الجلوس والتخصيص والبناء - إضافة الزيادة على القبر والكتابة عليه.

وبعد هذا كله انظر الى الاختلاف والتباين في متون الحديث وعباراته، ففي الصورة الأولى يقول: «الاعتماد» وفي الثالثة: «الوطأ» وفي الخامسة والسادسة: «القعود».

ومن الثابت أن الاعتماد غير الوطأ وغير القعود فمع هذا الاضطراب والاختلاف - في الحديث - لا يمكن - لأي فقيه - أن يثق به ويعتمد عليه.

ثالثاً: إن هذا الحديث - على فرض صحته والغض عن اضطرابه - لا يدل على أكثر من نهى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن البناء على القبور، ولكن النهي لا يدل على الحرمة، لأنه قسمان: نهي تحريم ونهي كراهة، والقسم الثاني كثير جداً في أحاديث النبي والأئمة الطاهرين - عليهم السلام -.

صحيح أن الأصل في النهي التحريم، وأنه حقيقة فيه حتى يثبت دليل يصرفه عن التحريم الى الكراهة، ولكن العلماء

والفقهاء لم يستنبطوا من ذلك إلا الكراهة فقط، فترى -مثلاً- الترمذي يذكر هذا الحديث في صحيحه تحت عنوان: كراهية تخصيص القبور... وأوضح شاهد على الكراهة هو أن السندي -شارح صحيح ابن ماجه- يذكر عن الحاكم النيسابوري أنه قال: لم يعمل بهذا النهي أحد من المسلمين، فهو لم يعتبر النهي تحريمياً، بدليل أن سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور. ومما يشهد أيضاً على أن النهي نهي كراهة هو اتفاق المذاهب الاسلامية على جواز البناء على القبر إلا اذا كانت الأرض موقوفة شرعاً.

يقول شارح صحيح مسلم - في شرح هذا الحديث -:

«أما البناء فإن كان في ملك الباني فمكروه، وإن كان في مقبرة

مُشْتَبَلة (١) فحرام، نصّ عليه الشافعي والأصحاب» (٢).

ومما لا يحتاج الى بيان هو أن الشيء المكروه قد ترتفع كراهيته بالنظر الى بعض الأمور الأخرى، فمثلاً: اذا صار البناء على القبر سبباً لحفظ أصالة الاسلام وإظهار المودّة لصاحب ذلك القبر الذي قرّض الله تعالى محبته ومودته أو يكون سبباً لصيانة الشعائر الاسلامية أو يؤدي الى تجمع الزوّار - تحت البناء - لتلاوة القرآن والصلاة والدعاء، فبالقطع واليقين أن الكراهة لا ترتفع فحسب، بل يكون ذلك أمراً مستحباً محبوباً مطلوباً مرغوباً فيه،

(١) مُشْتَبَلة: موقوفة في سبيل الله تعالى.

(٢) صحيح مسلم: ج ٣ ص ٦٢ طبعة مصر.

من باب إحياء التراث الديني وإقامة الشعائر الإسلامية .
 إن ممّا لا شكّ فيه: أن الحكم المكروه أو المستحب قد يتغيّر
 بسبب عناوين أخرى، وبالنظر الى عوامل أخرى، فكم من
 المكروهات التي تنتقل حكمها الى الاستحباب لعوامل خاصّة،
 وكم من المستحبات التي تنقلب مرجوحة لنفس السبب، ذلك
 لأن استحباب الشيء وكرهه ليس معناه إلاّ المقتضي
 للمحبوبة أو المرجوحة، وهذه المقتضيات تكون نافذة مع عدم
 المانع من الاقتضاء والتأثير، أو كان المانع أقوى من المقتضي،
 فمثلاً: النار تقتضي الإحراق بشرط أن لا يكون الحطب رطباً،
 والدواء يقتضي برء المريض بشرط عدم المانع ، وهذه بحوث
 واضحة لمن له إمام بالفقه الإسلامي .

الاستدلال بحديثين آخرين

تتميماً للبحث نذكر حديثين آخرين تمسك بها الوهابيون في
 هذا المقام وهما:

روى ابن ماجة في صحيحه مايلي:

١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَاشِي،

حَدَّثَنَا وَهَبٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ

مُخَيْمِرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: إِنَّ النَّبِيَّ نَهَى أَنْ يُبْنَى عَلَى الْقَبْرِ (١) .

ويذكر أحمد بن حنبل حديثاً آخر بسندين هما:

٢ - حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ، حَدَّثَنَا بُرَيْدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ نَاعِمِ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُبْنَى عَلَى الْقَبْرِ أَوْ يُجَصَّصَ.

٣ - عَلِيُّ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ، حَدَّثَنِي بُرَيْدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ نَاعِمِ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ قَبْرُ أَوْ يُبْنَى عَلَيْهِ أَوْ يُجَلَسَ (١).

بالنسبة الى الحديث الأول فيكفي في ضعفه أن من رواه رجل اسمه «وهب» وليس معلوماً حاله، لأن هناك ١٧ رجلاً كل واحد منهم اسمه «وهب» من دون تمييز أو تشخيص، وفيهم الوضاعون والكذابون (٢) وليس واضحاً أن وهب - في هذا الحديث - من هو؟ فالرواية ساقطة.

وأما الحديث الثاني والثالث فهما ساقطان أيضاً، لوجود عبدالله بن لهيعة في سنده. وفيه يقول الذهبي:

قال ابن معين: ضعيف لا يُحتج به.

قال الحميدي، عن يحيى بن سعيد: انه كان لا يراه شيئاً (٣).

نحن لا نناقش سند هذين الحديثين، ونكتفي بالاشارة الى نقطة هامة وهي: أن جميع المؤرخين والمحدثين وأهل السير ذكروا

(١) مسند أحمد: ج ٦ ص ٢٩٩.

(٢) ميزان الاعتدال: ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٥.

(٣) ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٤٧٦ تحت عنوان: عبدالله بن لهيعة، تهذيب التهذيب: ج ١

بأن جسد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قد دفن في بيت عائشة، بموافقة الصحابة، وقد تمَّ انتخاب بيتها للدفن استناداً الى ما روي عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بأن كلَّ نبي يُدفن في المكان الذي يموت فيه (١).

والآن... يأتي هذا السؤال: اذا كان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قد نهى عن البناء على القبر، فكيف دفنوا جسده الطيب الطاهر في بيتٍ مسقَّف، ثم أقاموا جداراً في وسط البيت، فصار للقبر الشريف بناء يقصده المؤمنون ويزوره المسلمون؟! ومن المضحك - في هذا المجال - هو قول أحد الكتاب الوهَّابيين الحائدين عن الحق، حيث يقول:

إن الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبي

تحت البناء، ولم يبنوا على قبره شيئاً (٢).

إن هذا الكاتب اضطرَّ الى هذا القول السخيف، لكونه يرى قبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مُشيداً بالبناء والقبة، ولولا ذلك لَحَكَمَ بجرمة الدفن في البيت أيضاً.

فانظر كيف يُفتي من تلقاء نفسه بغير ما أنزل الله، إرضاء لهواه وتجاوباً مع اتجاهه المنحرف!!!

ونحن نسأل هذا الوهَّابي الضال: هل أن الحرام هو البناء

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ٧، صحيح الترمذي: ج ٢ ص ١٣٩، طبقات ابن سعد: ج ٢

ص ٧١ وغيرها.

(٢) كتاب رياض الجنة: بقلم مقبل بن الهادي الوادي/ طبعة الكويت.

على القبر فقط، لكن إبقاء البناء ليس حراماً؟!!

أم أن البناء - إيجاداً وإبقاءً - حرام؟!!

إذا كان الحرام هو البناء فقط فنحن نسأل: لماذا أقدمت حكومة الاحتلال السعودي - ظلماً وزوراً - على هدم آثار النبوة ومراقد الأئمة الطاهرين - عليهم السلام - وقبور الصحابة وأبناء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع العلم أن الحرام - عندكم - هو إقامة البناء فقط لا الإبقاء على البناء؟!!

وبالإضافة الى ذلك ... إن هذا الحكم هو خلاف ما أفتى به أسلافكم - كابن القيم وابن تيمية - حيث يقول الأول:

«يجب هدم المشاهد التي بُنيت على القبور ولا يجوز إبقاؤها - بعد

القدرة على هدمها وإبائها - يوماً واحداً».

فعلى هذا الأساس لا يستطيع هذا الوهابي الأثم أن يقول بجرمة البناء فقط، كي لا يُخالف من سبقوه الى النار، ولا مناص له من الحكم بجرمة البناء إيجاداً وإبقاءً.

هنا يأتي هذا السؤال: لماذا دفن المسلمون جسد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تحت البناء؟

صحيح أنهم لم يقيموا على قبره البناء، إلا أن الدفن هناك أدى الى أن يكون للقبر بناءً وسقفاً.

وترى هذا الوهابي المعاند يحاول الفرار والتخلص من هذا السؤال فيفتي من نفسه بغير ما أنزل الله - كما هو عادتهم - ويقول - مامعناه - إن الإبقاء الحرام هو للبناء الذي بُني على القبر، أما إذا

كان البناء سابقاً على الدفن فليس الإبقاء عليه حراماً.
فانظر كيف يُفَرِّق في الحكم ويفتي من تلقاء نفسه، تبريراً لما قام
به المسلمون يومذاك، ومحاولاً التملّص من الحق الذي يُلاحقه ويصدمه.

التناقض بين الوهابية وسيرة المسلمين

هذه النقطة - التي سبق الحديث عنها - ليست هي النقطة
الوحيدة التي يتجلى فيها التناقض بين الوهابية وسيرة المسلمين
طوال أربعة عشر قرناً.

بل أن التناقض في موارد أخرى كثير جداً، فمثلاً: يعتبر
الوهابيون التبرك بآثار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حراماً،
وينهون عنه بشدة ويقولون - دائماً - إن الحجر والطين لا ينفعان شيئاً،
ولكنك ترى المسلمين يتزاحمون على الحجر الأسود لتقبيله ولمسه
والتبرك به، ويتهافتون على كسوة الكعبة للتمسح بها وبالكعبة
وتقبيلها ووضع الخد عليها، فالمسلمون يقبلون الحجر والطين
ويخالفون الوهابية التي تقول بأن الحجر والطين لا ينفعان.

وكذلك يحرم الوهابيون بناء المساجد بجوار مراقد الأولياء، في
حين أنه توجد في كل البلاد الإسلامية مساجد مشيدة بجوار
المشاهد، حتى في أرض «أحد» كان مسجد بجوار قبر سيدنا حمزة
- رضوان الله عليه - ولما احتل الوهابيون تلك البقاع المقدسة عمدوا
إلى هدم المسجد وطمس آثاره!!.

والآن ترى المرقد الطاهر لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

واقعاً في وسط المسجد، والمسلمون يقيمون الصلاة لله من أطرافه وجوانبه الأربعة. وكم لهذه القضايا من نظير ومثيل، فانظر الى البون الشاسع بين الوهابية وسيرة المسلمين، ممّا يدلّ على أن انفصال الوهابية عن الاسلام، وانفصال الوهابيين عن المسلمين.

اختلاق الأدلة الواهية تبريراً للجرمة

لقد لجأ الوهابيون الى اختلاق الأدلة الواهية التي تبرّر لهم هدم المراقد الطاهرة والقباب الشريفة للأئمة الطاهرين -عليهم السلام- في البقيع، وممّا قالوا -في هذا المجال-: إن البقيع أرض موقوفة، ويجب أن يُستفاد منها لنفس الغرض الذي وقفها صاحبها، ويجب القضاء على كلّ ما يوجب الحدّ من الاستفادة عن الغرض المقصود، والبناء ونصب الأعمدة والجدران في هذه الأرض يوجب الحدّ من الاستفادة من جزء منها، فأرض البقيع موقوفة لدفن الموتى، ومن الواضح أن نصب الأعمدة والجدران للبناء -يحتلّ جزء من الأرض، إذ لا يمكن الدفن تحت الأعمدة والجدران، وهذا يؤدي الى الحدّ من الاستفادة للغرض المقصود، ولهذا تجب إزالة ما على هذه الأرض من بناء كي يمكن الدفن في كلّ بقعة فيها.

الجواب والرد:

لا شك أن هذا النوع من الاستدلال ليس إلا تسرعاً في

الحكم وابتعاداً عن الحق، يريد به القاضي الوهابي القضاء على آثار أهل البيت -عليهم السّلام- بأيّ وجه كان، وحتى لو أفلس من الأدلة فإنه يأمرُ بالهدم بحكم القوة والعنف والزور، وما هذا الدليل إلاّ للتمويه على عوام المسلمين وبسطائهم بأنه يفتي بما أنزل الله، ولهذا تراه يعتبر البقيع أرضاً موقوفة للدفن.

ولكن هذا الدليل -كسائر أدلتهم- باطل من عدّة وجوه:

الأول: لم يرد في أيّ كتاب -من كتب التاريخ والحديث- ما يشير الى أن أرض البقيع موقوفة، ولم يصرّح به أحد من المؤرّخين والمحدّثين . هذه كُتُب التاريخ بين يديك، لا ترى فيها أثراً لهذا القول، بل أنه يُحتمل قوياً أن البقيع كان أرضاً مواتاً متروكاً كسائر الأراضي الموات، وكان أهل المدينة يدفنون موتاهم فيها، وعلى هذا فأرض البقيع كانت من «المباحث الأوّلية» التي يجوز التصرف فيها مطلقاً، بأيّ شكل كان.

لقد كان الناس - في العهود السابقة - غير حريصين على تملك الأراضي البائرة الموات، إذ لم تكن الامكانيات متوفرة لديهم للقيام بالبناء والعمران إلاّ قليلاً، كما لم تبدأ -يومذاك - هجرة أهل القرى الى المُدن، ولم تكن هناك مشكلة باسم مشكلة «الأرض» وأفراد باسم «محتكري الأرض» ومؤسسات عقارية باسم «بورصة الأراضي» ولهذا فإن أراضي واسعة كانت متروكة بلا مالك، وهي ما يُعبّر عنها في الشريعة الاسلامية بـ«المباحث» و«الأراضي الموات البائرة».

وقد جرت العادة - في المدن والقرى - بأن يُخصَّص الناس قطعة من الأرض لدفن الموتى فيها، أو كان واحد منهم يَدفن فقيدَه في أرض، ويتبعه الآخرون في ذلك، من دون التفات إلى الوقف أصلاً.

وأرض البقيع ليست مستثناة من هذه القاعدة، فلم تكن الأرض - في الحجاز والمدينة - ذات قيمة، ومع وجود هذه الأراضي الموات المحيطة بالمدينة لم يكن يُقدم إنسان على وقف أرض زراعية - مثلاً - لدفن الموتى، لأن الأراضي الزراعية كانت قليلة، بعكس الأراضي الموات فإنها كانت كثيرة ومن المباحات الأولية.

والجدير بالذكر أن التاريخ أيضاً يؤكد هذه الحقيقة. يقول السهمودي في كتاب وفاء الوفا:

«أول من دُفن رسول الله بالبقيع: عثمان بن مظعون... ولما توفي إبراهيم بن رسول الله أمر أن يُدفن عند عثمان بن مظعون، فرغب الناس في البقيع وقطعوا الشجر، فاخترت كل قبيلة ناحية، فمن هنالك عرفت كل قبيلة مقابرها...»

كان البقيع غرقداً (١) فلما هلك عثمان بن مظعون ودُفن في البقيع قُطع الغرقد عنه» (٢).

لقد ظهر - من كلام السهمودي - أن أرض البقيع كانت مواتاً، وتمَّ تقسيمها إلى عدَّة قطع بعد ما دُفن أحد الصحابة فيها،

(١) الغرقد: شجر مخصوص وهو يتواجد كثيراً في صحاري المدينة المنورة وأطرافها.

(٢) وفاء الوفا: ج ٢ ص ٨٤.

وُخِّصَتْ كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهَا لِقَبِيلَةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَبَيْتٍ مِنَ الْبَيْوتِ،
 أَمَا أَنْ تَكُونَ مَوْقُوفَةً فَلَا تَرَى لَهَا أَثْرًا فِي التَّارِيخِ، بَلْ يُسْتَفَادُ مِنَ
 التَّارِيخِ أَنَّ الْبَقْعَةَ الَّتِي تَحْتَضِنُ أَجْسَادَ الْأَئِمَّةِ الطَّاهِرِينَ
 -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- فِي الْبَقِيعِ كَانَتْ دَارًا لِعَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَّ
 تِلْكَ الْأَجْسَادَ الطَّاهِرَةَ إِنَّمَا دُفِنَتْ فِي دَارِ تَعُودِ ابْنِ بَنِي هَاشِمٍ.
 يَقُولُ السَّمْعُودِيُّ:

«دُفِنَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُظَلَّبِ عِنْدَ قَبْرِ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ فِي
 أَوَّلِ مَقَابِرِ بَنِي هَاشِمٍ الَّتِي فِي دَارِ عَقِيلٍ».
 وَيَقُولُ أَيْضًا:

«عَنْ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّهُ رَأَى قَبْرَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ عِنْدَ
 الزُّورَاءِ... وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي صَارَتْ لِمُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ...
 وَأَنَّ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ دَفَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي طَرَفِ الرِّزْقِ الَّذِي يَلْزِقُ
 دَارَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ... وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: دَارُ ابْنِ أَفْلَحٍ، فِي
 أَفْصَى الْبَقِيعِ، عَلَيْهَا جُنْبُدَةٌ (٢١ و٢٠).»

هَذِهِ الْعِبَارَاتُ بِمَجْمُوعِهَا تُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ أَرْضَ الْبَقِيعِ لَمْ تَكُنْ
 وَقْفًا، وَأَنَّ أَجْسَادَ الْأَئِمَّةِ الطَّاهِرِينَ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- إِنَّمَا دُفِنَتْ فِي
 بَيْوتِهِمُ الْمَمْلُوكَةَ.

بَعْدَ كُلِّ مَا سَبَقَ، هَلْ يَصِحُّ هَدْمُ آثَارِ آلِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- وَتَسْوِيطُهَا مَعَ الْأَرْضِ بِحُجَّةِ أَنَّهَا لَا تَنْسَجَمُ مَعَ

(١) الْجُنْبُدَةُ: الْقُبَّةُ.

(٢) وَفَاءُ الْوَفَا: ج ٢ ص ٩٦.

الوقف؟!!

ولو فرضت - جَدَلًا - أن أرض البقيع موقوفة، فهل هناك ما يُثبت كيفية وقفها؟! ولعلّ مالك الأرض قد سمح بإقامة البناء والقباب على قبور الشخصيات المرموقة التي تُدفن فيها؟! نحن لا نعلم تفصيل الموضوع، الشيء الذي نعلمه هو أن المسلمين أقاموا البناء والقباب على تلك القبور، ويجب حمل فعل المسلم على الصحة والابتعاد عن اتهامه ونسبة المعصية اليه. وعلى هذا الأساس فإن هدم تلك القباب المقدّسة والأبنية المحترمة يُعتبر حراماً بيّناً ومخالفةً قطعيةً للأحكام الشرعية.

و كان القاضي ابن بليهد وأتباعه يعلمون جيّداً أن فكرة وقفية البقيع ليست إلا استدلالاً فسطحياً، وحتى لو لم يرسم لهم الشيطان هذا الدليل الواهي، لكانوا يهدمون آثار آل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بلا تردّد، ذلك لأن هذه المرّة ليست هي المرّة الأولى التي تقوم فيها الوهابية البريطانية بهدم آثار الرسالة والاسلام، بل إن المرّة الأولى كانت فيه سنة ١٢٢١هـ عندما سيطروا - لأول مرة - على المدينة المنورة وهدموا تلك الأبنية والآثار، ثم أعيد بناؤها بعد دحر الوهابيين وطردهم من المدينة على يد القوات العثمانية.

الفصل الثالث

بناء المسجد بجوار المراقد المشرفة

هل بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها جائز أم لا؟
و إذا كان جائزاً فما معنى ما روي «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور الأنبياء معابد» ألا يُعتبر بناء المسجد بجوار قبور الأولياء ملازماً لما قد ورد في هذا الحديث؟!

الجواب: إن بناء المساجد بجوار قبور الصالحين لا مانع فيه أبداً، لأنه يندرج تحت الاصول الاسلامية العامة المجوزة، ذلك لأن الهدف من بناء المسجد هناك إنما هو عبادة الله تعالى بجوار مثوى أحد أحبائه وأوليائه الصالحين الذي منح البركة والشرف لتلك الأرض التي دُفن فيها.

وبعبارة أخرى: إن الهدف من تشييد المساجد هناك هو التشجيع على أداء الفرائض الشرعية والعبادات، قبل زيارة ذلك القبر أو بعده.

وعلى أساس أن زيارة القبور ليست محرمة -حتى عند الوهابيين- وكذلك إقامة الصلاة قبل الزيارة أو بعدها، فلا معنى

للقول بجرمة بناء المسجد - بجوار قبور الصالحين - لعبادة الله وأداء فرائضه الشرعية.

إن التأمل في قصة أصحاب الكهف يكشف لنا عن أن بناء المسجد بجوار القبر كان سُنَّةً مَتَّبَعَةً عند الأمم والشرائع السابقة، والقرآن الكريم يشير الى تلك السُنَّة من دون أي رد أو نقد.

وقد سبقت الاشارة الى أن أصحاب الكهف عندما انكشف خبرهم - بعد ثلاثمائة وتسع سنين - اختلف الناس في نوعية احترامهم وتكريمهم وانقسموا الى قسمين:

١ - قسم قالوا: «أَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا».

وذلك لكي يكون تخليداً لذكراهم.

٢ - والقسم الثاني - الذي كسب الموقف في النهاية - دعا الى بناء المسجد على الكهف كي يكون مركزاً لعبادة الله تعالى، بجوار قبور اولئك الذين رفضوا عبادة غير الله وخرجوا من ديارهم هاربين من الكفر، ولاجئين الى توحيد الله وطاعته.

وقد أجمع المفسرون على أن الاقتراح الأول كان من المشركين، بينما الاقتراح الثاني كان من المؤمنين الموحدين (١) ولهذا يقول القرآن الكريم:

«قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا».

وجاء في التاريخ أن العثور على أصحاب الكهف وانكشاف أمرهم كان في عصر انتصار التوحيد على الشرك، وكان قادة

(١) راجع تفسير الكشاف: للزمخشري، وغرائب القرآن: للنيشابوري وغيرهما.

المشركين - الداعين الى عبادة الأصنام - مندحرين مغلوبين، فاقترح بناء المسجد جاء من المؤمنين بالله الموحدين له سبحانه. فاذا كان بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها علامة على الشرك فلماذا صدر هذا الاقتراح من المؤمنين؟!

ولماذا ذكر القرآن اقتراحهم من دون أي نقدٍ أو ردٍّ؟!

أليس ذلك دليلاً على الجواز؟

و ليس صحيحاً - قطعاً - أن يذكر الله تعالى كلاماً للمشركين ويمرّ عليها بدون ردٍّ ونقدٍ إجمالي أو تفصيلي.

إن هذا «تقرير» من القرآن على صحة اقتراح اولئك المؤمنين، ومن الثابت أن تقرير القرآن حجة شرعية - كما هو ثابت في علم أصول الفقه الديني -.

وهذا يدل على أن سيرة المؤمنين الموحدين في العالم كلّه كانت جارية على هذا الأمر، وكان يُعتبر عندهم نوعاً من الاحترام لصاحب القبر وتبركاً به.

لقد كان الأولى للوهابيين أن يعرضوا المسألة على القرآن أولاً، ثم يبحثوا هنا وهناك عن حديث من الأحاديث الشريفة.

وفيما يلي نذكر ما تمسكوا به في هذا المجال، لنقف على ضعفه

وبطلانه:

أدلة الوهابيين على حرمة بناء المساجد بجوار قبور الصالحين
لقد تمسك الوهابيون بمجموعة من الأحاديث على حرمة بناء

المسجد عند قبور الصالحين، وفيما يلي نذكر تلك الأحاديث مع المناقشة والتحقيق:

ذكر البخاري في صحيحه - باب كراهة اتخاذ المساجد على القبور - هذين الحديثين:

١ - لَمَّا مَاتَ الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، ضَرَبَتْ امْرَأَتُهُ الْقُبَّةَ عَلَى

قَبْرِهِ سَنَةً، ثُمَّ رَفَعَتْ، فَسَمِعُوا صَائِحًا يَقُولُ: أَلَا هَلْ وَجَدُوا مَا فَقَدُوا؟

فَأَجَابَهُ الْآخَرُ: بَلْ يَسُؤُوا فَأَنْقَلَبُوا.

٢ - لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالتَّصَارِيءَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ

مَسْجِدًا (١).

وقد ذكر مسلم في صحيحه هذا الحديث الثاني مع اختلاف يسير، وذكر أيضاً:

٣ - ... أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَ

صَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُمْ عَنْ

ذَلِكَ (٢).

٤ - إِنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرْنَا كَنِيْسَةً رَأَيْتُهَا فِي الْحَبَشَةِ، فِيهَا

تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ

الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ،

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز ج ٢ ص ١١١، السنن للنسائي: ج ٢ ص ٨٧١

كتاب الجنائز.

(٢) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٦٨.

أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١).

ويروي النسائي - في سننه باب التعليل في اتخاذ السرج على القبور - عن ابن عباس:

هـ - لَعَنَ الرَّسُولُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ

و السرج (٢).

وترى ابن تيمية - الذي يعتبر المؤسس لهذه العقائد الباطلة، ومحمد بن عبد الوهاب إنما يأكل من فضالته - تراه يستند إلى هذه الأحاديث في حرمة بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها، فيقول:

«قال علماؤنا: لا يجوز بناء المسجد على القبور» (٣).

تحقيق في معنى الأحاديث

و الآن يجب التحقيق والتأمل في نصوص هذه الأحاديث، لنقف على مدلولها الصحيح.

قبل كل شيء، يجب أن نعلم - كأصل عام - أنه كما تكون آية قرآنية مفسرة لآية أخرى، كذلك الأحاديث يكون أحدها مفسراً للآخر وموضحاً وكاشفاً عن غموضه.

لقد تمسك الوهابيون بظاهر حديث واحد، واستنتجوا منه

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد ج ٢ ص ٦٦.

(٢) السنن للنسائي: ج ٣ ص ٧٧ طبعة مصطفى الحلبي.

(٣) زيارة القبور: ص ١٠٦.

حرمة بناء المسجد على قبور الصالحين أو مجوارها، في حين أنهم لو كانوا يصهرون الأحاديث كلها في بوتقة واحدة، لكانوا يفهمون ما عناه الرسول الأكرم -صلى الله عليه وآله وسلم- .

هؤلاء أغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد، مما أدى بهم الى تفسير كثير من الأحاديث تفسيراً خاطئاً.

أقول: إن ما تمسك الوهابيون به -على حرمة بناء المسجد عند القبر- من أحاديث إنما يكون مقبولاً اذا كانت أسانيدھا صحيحة ورواتها ثقات، وفي غير هذه الصورة فلا تصلح تلك الأحاديث للاستدلال أبداً.

وبما أن التحدّث عن أسناد كلّ هذه الأحاديث يؤدّي الى اطالة الكلام، لهذا نختصر الحديث عمّا تضمّنته تلك الأحاديث فنقول:

أما الحديث الأول وهو: «لَمَّا مات الحسن بن الحسن ضربت امرأته القبّة على قبره...» الى آخره، فهو نقيض لمذهب الوهابيين، إذ أنه دليل على جواز نصب المظلة والقبّة على القبر، والوهابيون يُحرّمون مطلق الظلال، سواء كان مظلة أو قبّة وبناء.

فهذا الحديث يدلّ على جواز نصب المظلة وإقامة القبّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن، لأنه كان برأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة.

ولعلّها نصبت تلك القبّة لأجل تلاوة القرآن على القبر، وقاية من الحرّ والبرد وغيرهما.

و أما قول الراوي: «فسمعوا صالحاً يقول...» فهو أشبه بقول غير الصالحين، لأنه نوع من الشماتة - والشماتة ليست من أخلاق الصالحين - ومثله في ذلك ما أجابه الصالح المزعوم. إن إقامة تلك المرأة على قبر زوجها الفقيد لم يكن على أمل عودته الى الحياة، حتى يقال: إنها يُست، بل كان لتلاوة القرآن وغيره.

والخلاصة: إن قول ذلك الصالح المزعوم وجواب الآخر ليس حجة شرعية، إذ ليس من كتاب الله ولا من السنة الشريفة ولا هو كلام معصوم.

و أما بالنسبة الى الأحاديث التي تلعن اليهود والنصارى وتُحذّر المسلمين من التشبه بهم، فنقول:

إن معرفة مقصود هذه الأحاديث يتوقف على معرفة ما كان يقوم به اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم، ذلك لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إنما نهى عن القيام بما كان يقوم به اليهود والنصارى، فاذا عرفنا عملهم، عرفنا -بالتبع- الحرام المنهي عنه.

وتوجد في الأحاديث قرائن شاهدة على أن اليهود والنصارى كانوا يتخذون قبور أنبيائهم قبلاً لهم تصرفهم عن التوجه الى القبلة الواجبة، واكثر من ذلك... كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم بدل أن يعبدوا الله الواحد القهار، أو كانوا يجعلون أنبياءهم شركاء مع الله سبحانه في العبادة.

فاذا كان المعنى - في تلك الأحاديث - : أن لا تتخذوا قبور الصالحين قبلة لكم، أو: لا تجعلوهم شركاء مع الله تعالى في العبادة، فلا يمكن الاستدلال - بأي وجه - على حرمة البناء على قبورهم أو عندها، لأن الزائرين لا يتخذون تلك القبور قبلة لهم ولا يعبدونهم ولا يجعلونهم شركاء في العبادة، بل كلهم مؤمنون بالله موحدون له، ويتوجهون - في صلواتهم - الى الكعبة المقدسة، والهدف من بناء المسجد عند تلك القبور هو التبرك بالأرض التي احتضنت أجسادهم الطاهرة.

فالمهم هو أن يثبت لنا أن هدف هذه الأحاديث من عدم اتخاذ القبور مساجد هو ما ذكرناه، واليك القرائن الدالة على ذلك :

١ - الحديث المذكور في صحيح مسلم - وهو الحديث رقم ٤ - يُوضّح الأحاديث الأخرى، فحينما قالت أم حبيبة وأم سلمة - زوجتا النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بأنهما رأتا تصاوير النبي في إحدى كنائس الحبشة، قال النبي:

«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير...».

فالهدف من وضع صور الصالحين بجوار قبورهم إنما كان لأجل السجود عليها وعلى القبر، بحيث يكون القبر والصورة قبلة لهم، أو كانتا كالصنم المنصوب يُعبدان ويُسجدان لهما.

إن هذا الاحتمال - اللائح من هذا الحديث - ينطبق مع ما

عليه المسيحيون من عبادة المسيح ووضع التصاوير والتماثيل
المجسمة له وللسيدة مريم -عليهما السلام- .

ومع هذا المعنى فلا يمكن الاستدلال بهذه الأحاديث على
حرمة بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها من دون أن يكون
في ذلك أي شيء يوحى بالعبودية، كما عليه المسيحيون.

٢- يروي أحمد بن حنبل في مسنده ومالك بن أنس في
«الموطأ» تتمّة لهذا الحديث، وهو أن النبي -صلى الله عليه وآله
وسلم- قال -بعد النهي عن اتخاذ القبور مساجد- :

«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَنَاءُ يُعْبَدُ» (١).

إن هذا يدل على أن أولئك كانوا يتخذون القبر والصورة التي
عليها قبلة يتوجهون إليها، بل صنماً يعبدونه من دون الله سبحانه.

٣- إن التأمل في حديث عائشة -الحديث الثاني- يزيد في
توضيح هذه الحقيقة، حيث إنها بعد الرواية عن رسول الله
-صلى الله عليه وآله وسلم- تقول:

«لولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً».

ونتساءل: إقامة الجدار حول القبر يمنع عن أي شيء؟
من الثابت أن الجدار يمنع من الصلاة على القبر نفسه وأن
يتخذ وتناً يُعبد، وعلى الأقل لا يكون قبلة يُتوجه إليها.

أما الصلاة بجوار القبر -من دون عبادة القبر أو جعله قبلة
للعباداة- فلا مانع منها، سواء كان هناك حاجز يحجز القبر عن

الرؤية أم لا، وسواء كان القبر بارزاً عن الأرض أم لا، وذلك لأن المسلمين - منذ أربعة عشر قرناً - يُصلّون بجوار قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في حين أنهم يتوجهون إلى الكعبة ويعبدون الله تعالى، فوجود الحاجز لم يمنع من هذا كله.

و الخلاصة: ان تتمّة الحديث الثاني - التي هي من كلام عائشة - تُوضّح معنى الحديث، لأنها تذكر السبب الذي منع من إبراز قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنه للحيلولة دون اتخاذه مسجداً، ولهذا أُقيم الجدار الحاجز حول القبر الشريف. فالحاجز يمنع من شيئين:

١ - من أن يتحوّل القبر إلى وثن يقف الناس بين يديه يعبدونه، فمع وجود الحاجز لا يمكن رؤية القبر فلا يمكن اتخاذه وثناً للعبادة.

٢ - من أن يتخذ قبلة، ذلك لأن اتخاذه قبلة فرع من رؤيته. فإن قال قائل: إن الكعبة قبلة للمسلمين في حين أن أكثر المسلمين لا يرونها وقت العبادة.

فالجواب: لا تصحّ المقارنة والمقايسة بين الكعبة والقبر، لأن الكعبة قبلة عامة وعالمية لجميع المسلمين في كافة أرجاء الكرة الأرضية، وليست قبلة للعبادة فقط، بل للعبادة وغيرها كالذبيحة والدفن وماشابهه، فهي قبلة في جميع الأحوال، ولا علاقة للرؤية فيها بأيّ وجه.

أما اتخاذه قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبلة، فإنما يمكن

للذين يتواجدون في مسجده و يقيمون الصلاة منه، فإبراز القبر الشريف يمهد لهذا الاحتمال - على رأي عائشة طبعاً - بينا مساواته مع الأرض ليس كذلك .

٤ - ومن القرائن الدالة على أن نهي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إنما هو عن عبادة القبور هو أن الكثير من شارحي صحيح البخاري ومسلم فسروا الحديث بمثل ما فسّرناه، وفهموا منه مثل ما فهمناه... فمثلاً:

يقول القسطلاني - في كتاب إرشاد الساري - :

«إنما صوّر أوائلهم الصوّر ليستأنسوا بها وينذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصوّر ويُعظمونها، فحدّر النبي عن مثل ذلك» .

الى أن يقول:

«قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها وآخذوها أوثاناً، مُنع المسلمون في مثل ذلك، فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرُّك بالقرب منه - لا للتعظيم ولا للتوجه إليه - فلا يدخل في الوعيد المذكور» (١) .

(١) إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري. وقد مال الى هذا المعنى ابن حجر - في فتح الباري: ج ٣ ص ٢٠٨ - حيث قال: إن النهي إنما هو عمّا يؤدّي بالقبر الى ما عليه أهل الكتاب، أمّا غير ذلك فلا إشكال فيه.

و ليس القسطلاني منفرداً في هذا الشرح بل يقول به السندي
- شارح السنن للنسائي- حيث يقول:

«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» أي: قبله للصلاة ويُصلّون اليها، أو
بنوا مساجد عليها يُصلّون فيها. ولعل وجه الكراهة أنه قد يُفضى الى
عبادة نفس القبر (١).

ويقول أيضاً:

«يُحذّر (النبي) أمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور
أنبيائهم من اتخاذهم تلك القبور مساجد، إقاً بالسجود اليها تعظيماً
لها، أو يجعلها قبله يتوجهون في الصلاة اليها» (٢).

ويقول النووي- في شرح صحيح مسلم-:

«قال العلماء: إنما نهى النبي عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً، خوفاً
من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك الى الكفر، كما
جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة والتابعون الى
زيادة في مسجد رسول الله-ص- حين كثر المسلمون وامتدّت الزيادة
الى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن
رسول الله-ص- وصاحبيه بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة
حوله، لئلا يظهر في المسجد فيصلّي اليه العوام...»

ولهذا قالت «عائشة» في الحديث: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنه
خُشي أن يتخذ مسجداً».

(١) السنن للنسائي: ج ٢ ص ٤١ مطبعة الأزهر.

(٢) السنن للنسائي: ج ٢ ص ٤١.

و يقول شارح آخر:

«إن حديث عائشة يرتبط بالمسجد النبوي قبل الزيادة فيه، أما بعد الزيادة وإدخال حجرها فيه، فقد بنوا الحجرة بشكل مثلث كي لا يتمكن أحد من الصلاة على القبر..»

إن اليهود والنصارى كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شركاء في العبادة».

أقول: مع هذه القرائن ومع ما فهمه شارح الحديث لابد من القول به، ولا يمكن استنتاج غير ذلك أو الفتوى بغيره.

ومع غض النظر عن هذه القرائن، فإننا نعالج المسألة بما يلي:
أولاً: إن مورد الحديث هو ما إذا كان المسجد مبنياً فوق القبر، فلا علاقة له بالمشاهد المشرفة، لأن المسجد - في كل المشاهد - إنما هو بجوارها لا عليها، بشكل ينفصل أحدهما عن الآخر.
وبعبارة أخرى: هناك حرم وهناك مسجد، فالحرم خاص للزيارة والتوسل إلى الله تعالى بذلك الولي الصالح، والمسجد - بجواره - للصلاة والعبادة، فالمشاهد المشرفة - في هذه الحالة - خارجة عن مفاد الحديث ومعناه - على فرض أن يكون مفاده ما يدعيه الوهابيون - .

وبعد هذا كله... كيف يمكن القول بجرمة بناء المسجد بجوار القبر أو كراهته في حين أننا نرى بأعيننا أن مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقع بجوار قبره الشريف؟!!

إذا كانت الصحابة كالنجوم ويجب الاقتداء بهم، فلماذا لا

يُقتدى بهم في هذا المجال؟! إن أولئك زادوا في المسجد زيادات كثيرة بحيث استقرَّ قبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في وسط المسجد، بعد أن كان المسجد في الجانب الشرقي من القبر الشريف وبسبب الزيادات الكثيرة دخل الجانب الغربي من القبر أيضاً في المسجد.

فاذا كان بناء المسجد بجوار قبور الصالحين حراماً فلماذا أحدث المسلمون هذه الزيادات فيه من جميع أطرافه؟! فهل معنى الاقتداء بـ«السلف» و«السلفية» -التي ينادي بها الوهابيون- هو الاقتداء بهم في موضوع واحد وترك الموارد الأخرى؟!!

ومن هنا نعرف أن ما قاله ابن القيم من «أن القبر والمسجد لا يجتمعان معاً» مخالف لسيرة المسلمين السلف ولا أساس لكلامه من الصحة أبداً.

ثانياً: إن كل ما يستفاد من هذه الأحاديث -على فرض صحتها- هو أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نهى عن بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها، ولكن لا يوجد دليل قطعي يثبت أن هذا النهي هو نهْي تحريمي، بل يحتمل أن يكون نهياً تنزيهياً -وبالاصطلاح- كراهياً، وهذا بالضبط ما استنبطه البخاري في صحيحه حيث ذكر هذه الأحاديث تحت عنوان: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور»(١).

ويشهد لذلك أيضاً أن النهي مقرون بلعن «زائرات القبور» (١).

ومن الثابت أن زيارة القبر للمرأة مكروه - بسبب بعض الأمور - لا حرام.

فاذا كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يلعن زائرات القبور، فلا يدلّ اللعن على الحرمة، لأن كثيراً من المكروهات وردّ اللعن على مرتكبها - في الأحاديث - والهدف من اللعن هو شدّة الكراهية والبُعد عن رحمة الله تعالى، فمثلاً جاء في الحديث:

«لَعَنَ اللهُ ثَلَاثَةَ: آكَلَ زَاوَدَهُ وَحَدَهُ، وَالنَّائِمَ فِي بَيْتِ وَحَدِهِ، وَرَاكِبَ

الْفَلَاةَ وَحَدَهُ».

مع العلم أن هذه الثلاثة ليست محرّمة.

و في ختام هذا الفصل نوّكد على أن بناء المساجد على قبور الصالحين كانت سنّة رابجة في صدر الاسلام.

يقول السمهودي - في حديث ذكر فيه وفاة السيّدة فاطمة بنت أسد أمّ الامام أمير المؤمنين علي - عليه السلام -:

«فَلَمَّا تُوْفِيَتْ خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ - ص - فَأَمَرَ بِقَبْرِهَا فَخُفِرَ فِي مَوْضِعِ الْمَسْجِدِ

الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْيَوْمَ: قَبْرُ فَاطِمَةَ» (٢).

و يقصد السمهودي أن موضع قبر فاطمة بنت أسد تحوّل بعد ذلك الى مسجد. ويقول ايضاً:

(١) السنن للنسائي: ج ٣ ص ٧٧ طبعة مصر.

(٢) وفاء الوفا: ج ٣ ص ٨٩٧ تحقيق محمد محي الدين.

«إن مصعب بن عمير وعبدالله بن جحش دفنا تحت المسجد الذي

بُني على قبر حمزة» (١).

وقد كان ذلك المسجد موجوداً حتى احتلال الوهابيين لهذه
البقاع المقدسة، حيث عمدوا الى هذا المسجد - ومساجد وآثار
كثيرة - فهدموها بمعاول الاستعمار البريطاني الأثيم.

زيارة القبور على ضوء الكتاب والسنة

لقد أفتى علماء الاسلام وفقهاء الشريعة بجواز زيارة القبور -وخاصة قبور الأنبياء والصالحين- استناداً الى مجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وبالإضافة الى الجواز فإنهم أفتوا باستحبابها وفضليلتها.

أما الوهابيون فإنهم - كما يبدو- لا يحرمون أصل الزيارة، بل يحرمون السفر وشدة الرحال الى زيارة قبور الصالحين. فالبحث هنا في مرحلتين:

١ - الزيارة.

٢ - السفر للزيارة.

زيارة القبور

مما لا شك فيه أن زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامة، نشير اليها - مختصراً - فيما يلي:

إن مشاهدة هذا الوادي الهادي الذي يضم في أعماقه مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذه الحياة الدنيا ثم انتقلوا الى الآخرة،

وهم سواء... الغني والفقير، والقوي والضعيف، ولم يصحبوا معهم سوى ثلاث قطع من القماش فقط، إن مشاهدة هذا المنظر يهز الانسان قلباً وروحاً، ويخفف فيه روح الطمع والحرص على الدنيا وزخارفها وشهواتها، ولونظر الانسان اليها بعين الاعتبار لغير سلوكه في هذه الحياة، واعتبر لآخرته، وراح يخاطب نفسه: إن هذه الحياة المؤقتة لابد أن تزول، وإن الفترة التي أعيشها لابد أن تنتهي ويكون مصيري الى حفرة عميقة، تتراكم عليّ تلال من التراب، وهناك الحساب، إماً ثواب وإما عذاب، فلا تستحق هذه الحياة المؤقتة أن يجهد الانسان نفسه من أجل المال والجاه والمنصب، فيظلم هذا ويؤذي ذلك، ويرتكب الجرائم والمنكرات. إن نظرة تأمل الى هذا الوادي الساكن يُرقق القلب مهما كان قاسياً، ويُسمع الانسان مهما كان صُمّاً، ويفتح المعيون مهما كانت حالكة، وكثيراً ما تدفع بالانسان الى إعادة النظر في سلوكه وحياته، والشعور بالمسؤوليات الكبيرة أمام الله تعالى والناس. يقول الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم -:

١ - «زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُدَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ» (١).

بالرغم من أن مسألة زيارة القبور ليست بحاجة الى إقامة الدليل والبرهان على صحتها وضرورتها، ولكننا نضطر الى التحدث عنها لأولئك الذين يتوقفون فيها.

(١) صحيح ابن ماجه: ج ١ ص ١١٣ باب ماجاء في زيارة القبور.

القرآن وزيارة القبور

إن الله تعالى ينهى حبيبه محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم -
عن الصلاة على جنازة المنافق والقيام على قبره، فيقول سبحانه:

«وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ» (١).

فالأية تسعى لهدم شخصية المنافق، وهز العصى
في وجوه حزبه ونظرائه، والنهي عن هذين الأمرين
بالنسبة للمنافق معناه ومفهومه: مطلوية هذين
بالنسبة لغير المنافق.

و الآن يجب أن ننظر في قوله تعالى: «وَلَا تَقُمْ عَلَى

قَبْرِهِ» ما معناه؟

هل المعنى هو القيام وقت الدفن فقط حيث لا يجوز ذلك

للمنافق ويستحب للمؤمن؟ أم المعنى أعم من وقت الدفن وغيره؟

الجواب: بعض المفسرين نظروا الى الآية نظرة ضيقة فقالوا

بالقول الأول، ولكن بعضاً آخرين - كالبيضاوي وغيره - نظروا

اليها نظرة واسعة فقالوا: إن النهي في «لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ» هو عن الدفن

والزيارة. والتدقيق وإمعان النظر في الآية الكريمة يسوقنا الى هذا

المعنى الأعم، وذلك لأن الآية تتشكل من جملتين:

الأولى: لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا.

إن لفظه «أَحَدٍ» بحكم ورودها في سياق النفي تفيد العموم والاستغراق لجميع الأفراد، ولفظة «أَبْدَأُ» تفيد الاستغراق الزمني، فيكون معناها: لا تُصَلِّ على أَحَدٍ من المنافقين في أي وقتٍ كان.

فع الانتباه الى هذين اللفظين نعرف -بوضوح- أن المراد من النهي عن الصلاة على الميت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميت عند الدفن فقط لأنها ليست قابلة للتكرار في أزمته متعددة، ولو أريد ذلك لم تكن هناك حاجة الى لفظه «أَبْدَأُ»، بل المراد من الصلاة في الآية مطلق الدعاء والترحم سواء كان عند الدفن أم غيره.

فإن قال قائل: إن لفظه «أَبْدَأُ» تأكيد للاستغراق الفردي لا الزماني.

فالجواب: ١ - إن لفظه «أَحَدٍ» أفادت الاستغراق والشمول لجميع المنافقين.

٢ - إن لفظه «أَبْدَأُ» تُستعمل في اللغة العربية للاستغراق الزماني، كما في قوله تعالى:

«وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَأُ» (١).

فالنتيجة: إن المقصود هو النهي عن الترحم على المنافق وعن الاستغفار له، سواء كان بالصلاة عليه أو غيرها.

الثانية: «لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

إن مفهوم هذه الجملة - مع الانتباه الى أنها معطوفة على الجملة السابقة - هو: لا تقم على قبر أحدٍ منهم أبداً، لأن كل ما ثبت للمعطوف عليه من القيد - أعني «أبداً» - يثبت للمعطوف أيضاً، ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأن المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن فقط، لأن المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، كما كان بالنسبة للصلاة، ولفظة «أبداً» المقدّرة في هذه الجملة الثانية تفيد إمكانية تكرار هذا العمل، فهذا يدلّ على أن القيام على القبر لا يختصّ بوقت الدفن.

وإن قال قائل: إن لفظة «أبداً» المقدّرة في الجملة الثانية معناها الاستغراق الأفرادي.

قلنا: قد سبق الجواب عليه، وأن لفظة «أحدٍ» للاستغراق الأفرادي، لا لفظة «أبداً» فهي للاستغراق الزماني.

فيكون معنى الآية الكريمة: إن الله تعالى ينهى نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - عن مطلق الاستغفار والترحم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهى عن مطلق القيام على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده.

ومفهوم ذلك هو أن هذين الأمرين يجوزان للمؤمن. وبهذا ثبت جواز زيارة قبر المؤمن و جواز قراءة القرآن على روحه، حتى بعد مئات السنين.

هذا بالنسبة الى المرحلة الاولى وهي أصل الزيارة من وجهة القرآن، وأما بالنسبة اليها من ناحية الأحاديث فإليك بيانها:

الأحاديث الشريفة وزيارة القبور

يستفاد من الأحاديث الشريفة - التي رواها أصحاب الصحاح والسُنن - أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نَهَى عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ نَهْيًا مُؤَقَّتًا لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ، ثُمَّ رَفَعَ النَّهْيَ وَحَبَّدَ إِلَى الزِّيَارَةِ.

ولعلَّ عِلَّةَ النَّهْيِ الْمُؤَقَّتِ هِيَ أَنَّ الْأَمْوَاتَ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَعَبَدَةَ لِلْأَصْنَامِ، وَقَدْ قَطَعَ الْإِسْلَامُ كُلَّ الْعَلَاقَاتِ مَعَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ، فَهِيَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنْ زِيَارَةِ الْأَمْوَاتِ (١).

وَيَحْتَمِلُ أَنَّ تَكُونَ الْعِلَّةَ شَيْئًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، فَكَانُوا يَنْوَحُونَ عَلَى قُبُورِ مَوْتَاهُمْ نِيَاحَةً بَاطِلَةً تُخْرِجُهُمْ عَنِ نِطَاقِ الشَّرِيعَةِ، وَلَمَّا تَمَرَّكَزَ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَنْسُوا بِالشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ، أُلْغِيَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى النَّهْيَ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، لَمَّا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ الْحَسَنَةِ وَالنَتَائِجِ الطَّيِّبَةِ، وَلِهَذَا رَوَى أَصْحَابُ الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ أَنَّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:

٢ - «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُرْهِدُ فِي الدُّنْيَا وَ

تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» (٢).

(١) وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْإِحْتِمَالَ مَا كَانَ يَقُولُهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عِنْدَ زِيَارَتِهِ لِأَهْلِ الْقُبُورِ:

«دَارُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ.

(٢) السُّنَنِ لِابْنِ مَاجَةَ: ج ١ ص ١١٤ طَبْعَةُ الْهِنْدِ بَابُ مَا جَاءَ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ، صَحِيحٌ

و على هذا الأساس كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يزور قبر أمه السيدة آمنة بنت وهب - رضوان الله عليها - وكان يأمر الناس بزيارة القبور، لأن زيارتها تُذكر بالآخرة.

وقد روى مسلم في صحيحه:

٣ - «زَارَ النَّبِيُّ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مِنْ حَوْلِهِ... وَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أُزَوِّرَ قَبْرَهَا، فَأُذِنَ لِي، فَزَوَّرُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْمَوْتَ» (١).

وقالت عائشة:

٤ - «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَخَّصَ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ» (٢).

وقالت: إن النبي قال:

الترمذي: أبواب الجنائز ج ٣ ص ٢٧٤ المطبوع مع شرح ابن العربي المالكي.

يقول الترمذي - بعد نقل هذا الحديث عن بريدة -: «حديث بريدة صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم، ولا يرون بزيارة القبور بأساً، وهو قول ابن المبارك والشافعي وإسحاق». وفي هذا المجال يحسن مراجعة المصادر الآتية:

١ - صحيح مسلم: ج ٣ باب استئذان النبي ربه عزوجل في زيارة قبر أمه ص ٦٥.

٢ - صحيح أبي داود: ج ٢ كتاب الجنائز باب زيارة القبور ص ١٩٥.

٣ - صحيح مسلم: ج ٤ كتاب الجنائز باب زيارة القبور ص ٧٣.

(١) سنن أبي داود: ج ٢ كتاب الجنائز ص ١٩٥ طبعة مصر، صحيح مسلم: ج ٣ ص ٦٥

باب استئذان النبي ربه عزوجل في زيارة قبر أمه، صحيح ابن ماجه: ج ١ ص ١١٤.

أقول: إن السبب الذي يذكرونه لا استئذان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بزيارة قبر أمه هو - كما يزعمون - لأن أمه كانت مشركة، ولكن الثابت الذي لا ريب فيه هو أن أم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كانت كآبائه وأجداده من أهل الإيمان والتوحيد، من هنا فإن هذا التوجيه والتفسير مخالف بالكامل لأصول العقيدة الإسلامية ويمكن أن يكون له تفسير آخر.

(٢) صحيح ابن ماجه: ج ١ ص ١١٤.

٥ - «فَأَمَرَنِي رَبِّي أَنْ آتِيَ الْبَقِيعَ فَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

قلت: كَيْفَ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قال: قَوْلِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، يَرْحَمُ

اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ

لَا حِثُونَ» (١).

وجاء في أحاديث أخرى نصّ الكلمات التي كان رسول

الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يقولها عند زيارة القبور، وهي:

٦ - «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا وَإِنَّا كُمْ مُتَوَاعِدُونَ غَدًا

وَمَوَاكِلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَا حِثُونَ، اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ

الْفَرَقْدِ» (٢).

وجاء في حديث آخر نصّ الكلمات بما يلي:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ

اللَّهُ بِكُمْ لَا حِثُونَ، أَنْتُمْ لَنَا قَرُوبٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ، أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ لَنَا

وَلَكُمْ» (٣).

وفي حديث ثالث:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ

لَا حِثُونَ» (٤).

(١) صحيح مسلم: ج ٣ ص ٦٤ باب ما يقال عند دخول القبور، السنن للنسائي: ج ٣

ص ٧٦.

(٢) السنن للنسائي: ج ٤ ص ٧٦ - ٧٧.

(٣) السنن للنسائي: ج ٤ ص ٧٦ - ٧٧.

(٤) السنن لأبي داود: ج ٢ ص ١٩٦.

و يستفاد من حديث عائشة أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يخرج الى البقيع في آخر الليل من كل ليلة، ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَنَا كُمْ مَا تُوعَدُونَ وَعَدَاءُ مُوجِلُونَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ» (١).

و يستفاد من حديث آخر أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ويُعلمهم كيفية الزيارة: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُعَلِّمُهُمْ -إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ- فَكَانَ قَائِلُهُمْ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ -أَوْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَاقِبَةَ» (٢).

النساء وزيارة القبور

المسألة الأخيرة التي ينبغي التحدث عنها هي: زيارة النساء للقبور، وقد روي في بعض الأحاديث أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- نهى عن زيارة النساء للقبور: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ زَوَارِبَ الْقُبُورِ» (٣).

ولكن يجب الانتباه الى أن تحريم النساء من زيارة القبور -استدللاً بهذا الحديث- غير صحيح، وذلك لعدة أمور:

-
- (١) صحيح مسلم: ج ٣ ص ٦٣ باب ما يقال عند دخول القبر .
 - (٢) صحيح مسلم: ج ٣ ص ١١ باب ما يقال عند دخول القبر .
 - (٣) صحيح ابن ماجه: كتاب الجنائز ج ١ ص ٤٧٨ الطبعة الأولى بمصر.

الأول: إن كثيراً من العلماء يعتبرون هذا النهي نهي تنزيه وكرامة، وقد جاءت الكراهة لأسباب خاصة بذلك الزمان، يشير إليها صاحب كتاب «مفتاح الحاجة في شرح صحيح ابن ماجه» فيقول:

«اختلفوا في الكراهة هل هي كراهة تحرم أو تنزيه؟ ذهب الأكثر إلى

الجواز إذا أمّنت الفتنة» (١).

الثاني: لقد مرّ عليك - في حديث عائشة - أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رخص في زيارة القبور (٢).

فلو كان الترخيص خاصاً بالرجال لكان اللازم أن تذكر عائشة ذلك، خاصة وأنها من النساء، ومن الطبيعي أن النساء كنّ يتواجدن في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكان كلّ مخاطب يعتبر نفسه مشمولاً للحكم إلا إذا صرح بالاستثناء. ثالثاً: وقد مرّ عليك أيضاً أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - علّم عائشة ما ينبغي قوله عند زيارة القبور (٣) وكانت عائشة تزور القبور بعد رسول الله.

رابعاً: يروي الترمذي أنه لما مات عبدالرحمان بن أبي بكر - شقيق عائشة - في «الجنتي» حملوا جثمانه إلى مكة ودفنوه فيها، ولما جاءت عائشة إلى مكة - من المدينة - خرجت لزيارة قبر أخيها

(١) حواشي صحيح ابن ماجه: ج ١ ص ١١٤ طبعة الهند.

(٢) راجع الحديث رقم ٤.

(٣) راجع الحديث رقم ٥.

وأشدت بيتين من الشعر في رثائه (١).

يقول شارح صحيح الترمذي - الحافظ ابن العربي المولود سنة ٤٣٥ هـ والمتوفى سنة ٥٤٣ هـ :

«الصحيح أن النبي -ص- سمح للرجال والنساء بزيارة القبور، والذي يقول بالكراهة فإنما هو بسبب جزعهن عند القبر وقله صبرهن، أو لعدم رعابتهن للحجاب».

خامساً: يروي البخاري عن أنس أنه قال:

«مرّ النبي -ص- بامرأة تبكي عند قبر، فقال: إتقي الله واصبري.

قالت: اليك عتي فإنك لم تُصب بمصيبتي، ولم تعرفه.

فقبل لها: إنه النبي! فأنت باب النبي... فقالت: لم أعرفك!

فقال -ص-: إنما الصبر عند الصدمة الأولى (٢).

فاذا كانت زيارة القبور محرمة لأنها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن الزيارة، ولكنك ترى أنه -صلى الله عليه وآله وسلم- أوصاها بالتقوى والصبر عند المصيبة، ولم ينهها عن زيارة المقابر.

سادساً: إن السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كانت تخرج إلى زيارة قبر عمّها حمزة -في كلّ جمعة أو أقلّ من ذلك - وكانت تصلي عند قبره وتبكي (٣).

(١) صحيح الترمذي: ج ٤ كتاب الجنائز باب ما جاء في زيارة القبور ص ٢٧٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز ج ٢ ص ٧٩ باب زيارة القبور.

(٣) مستدرک الصحیحین: للحاکم ج ١ ص ٢٧٧، وفاء الوفا: ج ٢ ص ١١٢.

سابعاً: يقول القرطبي:

«لم يلعن النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلم- كل امرأة تزور القبور، بل لعن المرأة التي تزور القبور دوماً، والدليل على ذلك قوله -ص:- «زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ» وكلمة «زَوَّار» هي صيغة المبالغة، وتدل على الكثرة والتكرار» (١).

ولعلّ العلة في لعن «زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ» هي أن الإكثار منها يؤدي إلى ضياع حق الزوج ويجرّها إلى التبرج المنهي عنه، ويكون مصحوباً بالبكاء بصوت عالٍ، ولكن لو كانت الزيارة خالية عن كل محذور فلا إشكال فيها أبداً، لأنّ تذكّر الموت والآخرة ممّا يحتاج إليه الرجل والمرأة على السواء.

ثامناً: إن زيارة القبور -في الوقت الذي تؤدي إلى الزهد في الدنيا وزخارفها- تعود بالنفع على الميت الراقد تحت أكوام التراب، إذ أن الزيارة -عادة- تكون مقرونة بتلاوة سورة الفاتحة وإهدائها إلى روح ذلك الميت، وهذه الهدية هي أفضل ما يقدمها الإنسان الحي إلى روح فقیده الغالي.

يروى ابن ماجه عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال:

«إفْرَأُوا «يس» عَلَى مَوْتَاكُمْ» (٢).

(١) جاء في سنن أبي داود: «زائرات» بدل «زَوَّارَاتِ».

(٢) صحيح ابن ماجه: حديث ١٤٤٨.

فما هو الفرق بين الرجل والمرأة-من هذه الجهة- حتى تكون زيارة أحدهما جائزة والأخرى محرمة، لولا المحذورات الخاصة المذكورة؟!

و الآن... وبعد أن ثبت جواز زيارة القبور، جاء دور التحدث عن الآثار الحسنة والنتائج الايجابية لزيارة مراقد أولياء الله الصالحين، وذلك في الفصل القادم.

النتائج البناءة

لزيرة قبور الشخصيات الدينية

إن القبور التي تحظى باهتمام واحترام المؤمنين بالله في العالم -وخاصة المسلمين- هي في الغالب قبور حَمَلَة الرسالات الاصلاحية الذين أدوا مهمتهم على الوجه المطلوب.

وهؤلاء ينقسمون الى ثلاثة أقسام:

١ - الأنبياء والقادة الدينيون الذين حملوا على عاتقهم رسالة السماء وضحووا- من أجلها- بالنفس والمال والأحباب، وتحملوا أنواع المتاعب والمصاعب من أجل هداية الناس.

٢ - العلماء والمفكرين الذين كانوا كالشمعة تُحرق نفسها لتضيء للآخرين، وقد عاش هؤلاء حياة الزهد والحرمان، وقدموا للعالم البحوث القيمة والتحقيقات الرائعة في مجالات العلم والفكر والطبيعة ومفاهيم السماء وعلوم الكون والمخلوقات وغير ذلك.

٣ - المجاهدون الثائرون الذين ضاقوا ذرعاً مما يعيشه المجتمع من الظلم وسحق الحقوق والتمييز العنصري أو القومي، فناروا ضد الظلم والطغيان وطالبوا بحفظ كرامة الانسان وأداء حقوقه،

وأقاموا صرح العدالة بدمائهم الغالية.

إن أية ثورة أو تغيير اجتماعي لا يقدر له النجاح إلا بدفع الثمن، وإن ثمن الثورة التي تستهدف تدمير قصور الظالمين وخنق أنفاسهم هو الدماء الزكية التي يُضحّي بها المقاتلون الأبطال لإعادة الحق والحريّة الى الوطن الاسلامي.

إن الناس يزورون قبور هؤلاء ويذرفون عندها الدموع، ويتذكرون بطولاتهم وتضحياتهم، ويُسعدون أرواحهم بتلاوة آيات من القرآن الحكيم هدية اليهم، ويُنشدون قصائد في مدحهم وثنائهم وتقدير مواقفهم المشرفة.

إن زيارة مرآد هذه الشخصيات هي نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأن هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة. إن جزاءهم هو خلود الذكر، الذكر الحسن و الثناء الجميل، بالرغم من مرور الزمان على وفاتهم.

من هنا نعرف ضرورة إحياء ذكريات الشخصيات الدينية، وعلى هذا الأساس ينبغي العمل على إبقاء ذكرياتهم حيّة ساخنة، والمحافظة على آثارهم، وإقامة المهرجانات في ذكرى مواليدهم، والحداد والحفلات التأسيسية في ذكرى وفياتهم، وعقد المجالس والاجتماعات الكبرى، وإلقاء الخطب المفيدة، وتعريف الناس على تلك الشخصيات الراقية وعلى معتقداتهم التي ضحوا من أجلها، واحترام مرآدهم وتجنب كل ما يمس بكرامتها، لأن

احترام قبورهم احتراماً لرسالاتهم وعقائدهم، كما أنّ أي نوع من الإهانة و التحقير تجاه مراقدهم هو في الحقيقة إهانة لرسالاتهم وتحقير لشخصيتهم.

في هذه الأيام عندما يدخل الانسان في مقبرة البقيع لزيارة قبور آل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وقبور قادة الاسلام وحماة الدين والصحابة، يرى تلك القبور في حالة يرثى لها من الإهانة والتصغير، مما يهتزله الضمير وتأخذه الدهشة من قساوة قلوب الزمرة الوهابية التي تدّعي حماية الاسلام وصيانتها، حيث انهم -من جانب- يذكرون الصحابة بالخير والتمجيد ويشنون عليهم على المنابر، ومن جانب آخر يتركون قبورهم عارية عن كلّ احترام وتكريم، وفي حالة فظيعة من الإهانة والإهمال، ولا يُبالون حتى لو أفسدت الحيوانات أطراف قبورهم!!.

أما لفظه «الشرك» و «المشرك» فهي الهدية الوحيدة التي يُقدّمها الوهابيون الى الحجاج والزائرين، يرمونهم بهذه الكلمات لأن المسلمين يُعظمون قادة الدين ويُمجّدون أولياء الله الصالحين، فكأن الوهابيين يُضمّرون الحقد والبغضاء لأولياء الله وقادة دينه. و الآن جاء دور التحدّث عن زيارة مرقد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على ضوء الأدلة الاسلامية:

زيارة قبر الرسول الأعظم

فيما يلي نستعرض بعض الآيات القرآنية والأحاديث

الشريفة التي تدعو الى زيارة قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ونرجو من القارىء المزيد من التوجه والانتباه.

شهادة من القرآن

إن القرآن الكريم يأمر المذنبين بأن يحضروا عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويسألوا منه أن يستغفر الله لهم، لأن دعاء النبي يُستجاب فيهم، فيقول عز وجل:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (١).

لو كانت هذه الآية هي الوحيدة في هذا المجال، لذهبنا الى القول بأنها خاصة بحياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وفترة تواجده بين الناس، ولكننا نستخلص حكماً عاماً شاملاً لا يحده بالحياة الدنيوية وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: إن القرآن الكريم يُصرِّح بحياة الأنبياء والأولياء -وجماعات أُخرى- في البرزخ (٢) ويعتبرهم مُبصرين وسامعين في ذلك العالم، وسوف نشير الى تلك الآيات عند التحدث عن التوسل بالأرواح المقدسة.

ثانياً: إنَّ الاحاديث الشريفة تُصرِّح بأن الملائكة تُبلِّغ خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وآله وسلم - سلاماً من يُسَلِّم عليه، فقد

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) البرزخ: الحياة بعد الموت.

جاء في الصحاح:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي

حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ» (١).

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» (٢).

ثالثاً: إن المسلمين -منذ ذلك اليوم- فهموا من هذه الآية معنى مطلقاً لا ينتهي بموت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى أن بعض الأعراب -بوحى من أذهانهم الخالصة من كل شائبة- كانوا يقصدون قبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ويزورونه ويتلون هذه الآية عند قبره المقدس ويطلبون منه الاستغفار لهم.

وقد ذكره تقي الدين السبكي في كتاب «شفاء السقام» والسمهودي في كتاب «وفاء الوفا» نماذج من زيارة المسلمين لقبر رسول الله وتلاوة هذه الآية عند قبره الشريف، وفيما يلي نذكر بعض تلك النماذج:

روى سفيان بن عنبير عن العتبي -وكلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته- أنه قال: كنتُ جالساً عند قبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فجاء أعرابي فقال:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا

(١) سنن أبي داود: ج ١ كتاب الحج باب زيارة القبور ص ٤٧٠-٤٧١.

(٢) التاج الجامع للاصول في أحاديث الرسول: بقلم الشيخ منصور علي ناصف ج ٢

أَنْفُسَهُمْ جَاؤَكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَاباً
رَحِيماً» وَقَدْ جِئْتُكَ مُسْتَغْفِراً مِنْ ذَنْبِي، مُسْتَشْفِعاً بِكَ إِلَيَّ رَبِّي». .
ثم بكى و أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنت في القاع اعظمه

فطاب من طيبين القاع والاكُم

نفسى الفداء لقبير أنت ساكنه

فيه العفاك وفيه الجود والكرم

ثم استغفروا وانصرف (١).

ويروي أبو سعيد السمعي عن الامام علي بن أبي طالب
-عليه السلام- أن أعرابياً جاء بعد ثلاثة أيام من دفن رسول الله
-صلى الله عليه وآله وسلم- فرمى بنفسه على القبر الشريف وحثا
من ترابه على رأسه وقال:

«يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله ما وعينا عنك،

و كان فيما أنزله عليك: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...» وقد ظلمت

نفسى وجئتك تستغفري الى ربى» (٢).

إن كل هذا يدل على أن المنزلة الرفيعة التي منحها الله تعالى
لحبيبه المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- كما صرحت بها هذه
الآية ليست خاصة بحياته، بل تؤكد على أنها ثابتة له بعد وفاته أيضاً.

(١) وفاء الوفا: ج ٤ ص ١٣٦١، الدرر السنية: لأحمد دحلان ص ٢١.

(٢) الجواهر المنظم: لابن حجر، وذكره السهودي في وفاء الوفا: ج ٢ ص ٦١٢، ودحلان

في الدرر السنية: ص ٢١.

وبصورة عامة... يعتبر المسلمون كل الآيات النازلة في تعظيم رسول الله واحترامه، عامة لحياته وبعد مماته، وليس هناك من يُخصّصها بحياته -صلى الله عليه وآله وسلم- .

وقد جاء في التاريخ: لما استشهد الامام الحسن بن علي -عليهما السلام- وجيء بجثمانه الطاهر الى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ظنّ بنو أمية أن بني هاشم يريدون دفن الامام بجوار قبر جدّه المصطفى، فأثاروا الفتنة والضجة للحيلولة دون ذلك، فتلا الامام الحسين -عليه السلام- قوله تعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» (١).

ولم يردّ عليه أحد -حتى من الأمويين- بأن هذه الآية خاصة بحياة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- .

و اليوم ترى الوهابيين قد كتبوا هذه الآية ونصبوها على الجدار المقابل لقبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهم يقصدون بذلك المنع من رفع الأصوات هناك .

من هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج من هذه الآية معنى واسعاً عامّاً، وهو أن للمسلمين اليوم أن يقفوا أمام قبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ويسألوا منه أن يستغفر الله لهم .

وليس لزيارة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- معنى سوى ما تضمّنته هذه الآية وأمثالها .

إن هذه الآية تدلّ على موضوعين هما:

١ - إن للانسان أن يقف عند قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد وفاته ويسأل منه أن يستغفر الله له. ولنا بحث حول هذا الموضوع عند البحث عن التوسل بأولياء الله إن شاء الله تعالى.

٢ - إن هذه الآية تشهد على جواز زيارة قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأن حقيقة الزيارة لا تعني سوى «حضور الزائر عند المزمور» فإذا كان الوقوف عند قبر النبي والسؤال منه أن يستغفر الله لنا جائزاً فقد تحقق أمران:

١ - سألنا منه أن يستغفر الله لنا.

٢ - حضرنا عنده وتحدثنا اليه، والزيارة ليست إلا هذا.

إستدلال آخر

إن إجماع المسلمين على حُكم من الأحكام الشرعية في العصور المختلفة يُعتبر أوضح دليل على صحة ذلك الحكم وثباته، وزيارة قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هي من مصاديق هذه القاعدة، وتظهر لنا حقيقة الأمر لو راجعنا كتب الحديث والفقه والأخلاق والتاريخ، وخاصة «مناسك الحج» فيها.

وقد ذكر المرحوم العلامة الأميني استحباب زيارة قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من اثنين وأربعين مصدراً من المصادر العلمية الاسلامية، وقد أورد في كتابه الغدير - ج ٥ ص ١٠٦ الى ص ١٢٩ - النصوص والعبارات الخاصة بهذا الموضوع بدقة

متناهية، ومن الكتب التي اعتمدنا عليها في هذا المجال هي كالاتي:

- ١ - شفاء السقام في زيارة خير الأنام بقلم تقي الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٠٦هـ، وقد ذكر في كتابه هذا جملة من كلمات العلماء في استحباب الزيارة استحباباً مؤكداً.
- ٢ - وفاء الوفا بقلم السمهودي - المتوفى ٩١١هـ - وقد ذكر فيه أيضاً كلمات العلماء في استحباب الزيارة.
- ٣ - الفقه على المذاهب الأربعة تأليف أربعة من علماء المذاهب الأربعة، وقد جمعوا فيه فتاوى أئمة المذاهب الأربعة المشهورة عند السنة. يقول هؤلاء:

«زيارة قبر النبي أفضل المندوبات، ورَدَّ فيها أحاديث» (١).

و الآن... حان الوقت لذكر بعض الأحاديث التي رواها المحدثون حول زيارة قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -:

الأحاديث الشريفة حول زيارة قبر الرسول

إنَّ الأحاديث الشريفة - التي رواها المحدثون من أهل السنة حول زيارة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - على حدِّ تغنيا عن التحقيق في سندها ورؤاها، بسبب كثرتها وتواترها، وقد سجّلها الحفاظ - من جميع المذاهب الإسلامية - في كتبهم وصحاحهم، وهي بمجموعها تدلّ على أن زيارة قبر رسول الله

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج ١ ص ٥٩٠.

- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كانت من المستحبات الثابتة لديهم، ولو أردنا أن نذكر كل تلك الأحاديث لطال بنا المقام، ونكتفي بذكر بعضها فيما يلي:

١ - عن عبدالله بن عمر: أن رسول الله «ص» قال:

«مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي».

جاء هذا الحديث في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٥٩٠، وقد أفتى علماء المذاهب الأربعة وفقاً لهذا الحديث، للاطلاع على مصادره راجع كتاب وفاء الوفا ج ٤ ص ١٣٣٦. ومما لا شك فيه أن حديثاً يرويه الحفاظ والعلماء منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتى هذا اليوم لا يمكن أن يكون مُزَوَّراً لا أساس له.

وقد تناول الشيخ تقي الدين السبكي البحث عن هذا الحديث وأسناده ورواته في كتابه القيم: شفاء السقام (١) وأثبت صحة هذا الحديث وصوابه.

٢ - قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -:

«مَنْ جَاءَ فِي زَائِرًا «لَا تَحْمِلُهُ» إِلَّا زَائِرًا، كَانَ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ شَفِيعًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقد ذكر هذا الحديث ستة عشر حافظاً ومُحدِّثاً في كتبهم، وقد تحدَّث تقي الدين السبكي - في كتابه المشار إليه - حول

(١) ص ٣ الى ١١، وهذا الكتاب هو خير ما كُتب في أهل السنة ضد ابن تيمية حول تحريمه السفر لزيارة قبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أسناده ورواته، وكذلك ذكره السمهودي في كتابه وفاء الوفا ج٤ ص ١٣٤٠.

٣- قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- :

«مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ وَلَمْ يَزْرَتْنِي فَقَدْ جَفَانِي».

وقد روى هذا الحديث تسعة من كبار الشيوخ وحفاظ الحديث، وذكرهم بالتفصيل السمهودي في كتابه ج٤ ص ١٣٤٢.

٤- قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- :

«مَنْ حَجَّ فَرَزَقْبَرِي بَعْدَ وَفَاتِي كَانَ كَمَنْ زَارَنِي فِي حَيَاتِي».

وقد روى هذا الحديث خمسة وعشرون شخصاً من أشهر المحدثين والحفاظ في كتبهم ومؤلفاتهم، وقد تحدت تقي الدين السبكي في كتابه المذكور حول سند هذا الحديث، كما ذكره السمهودي في كتابه ج٤ ص ١٣٤٠.

٥- قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- :

«مَنْ زَارَ قَبْرِي «أَوْ: مَنْ زَارَنِي» كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً».

وقد روى هذا الحديث ثلاثة عشر من المحدثين والحفاظ، وذكرهم السمهودي في كتابه ج٤ ص ١٣٤٧.

٦- قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- :

«مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي».

كانت هذه نماذج من الأحاديث الكثيرة التي رويت عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في دعوة الناس الى زيارة قبره

الشريف والتحريرض عليها، وقد أحصى^١ المرحوم الشيخ الأميني - في كتاب الغدير- اثنين وعشرين حديثاً حول هذا الموضوع، وذكر السمهودي - في كتابه ج ٤ ص ١٣٣٦ - سبعة عشر حديثاً وتحديث عن أسنادها ورواتها بما لا مزيد عليه.

فاذا كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- قد دعا الناس الى زيارة قبره الشريف فإنما هو لما فيها من النتائج والآثار والفوائد المادية والمعنوية المقرونة بزيارته وزيارة سائر الشخصيات الدينية. إن المسلمين - بسبب زيارة قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- يتعرفون على مركز الاسلام وعلى الحوادث التي حدثت وتحدث فيه، ومن هناك يكتسبون العلوم والمعارف الاسلامية ويحملونها معهم الى أطراف الكرة الأرضية.

أدله^٢ الوهابيين على حرمة السفر لزيارة القبور إن الوهابيين - على ما يبدو- يُجوزون أصل الزيارة، ولكنهم يحرّمون السفر بهدف الزيارة. يقول محمد بن عبد الوهاب - في الرسالة الثانية من رسائل الهدية السنية -:

«تُسَنُّ زيارة النبي -ص- إلا أنه لا يُشَدُّ الرحال إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه».

و الدليل الذي يتمسكون به في تحريم الزيارة هو الحديث المذكور في صحاحهم عن أبي هريرة!! أنه قال: قال رسول الله:

«لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا وَمَسْجِدِ

الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى».

و روي هذا الحديث بصورة أخرى وهي:

«إِنَّمَا يُسَافَرُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ وَمَسْجِدِي وَمَسْجِدِ

إِبِلِيَا».

و روي أيضاً بصورة ثالثة وهي:

«تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ...» (١).

لا شك في وجود هذا الحديث في الصحاح، ولسنا الآن في مقام مناقشة الحديث، لكون أبي هريرة في طريقه، بل مقصودنا هو مفاد الحديث.

ولنفرض أن نصَّ الحديث هو: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ...» فن الثابت أن «إِلَّا» هي أداة الاستثناء ولا بد من وجود المستثنى منه، ويجب تحديده، وبما أنه مفقود في النص فلا بد من تقديره في الكلام، وقبل الإشارة الى القران الموجودة يمكن تقدير المستثنى منه في صورتين:

١ - لا تُشَدُّ إِلَى مَسْجِدٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَسَاجِدَ...

٢ - لا تُشَدُّ إِلَى مَكَانٍ مِنَ الْأَمْكِنَةِ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ...

إن فهم الحديث والوقوف على معناه يتوقف على أحد هذين

(١) أورد مسلم هذه الأحاديث الثلاثة في صحيحه ج ٤ كتاب الحج باب لا تشد الرحال

ص ١٢٦، وذكره أبو داود في سننه ج ١ كتاب الحج ص ٤٦٩، وكذلك النسائي في سننه

المطبوع مع شرح السيوطي ج ٢ ص ٣٧-٣٨.

التقديرين، فإن اخترنا التقدير الأول كان معنى الحديث عدم شد الرحال الى أي مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شد الرحال الى أي مكان حتى لو لم يكن مسجداً. فلا يشمل النهي من يشد الرحال لزيارة الأنبياء والأئمة الطاهرين والصالحين، لأن موضوع البحث هو شد الرحال الى المساجد - باستثناء المساجد الثلاثة المذكورة - وأما شد الرحال الى زيارة المشاهد المشرفة فليس مشمولاً للنهي ولا داخلاً في موضوعه. هذا على التقدير الأول.

وأما على التقدير الثاني فلازمه أن تكون كافة السفرات المعنوية - ما عدا السفر الى المناطق الثلاث المذكورة - محرمة، سواء كان السفر من أجل زيارة المسجد أو زيارة مناطق أخرى. ولكن القرائن والدلائل تشير الى أن التقدير الأول هو الصحيح، بناءً على صحة سند الحديث واعتباره.

أما القرائن على صحة التقدير الأول فهي كالآتي:
أولاً: لأن المساجد الثلاثة هي المستثناة، والاستثناء هنا متصل - كما هو واضح - فلا بد أن يكون المستثنى منه هو: المساجد لا المكان (١).

ثانياً: لو كان الهدف هو منع كافة السفرات المعنوية لما صحَّ

(١) لو قال قائل: ما جاء إلا زيد، فالمستثنى منه - في هذا الجملة - هو: الانسان أو القوم أو ماشابه ذلك، وليس المستثنى منه كلمة عامة كالشيء والموجود، سواء كان إنساناً أو غيره.

الحصر في هذا المقام، لأن الانسان يشد الرحال في موسم الحج للسفر الى «عرفات» و «المشعر» و «منى» فلو كانت السفرات الدينية - لغير المساجد الثلاثة - محرمة، فلماذا يُشد الرحال الى هذه المناطق؟!

ثالثاً: لقد أشار القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة الى بعض الأسفار الدينية، وجاء التحريض عليها والترغيب فيها، كالسفر من أجل الجهاد في سبيل الله وطلب العلم وصلة الرحم وزيارة الوالدين وماشابه ذلك. فمن ذلك قوله تعالى:

«فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (١).

و لهذا فقد فسّر كبار الباحثين والمحققين الحديث المذكور بما أشرنا اليه، فمثلاً يقول الغزالي - في كتاب إحياء العلوم -:

«القسم الثاني: وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد... ويدخل في جلته: زيارة قبور الأنبياء - عليهم السلام - وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يُتبرك بمشاهدته في حياته يُتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله -ص-: «لا تُشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» لأن ذلك في المساجد، فانها متماثلة [في الفضيلة] بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان

يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم

عند الله» (١).

من هنا... فإن المنهية عنه - في هذا الحديث - هوشد الرحال الى غير المساجد الثلاثة، من المساجد الأخرى، ولا علاقة له بالسفر للزيارة أو لأهداف معنوية أخرى.

وفي الختام: لابتدء من الاشارة الى أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما قال: «لا تُشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد...» فإنه لا يعني أن شد الرحال الى المساجد الأخرى حرام، بل معناه أن المساجد الأخرى لا تستحق شد الرحال اليها، وتحمل مشاق السفر من أجل زيارتها، لأن المساجد الأخرى لا تختلف - من حيث الفضيلة - مع الآخر اختلافاً كبيراً (٢) فالمسجد - سواء كان في المدينة أو في القرية أو في المنطقة - لا يختلف مع الآخر اختلافاً كبيراً، وعليه فلا داعي الى أن يشد الانسان الرحال اليه، أمّا اذا شد الرحال اليه فليس عمله هذا حراماً ولا مخالفاً للسنة الشريفة.

ويدل عليه ما رواه أصحاب الصحاح والسُنن:

«كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يأتي مسجد قنبا راكباً

(١) كتاب إحياء علوم الدين للغزالي: ج ٢ ص ٢٤٧ كتاب آداب السفر طبعة دارالمعرفة

بيروت، الفتاوى الكبرى: ج ٢ ص ٢٤.

(٢) إلا مسجد الكوفة وحائر الحسين - عليه السلام - فقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة،

ولا يخفى أن المساجد الأخرى تختلف في الفضيلة - كمسجد السوق والقبيلة - إلا أن الاختلاف ليس كبيراً.

وما شيئاً فيصلّي فيه ركعتين» (١).

ولنا أن نتساءل: كيف يمكن أن يكون شدّ الرحال وقطع المسافات من أجل إقامة الصلاة - مخلصاً لله - في بيتٍ من بيوته سبحانه حراماً ومنهياً عنه؟!
إذا كانت الصلاة في المسجد مستحبة فإن الظاهر أن مقدمة المستحب مستحبة أيضاً.

(١) صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٢٧. وراجع في هذا المعنى صحيح البخاري: ج ٢ ص ٧٦،

السُنن للنسائي المطبوع مع شرح السيوطي: ج ٢ ص ٣٧.

إقامة الصلاة والدعاء

عند قبور الأولياء

من المسائل التي يُثيرها الوهابيون كثيراً - في كتبهم وغيرها - هي إقامة الصلاة والدعاء عند قبور أولياء الله الصالحين وإضاءة المصابيح عندها.

يقول مؤسس الوهابية في رسالة «زيارة القبور»:

«لم يذكر أحدٌ من أئمة السلف أن الصلاة عند القبور وفي مشاهدتها مستحبة، ولا أن الصلاة والدعاء هناك أفضل، بل اتفقوا كلُّهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين» (١).

وجاء في الجواب المنسوب الى علماء المدينة:

«أما التوجه الى حجرة النبي -ص- عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب، ولأن أفضل الجهات جهة القبلة».

وقد تجاوزت هذه المسألة - على مرَّ الزمان - مرحلة المنع الى

مرحلة الشرك ، حتى أنهم يعتبرون ذلك شركاً وكلّ من يفعل ذلك مشركاً!!

طبعاً ممّا لا شكّ فيه أن الصلاة لصاحب القبر وعبادته، أو جعله قبله في الصلاة يُعتبر شركاً، ولكن ليس على وجه الأرض مسلم يفعل ذلك عند قبور الأنبياء والأولياء، فليس هناك من يعبد صاحب القبر أو يتوجّه إليه في الصلاة، لهذا فإن فكرة الشرك هذه ليست سوى وهماً وخيالاً يتخبّط فيه الوهابيون.

إنّ هدف المسلمين من إقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء هو التبرُّك بذلك المكان الذي احتضن حبيباً من أحبّاء الله، فهم يعتقدون أن ذلك المكان يتمتّع بمنزلة سامية لكونه يضمّ جسد عزيزٍ من أعزّاء الله، ولذلك فالصلاة والدعاء هناك يعود بثواب أكثر على فاعله.

و السؤال الذي تجب الاجابة عليه هو: هل دفن الأولياء في مكان ما، يمنح قدسيّة خاصّة لذلك المكان أم لا؟

فان ثبت ذلك -بدليل من القرآن أو الأحاديث- كانت إقامة الصلاة والدعاء عند مراقدة قادة الاسلام مستحبة ومقرونة بثواب اكثر، وحتى لو لم يثبت ذلك فلا يمكن القول بجرمة الصلاة والدعاء في ذلك المكان، بل يكون كسائر الأماكن الأخرى التي يجوز فيها إقامة الصلاة والدعاء حتى لو لم تتمتع بأية فضيلة.

فحديثنا الآن يدور حول هذا الموضوع بالذات، هل أن لمشاهد الأولياء ومدفهم شرفاً وفضيلة خاصة؟

وهل هناك ما يدلّ عليه في القرآن أو الأحاديث؟

الجواب فيما يلي:

١ - في قصة أصحاب الكهف، سبق أن ذكرنا بأن المؤمنين

الموحّدين قالوا - في شأن مدفنهم -:

«لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

إن الهدف الذي دعاهم الى اتخاذ مدفنهم مسجداً إنما كان من

أجل أداء الفرائض الدينية فيه (١).

إن أولئك هكذا كانوا يتفكّرون: إن هذا المكان صار

ذاكرامة وشرف بسبب احتضانه لأجساد مجموعة من عباد الله

الصالحين، ولذا لا بدّ من التبرّك به باتخاذ مسجداً للصلاة

والعبادة لله سبحانه، لتلبي الثواب الأكثر.

إن القرآن الكريم يذكر هذا الموضوع عن أولئك الموحّدين من

دون أي ردّ أو نقد، بل بسكوت تامّ، ولو كان عملهم هذا خلافاً

للشريعة أو نوعاً من اللهو والباطل لما سكت القرآن عنهم، بل ردّ

عليهم، كما هو شأنه في المعتقدات الباطلة.

٢ - إن القرآن الكريم يأمر حُجّاج بيت الله الحرام بأن يقيموا

الصلاة عند مقام إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهي الصخرة التي

وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبة - فيقول سبحانه:

(١) يقول الزمخشري - في تفسير الكشاف، في تفسير الآية -: يصلي فيه المسلمون ويتبركون

بمكانهم. ويقول النيشابوري أيضاً: يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم.

«وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» (١).

إن كل من يتلو هذه الآية يفهم منها -بوضوح- أن الصلاة هناك إنما وجبت بسبب مقام النبي إبراهيم، وأن مقام إبراهيم هو الذي منح الفضيلة والكرامة لذلك المكان، وترى ملايين المسلمين يتخذون من مقام إبراهيم مكاناً للصلاة والدعاء.

فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى مقام إبراهيم -عليه السلام- ألا ينبغي أن يكون كذلك بالنسبة الى مثوى رجال الله وقادة الاسلام؟!!

ألا تكون الصلاة عند مراقدهم أفضل من الأماكن الأخرى؟!!

صحيح أن الآية قد نزلت بشأن مقام إبراهيم الخليل، ولكن: ألا يمكن ان نستنتج منها حكماً عاماً؟!!

لقد سأل المنصور العباسي «الدوانيقي» من مالك بن أنس -إمام المالكية- وهما في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله؟

فقال مالك: لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم الى الله يوم القيامة؟! بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله (٢).

(١) سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢) وفاء الوفا: ج ٤ ص ١٣٧٦.

يستفاد عن هذا الحوار أن الدعاء عند قبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان خالياً من أي إشكال، وأن سؤال المنصور من إمام المالكية إنما كان عن رجحان الدعاء الى جهة القبلة أم الى جهة قبر الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ويُفتي مالك بن أنس بأن التوجه الى قبر الرسول إنما هو كالتوجه الى القبلة.

٣ - لو راجعنا أحاديث المعراج لا نكشفت لنا هذه الحقيقة بصورة أكثر، حيث جاء فيها أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في رحلة المعراج نزل في «المدينة» و «طور سيناء» و «بيت لحم» وصلى فيها؛ فقال له جبرئيل: يا رسول الله أتعلم أين صلّيت؟ إنك صلّيت في «طيبة» وإليها مهاجرتك، وصلّيت في «طور سيناء» حيث كلم الله موسى تكليماً، وصلّيت في «بيت لحم» حيث وُلد عيسى (١).

يستفاد من هذا الحديث أن الصلاة محبوبة في بقعة لا مست جسد أحد الأنبياء، وأن تلك البقعة إنما اكتسبت القدسية والشرف بسبب ذلك النبي.

٤ - لقد بلغت «هاجر» أم إسماعيل بن الخليل مرتبة عالية عند الله تعالى بسبب صبرها وتحملها المتاعب في سبيله سبحانه، مما أدى الى أن جعل الله موضع أقدامها محلاً للعبادة وأوجب على حجاج بيته الحرام أن يسعوا كهم سعته هاجر بين جبلي الصفا

(١) الخصائص الكبرى: لعبد الرحمن السيوطي.

والمروءة. وهذا ما يعترف به ابن القيم تلميذ ابن تيمية (١).
 ومنتساءل: اذا كان صبر «هاجر» على المكاره وتحملها
 المتاعب في سبيل الله تعالى قد منّح الكرامة لموضع أقدامها،
 وأوجب الله على المسلمين أن يعبدوه سبحانه في ذلك المكان
 بالسعي بين الصفا والمروءة، فلماذا لا يكون قبر النبي -صلى الله
 عليه وآله وسلّم- مباركاً ومقدّساً، في حين أنه تحمّل أنواع المصائب
 والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده.

٥ - اذا كانت الصلاة عند القبر محرّمة في الشريعة الاسلامية،
 فلماذا قضت عائشة عُمرها وحياتها بالصلاة في البيت الخاص بها
 عند قبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم-؟!
 إن معني قول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- على فرض
 صحة الحديث: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم
 مساجد» (٢) هو أنهم كانوا يعبدون أنبياءهم ويسجدون على
 قبورهم، أو يجعلون قبورهم قبلة لهم، وكلا الأمرين مخالفان
 للشريعة المقدّسة.

ولكن الوهابيين يستدلّون بهذا الحديث على حرمة الصلاة
 عند قبور أولياء الله سبحانه، ولو كان هذا الاستدلال صحيحاً فلماذا
 قضت عائشة -رواية هذا الحديث- ما يقرب من خمسين عاماً
 من عمرها بالصلاة والعبادة في البيت الذي دُفن فيه الرسول؟!!

(١) كتاب جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام: لابن القيم ص ٢٢٨.

(٢) الشنن للنسائي: ج ٤ ص ٩٦ طبع بيروت.

٦ - لو لم تكن لقبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
القدسيّة والشرف فلماذا أصرَّ أبو بكر ومن بعده عُمر على أن يُدفنا
بجوار قبره الشريف؟!

ولماذا أوصى الإمام الحسن بن علي - عليهما السّلام - بأن
يُدفن عند قبر جدّه المصطفى، فإن حال الأعداء دون ذلك فليدفن
في البقيع؟!

وآية علاقة بين هذا الحديث و سيرة المسلمين القائمة على
الصلاة لله باتجاه القبلة بجوار قبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ - لدرك المزيد من الثواب والفضيلة!!

٧ - إن السيّدة فاطمة الزهراء - صلوات الله عليها - التي رُوي
عن النبي في أحاديث صحيحة أنّ رضاها هو رضی اللهُ ورسوله
وأنّ غضبها هو غضب الله ورسوله (١) - كانت تزور قبر عمّتها حمزة
في كلّ جمعة - أو في الاسبوع مرّتين - وكانت تبكي وتصلّي عند
قبره. يقول البيهقي:

« كَانَتْ فَاطِمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تَزُورُ قَبْرَ عَمَّتِهَا حَمْزَةَ كُلَّ جُمُعَةٍ،

فَتُصَلِّي وَتَبْكِي عِنْدَهُ » (٢).

أيها القارئ الكريم: إن هذه الأدلّة - بمجموعها وبالإضافة الى
سيرة المسلمين الجارية على الصلاة والدعاء في الأماكن التي دُفن
فيها أولياء الله واحبّاءه - تؤكد أن الصلاة والدعاء عند هذه المراقد

(١) لاحظ صحيح البخارى: ج ٥ باب مناقب قرابة رسول الله ص ٢١.

(٢) الشّن للبيهقي: ج ٤ ص ٧٨، مستدرک الصحيحين للحاكم: ج ١ ص ٣٧٧.

تمتاز بفضيلة أكثر وثواب أكبر، وأن الهدف إنما هو التبرُّك بذلك المكان المبارك واداء الفريضة فيها لرجاء القبول من الله سبحانه. ولو فرضنا عدم وجود دليل - من القرآن والأحاديث - على شرافة هذه الأماكن وفضيلة الصلاة والدعاء فيها، فلماذا تكون الصلاة محرمة فيها؟!

ولماذا لا تدخل هذه الأماكن ضمن إطار القانون الاسلامي العام الذي يعتبر الأرض كلها محلاً لعبادة الله، حيث يقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»؟ (١).

الإضاءة عند القبور

إن مسألة الإضاءة عند قبور أولياء الله - والتي يدعي الوهابيون حرمتها - ليست ذات أهمية كبرى، لأن الدليل الوحيد الذي يستدلون به هو ما ذكره النسائي عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرج (٢).

وهذا الحديث - وأمثاله - يختص بما اذا كانت الإضاءة تضييعاً وتبذيراً للمال أو تشبهاً ببعض الأمم والشعوب والأديان الباطلة، كما أشار اليه العلامة السندي - في شرحه على هذا

(١) صحيح البخاري: ج ١ ص ٩١، مسند أحمد بن حنبل: ج ٢ ص ٢٢٢ وغيرهما.

(٢) السنن للنسائي: ج ٣ ص ٧٧.

الحديث - حيث قال :

«والنهي عنه لأنه تضييع مال بلا نفع» (١) .

و أما اذا كان الهدف من الإضاءة و الإنارة هو تلاوة القرآن والدعاء والتضرع الى الله وإقامة الصلاة وغيرها من المستحبات والواجبات والمنافع المشروعة فهذا مما لا إشكال فيه قطعاً، بل أن الإضاءة في هذه الأماكن ولهذه الأهداف مصداق لقوله تعالى :

«وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى» (٢) .

فكيف تكون حراماً؟!!

بل لا شك أن الإضاءة مستحبة شرعاً ومحبوبة عقلاً.

(١) السنن للنسائي: ج ٣ ص ٧٧ طبعة مصر وج ٤ ص ٩٥ طبعة بيروت، شرح الجامع

الصغير: ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) سورة المائدة: آية ٢ .

التوسّل بأولياء الله

يُعتبر التوسّل بأولياء الله وأحبّائه من المسائل المعروفة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم، وقد وَرَدَت أحاديث كثيرة في جوازه واستحبابه، فليس ظاهرة غريبة، بل هو أمرٌ ديني تعرّف عليه المسلمون منذ فجر الاسلام حتى هذا اليوم، ولا تجد مسلماً ينكره.

و طوال أربعة عشر قرناً لم ينكره أحد سوى ابن تيمية وتلاميذه في القرن الثامن الهجري، وبعد قرنين منه جاء محمد بن عبد الوهاب فاعتبر التوسّل بأولياء الله بدعة -تارة- وعبادة للأولياء -تارة أخرى- .

لا شك أن عبادة غير الله شركٌ وحرام، وليس البحث الآن عن العبادة ومعناها وحقيقتها، لأنه بحثٌ هامٌ وحساس، وسوف نتحدّث عنه بالتفصيل في فصل خاص، إنما البحث في التوسّل بالأولياء فنقول:

إعلم أن التوسّل بأولياء الله تعالى على صورتين:

١ - التوسّل بالأولياء أنفسهم، كأن نقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتِي».

٢ - التوسل بمنزلة الأولياء وجاههم عند الله تعالى، كأن نقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِجَاهِ مُحَمَّدٍ وَحُرْمَتِهِ وَحَقِّهِ أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتِي».

أما الوهابيون فإنهم يُحرمون الصورتين معاً، في حين أن الأحاديث الشريفة وسيرة المسلمين تشهدان بخلاف ما يدعيه الوهابيون، وتؤكدان جواز الصورتين معاً. و الآن... نذكر بعض تلك الأحاديث، واحدة تلوا الأخرى، ثم نتناول الحديث عن سيرة المسلمين، وعند ذلك يتبخر القول القائل بجرمة التوسل وأنه بدعة وينتفي بنفسه.

الأحاديث الشريفة

إن الأحاديث التي تدل على جواز التوسل بأولياء الله كثيرة جداً، وهي متواجدة في كتب التاريخ والحديث، وفيما يلي نذكر نموذجاً منها:

الحديث الأول:

١ - عن عثمان بن حنيف أنه قال:

«إِنَّ رَجُلًا ضَرِبَ رَأْسِي إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ:

أُدْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي.

فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: إِنَّ شِئْتَ دَعْوَتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَهُوَ خَيْرٌ؟

قَالَ: فَأَدْعُهُ. فَأَمَرَهُ -ص- أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيُصَلِّيَ رُكْعَتَيْنِ وَيَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي لِنُقْضَى. اللَّهُمَّ سَقِّعُهُ فِيَّ».

قال ابن حنيف:

فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا كَأَنَّ لَمْ نَكُنْ بِهِ ضُرًّا.

كلمة حول سند الحديث

لا كلام في صحة سند هذا الحديث، حتى أن إمام الوهابيين -ابن تيمية- اعتبر هذا الحديث صحيحاً وقال بأن المقصود من «أبي جعفر» الموجود في سند الحديث هو أبو جعفر الخطمي وهو ثقة (١).

يقول الرفاعي -الكاتب الوهابي المعاصر الذي يسعى دوماً الى تضييف الأحاديث الخاصة بالتوسل- يقول حول هذا الحديث:

(١) جاء في مسند أحمد: «أبو جعفر الخطمي» أما في سنن ابن ماجه فجاء «أبو جعفر»

«لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور، وقد ثبت فيه - بلا شك ولا ريب - إرتداد بصر الأعمى بدعاء رسول الله» (١).

و يقول:

«لقد أورد هذا الحديث النسائي والبيهقي والطبراني والترمذي والحاكم في مستدركه، ولكن الترمذي والحاكم ذكرا جملة «اللهم شقعه فيه» بدل جملة «وشقعه فيي» (٢).

يقول زيني دحلان - مفتي مكة -:

«ذكر هذا الحديث - مع أسانيد صحيحة - البخاري وابن ماجه والحاكم في مستدركه، وجلال الدين السيوطي في جامعه».

ونحن نذكر هذا الحديث من المصادر التالية:

١ - سنن ابن ماجه، المجلد الأول ص ٤٤١ رقم الحديث ١٣٨٥، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء الكتب العربية.

وقد ذكر ابن ماجه عن أبي إسحاق أنه قال:

«هذا حديث صحيح».

ثم قال:

«وقد رواه الترمذي في كتاب أبواب الأدعية وقال: هذا حديث حق صحيح غريب».

٢ - مسند أحمد بن حنبل، المجلد الرابع ص ١٣٨، عن مسند

(١) التوصل الى حقيقة التوسل: ص ١٥٨.

(٢) المصدر السابق.

عثمان بن حنيف، طبع المكتب الاسلامي، مؤسسة دار صادر/بيروت. وقد روى هذا الحديث عن ثلاثة طرق.

٣ - مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري، المجلد الأول ص ٣١٣ طبعة حيدرآباد/الهند. قال بعد ذكر الحديث:

«هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

٤ - الجامع الصغير للسيوطي، ص ٥٩، عن الترمذي والحاكم.

٥ - تلخيص المستدرك للذهبي - المتوفى ٧٤٨هـ - المطبوع بهامش المستدرك.

٦ - التاج الجامع، المجلد الأول ص ٢٨٦، وهو كتاب جمع أحاديث الصحاح الخمسة باستثناء صحيح ابن ماجه. بعد هذا كله... لا مجال للمناقشة في سند الحديث أو الطعن فيه.

وأما دلالة فلو قدّمت هذا الحديث الى من يُحسن اللغة العربية جيداً ويتمتع بصفاء فكر، بعيد عن مجادلات الوهابيين وشبهاتهم حول مسألة التوسّل، ثم سألته: بماذا أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك الأعمى عندما علّمه ذلك الدعاء؟

فسيكون جوابه -فوراً-: لقد علّمه النبي كيف يتوسّل الى الله بنبيه نبي الرحمة، ويُشفعه لقضاء حاجته.

وهذا المعنى هو بالضبط ما يُفهم من كلمات الحديث

المذكور. وفيما يلي نقسّم الحديث الى جُمل لمزيد التوضيح:

أ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ».

إن كلمة «نبيّك» تتعلّق بما قبلها، أي: «أسألك» و«أتوجّه إليك» وبعبارة أوضح: إنه يسأل الله تعالى بواسطة النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- كما أنه يتوجّه الى الله بجاه النبيّ ووسيلته أيضاً، والمقصود من «النبي» نفسه المقدّسة لادعاؤه.

أما من يجعل كلمة «دعاء» مقدّراً للنبي، في قوله: «أسألك بنبيّك» فهو يتحكّم بلا دليل ويدّعي خلاف الظاهر، والسبب في هذا الادّعاء هو أنه لا يعتقد بالتوسّل بنفس النبي، فيلجأ الى تقدير «دعاء» ليقول: إن التوسّل بدعاء النبي لا إشكال فيه، وهذا يُبرّر باطله.

ب: «مُحَمَّدَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ».

لكي يتّضح أن المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي وشخصيته وحرمة فقد جاءت بعد كلمة «نبيّك» جملة «محمد نبيّ الرحمة» لكي يتّضح الهدف أكثر.

ج: إن جملة: «يا محمد إني أتوجّه بك الى ربي» تدلّ على أن الرجل اتّخذ النبيّ نفسه وسيلة لدعائه، لا دعاءه -صلى الله عليه وآله وسلم- أي: أنه توسّل بذات النبي لا بدعائه.

د: إن قوله: «وشفّعه فيّ» معناه: ياربّ اجعل النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- شفيعي وتقبّل شفاعته في حقّي.

أيها القارئ الكريم: لقد اتّضح لك أن النقطة المركزيّة في

الدعاء كله هو شخص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -
 وشخصيته الكريمة، ولا ذِكر لدعائه أصلاً.
 وكلّ من يزعم أن ذلك الرجل الضرير قد توسّل بدعاء
 النبي لا بشخصه وشخصيته، فإنما تغافل عن نصوص الرواية
 وتجاهلها.

و أنت لو تأملت قوله: «اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه اليك
 بنبيك نبي الرحمة» وقوله «يا محمد إني أتوجه بك الى ربي» لظهر
 لك - بكل وضوح - أن التركيز إنما هو على شخص رسول الله
 - صلى الله عليه وآله وسلم - ولو كان الهدف هو دعاء النبي لكان
 الصحيح أن يقول: أسألك بدعاء النبي.

بعد ذكر ما سبق... لا يبقى أي مجال للاشكالات الخمسة
 التي أوردها الكاتب الوهابي في كتاب «التوصل الى حقيقة
 التوسّل»، وقد ذكرنا - بالتفصيل - تلك الاشكالات مع أجوبتها
 وردودها في كتابنا «التوسّل» من صفحة ١٤٧ الى ١٥٣ فراجع.

الحديث الثاني: التوسّل بحق السائلين

روى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله
 - صلى الله عليه وآله وسلم - قال:

«مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ
 السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشْرًا
 وَلَا بَطْرًا وَلَا رِيسَاءَ وَلَا سُمْعَةً، وَخَرَجْتُ إِنْقَاءَ سَخَطِكَ وَإِنْغَاءَ

مَرْضَاتِكَ، فَاسْأَلْكَ أَنْ تُعِيدَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تُغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ
مَلَكًا» (١).

إنّ هذا الحديث واضح جداً في معناه، ويدلّ على أنّ للإنسان
أن يتوسّل الى الله بجرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم ووجاهتهم
عنده سبحانه، فيجعل أولئك وسطاء وشفعاء لقضاء حاجته واستجابة
دعائه، ودلالة الحديث على الموضوع الذي نتحدّث عنه واضحة.

الحديث الثالث: التوسل بحق النبي الكريم

إن النبي آدم -عليه السلام- عند ما صدر منه ما كان الأولي
عدم صدوره، وتاب الى الله تعالى ممّا صدر منه (٢) تلقى من ربه
كلمات، كما أشار القرآن الكريم:

«فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ» (٣).

(١) سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٥٦ حديث رقم ٧٧٨.

(٢) لقد ثبت أن النبي الوارد في قوله تعالى: «لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» إنما هو
نبي إرشادي وتنزيهي، وليس نهيًا تحريميًا مولويًا، والنهي الإرشادي هو بمثابة النصيحة
والموعظة، ومخالفة هذا النهي لا توجب عقاباً ولا مؤاخذه، ولا تنافي العصمة بأي وجه، وإنما
توجب تأثير العمل ذاته، فمثلاً: لو نهى الطبيب المريض المصاب بالزكام عن تناول الحمضيات،
فخالفه المريض، فإن المخالفة تعكس الأثر الطبيعي لها -وهو اشتداد الزكام والمرض- وفي
القرآن الكريم آيات تدلّ على أن نهي آدم عن اقتراب الشجرة كان نهيًا إرشادياً، ولا أثر
لمخالفة هذا النهي سوى الخروج من الجنة، كنتيجة طبيعية لتلك المخالفة. يُرجى مراجعة الآية
١١٨ و ١١٩ من سورة طه.

(٣) سورة البقرة: آية ٣٧.

إن المفسرين والمحدثين أعربوا عن آرائهم ووجهات نظرهم تجاه هذه الآية ومعناها، وذلك استناداً إلى بعض الأحاديث، وفيما يلي نذكر تلك الأحاديث لنرى النتيجة التي نحصل عليها بعد ذلك:

أخرج الطبراني في المعجم الصغير، والحاكم في مستدرکه، وأبو نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن عساكر الدمشقي في تاريخه، والسيوطي في تفسير الدر المنثور، والآلوسي في تفسير روح المعاني، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال:

«لَمَّا أذْنَبَ آدَمُ الَّذِي أذْنَبَهُ، رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلَّا غَفَرْتَ لِي. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: وَمَنْ مُحَمَّدٌ! فَقَالَ: تَبَارَكَ اسْمُكَ، لَمَّا خُلِقْتُ رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى عَرْشِكَ فَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. فَقُلْتُ: إِنَّهُ لَيْسَ أَخَذَ أَعْظَمُ عِنْدَكَ قَدْرًا مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّهُ آخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ دُرَّتِكَ، وَلَوْلَا هُوَ لَمَّا خَلَقْتِكَ» (١).

رأينا حول هذا الحديث

١ - لقد ورد في القرآن الكريم التعبير عن الأشخاص والذوات بـ «الكلمات» بعكس ما هو

(١) مستدرک الصحيحين: ج ٢ ص ٦١٥، روح المعاني: ج ١ ص ٢١٧، الدر المنثور: ج ١ ص ٥٩ نقلاً عن الطبراني وأبي نعيم والبيهقي. والمتن موافق لما في الدر المنثور.

متبع لدينا، فمثلاً:

أ - قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» (١).

ب - قوله سبحانه: «يَا مَرْثَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْثَمَ» (٢).

ج - قوله عزوجل: «إِنَّا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْثَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ» (٣).

د - قوله جلّ جلاله: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ» (٤).

هـ - قوله عز من قائل: «وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» (٥).

فع الانتباه الى هذه الآيات يمكن القول بأن المقصود من «كلمات» في قوله تعالى: «فتلقى آدم من ربه كلمات» هي الشخصيات المقدسة الوجيه التي توسل بهم آدم الى الله تعالى.

وفي الحديث - الذي مرّ عليك - ترى اسم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فقط مذكوراً، أما في أحاديث المذهب الحق «الشيعة» ترى الحديث مروياً بصورة تتطابق مع الآية الكريمة.

(١) سورة آل عمران: آية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٥.

(٣) سورة النساء: آية ١٧١.

(٤) سورة الكهف: آية ١٠٩.

(٥) سورة لقمان: آية ٢٧.

والحديث مروئي بصورتين، فتارةً فُسرت كلمة «كلمات» بأساء الخمسة الطيبة - عليهم السلام - وفُسرت بأشباحهم النورانية - تارةً أخرى - وإليك الحديث فيما يلي:

«إِنَّ آدَمَ رَأَى مَكْتُوبًا عَلَى الْعَرْشِ أَسَاءَ مُعْظَمَةً مُكْرَمَةً، فَسَأَلَ عَنْهَا؟

فَقِيلَ لَهُ: هَذِهِ أَسَاءُ أَجَلِ الْخَلْقِ مَنزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَسَاءُ:

مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، فَتَوَسَّلَ آدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

إِلَى رَبِّهِ بِهِمْ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِ وَرَفَعِ مَنزِلَتِهِ» (١).

وتدلّ بعض الأحاديث على أن آدم رأى الأشباح النورانية

للخمس الطيبة، فتوسّل بهم بعد ذلك (٢).

٢ - وعند مراجعة كتب التاريخ والحديث يظهر لنا أن قضية

توسّل النبيّ آدم بالنبيّ محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - كان

معروفاً ومشهوراً بين الناس، ولهذا ترى مالك بن أنس - إمام

المالكية - يقول للمنصور الدوانيقي - في مسجد رسول الله - :

«هُوَ وَسَيْلَتِكَ وَوَسِيلَةَ أَبِيكَ آدَمَ» (٣).

(١) مجمع البيان: ج ١ ص ٨٩ طبعة لبنان، تفسير البرهان: ج ١ ص ٨٦ - ٨٨ حديث

رقم ٥٢ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٧.

(٢) للتفصيل راجع تفسير البرهان: ج ١ ص ٨٧ حديث رقم ١٣ و ١٥ و ١٦.

(٣) ذكر السيد أحمد زيني دحلان - في كتابه الدرر السنية: ج ١٠ - أن القاضي عياض

ذكر هذا الحوار بسنيد صحيح. وكذلك ذكره السبكي في شفاء السقام، والسهودي في وفاء

الوفا، والقسطلاني في المواهب اللدنية. قال ابن حجر - في الجوهر المنظم: قد روي هذا بسنيد

صحيح. وقال العلامة الزرقاني - في شرح المواهب -: إن ابن فهد ذكر هذا بسنيد حسن، وذكره

القاضي عياض بسنيد صحيح.

وقد أشار شعراء المسلمين الى هذه الحقيقة في قصائدهم ،
فترى أحدهم يقول :

بِهِ قَدْ أَجَابَ اللَّهُ آدَمَ إِذْ دَعَا

و نُجِيَ فِي بطنِ السَّفِينَةِ نُوحٌ (١)

ويقول الآخر

قَوْمٌ بِهِمْ غُفِرَتْ خَطِيئَةُ آدَمَ

وَهُمُ الْوَسِيلَةُ وَالنُّجُومُ الظَّلَعُ (٢)

الحديث الرابع: توسل النبي بحقه وحق من سبقه من الأنبياء

«لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ، دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
[وآله] وَسَلَّمَ- فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهَا فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أُمِّي بَعْدَ أُمِّي.
ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ وَعُمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ وَعَلَامًا أَسْوَدَ يَحْفِرُونَ، فَحَفَرُوا قَبْرَهَا، فَلَمَّا بَلَغُوا اللَّحْدَ
حَفَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ وَأَخْرَجَ تُرَابَهُ،
فَلَمَّا فَرَغَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ فَاضْطَجَعَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَ
يُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، إِغْفِرْ لَأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتُ أَسَدٍ، وَوَسَّعْ عَلَيْهَا
مَدْحَهَا، بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِي».

قال مؤلف «خلاصة الكلام»:

«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وابن حبان والحاكم

(١) كشف الارتباب: ص ٣٠٧ نقله عن المواهب، والشعر لابن جابر.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٠٨، والشعر للواسطي.

وصَحَّحُوهُ» (١).

وَكَتَبَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ زَيْنِي دَحْلَانَ - فِي كِتَابِ الدَّرْرِ السَّنِّيَّةِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْوَهَابِيَّةِ - :

«رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ جَابِرٍ مِثْلَ ذَلِكَ . وَكَذَا رَوَى مِثْلَهُ ابْنُ عَبْدِ بَرِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَرَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ عَنْ أَنَسٍ ، ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْحَافِظُ جَلَالُ السَّيْطُونِيِّ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ» (٢).

أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْحَدِيثَ - الْمَذْكُورَ - عَنْ مَصْدَرَيْنِ يَشْتَمِلُ أَحَدُهُمَا عَلَى الدَّعَاءِ - الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ الْبَحْثِ - وَالْآخَرُ لَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ، وَالْمَصْدَرَانِ هُمَا :

١ - حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نَعِيمٍ الْإِصْفَهَانِيِّ / الْمَجْلَدُ الثَّلَاثُ ص ١٢١ .

٢ - وَفَاءُ الْوَفَا لِلْسَّمُودِيِّ / الْمَجْلَدُ الثَّلَاثُ ص ٨٩٩ .

الْحَدِيثُ الْخَامِسُ : التَّوَسَّلُ بِالنَّبِيِّ نَفْسَهُ

رَوَى جَمْعٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ :

«لَقَدْ آتَيْنَاكَ وَمَا لَنَا بِعَيْرِ بَيْطٍ (٣) ، وَلَا صَبِيٍّ يَغْطِ (٤) .

(١) كَشْفُ الْإِرْتِيَابِ : ص ٣١٢ نَقْلًا عَنْ خُلَاصَةِ الْكَلَامِ .

(٢) الدَّرْرِ السَّنِّيَّةُ : ص ٨ .

(٣) بَيْطٌ - مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَطْيَاطِ - وَهُوَ صَوْتُ الْبَعِيرِ .

(٤) يَغْطِ - مُشْتَقٌّ مِنَ الْغَطْيِطِ - وَهُوَ صَوْتُ النَّائِمِ .

ثم أنشأ يقول:

أُتِينَاكَ وَالْعِذْرَاءُ تُدْمِي لِنْبَانِهَا
 وَقَدْ شُغِلْتُ أُمَّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
 وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا
 سِوَى الْخِنْظَلِ الْعَامِي وَالْعِلْهَزِ الْفَسْلِ
 وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا

وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسُولِ
 فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ - بِجُرْدَاءَهُ، حَتَّى صَعِدَ
 الْمِنْبَرَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْقِنَا غَيْبًا مُغِيثًا... فَمَارَدَ النَّبِيُّ يَدَيْهِ
 حَتَّى أَلْقَى السَّمَاءَ... ثُمَّ قَالَ: لِلَّهِ ذُرِّي طَالِبٍ لَوْ كَانَ حَيًّا لَقَرَّتْ
 عَيْنَاهُ. مَنْ يُنْشِدُنَا قَوْلَهُ؟

فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَقَالَ: كَأَنَّكَ تُرِيدُ
 - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قَوْلَهُ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
 ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
 يَطُوفُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ -: أَجَلٌ.
 فَانْشَدَ عَلِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - آيَاتًا مِنَ الْقَصِيدَةِ، وَالرَّسُولُ
 يَسْتَغْفِرُ لِأَبِي طَالِبٍ عَلَى الْمَنْرِ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةٍ وَانْشَدَ
 يَقُولُ:

لَكَ الْحَمْدُ وَالْحَمْدُ مَمَّنْ شَكَرَ

سُقِينَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطَّرِ

أقول: إن المصادر التي تذكر هذه القضية كثيرة جداً، ونحن قد ذكرناها من المصادر التالية:

أ - عمدة القاري في شرح حديث البخاري: المجلد السابع ص ٣١ تأليف بدرالدين محمود بن أحمد العين، المتوفى عام ٨٥٥ طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

ب - شرح نهج البلاغة: لأبن أبي الحديد ج ١٤ ص ٨٠.

ج - السيرة الحلبية: المجلد الثالث ص ٢٦٣.

د - الحجّة على الذاهب الى تكفير أبي طالب: تأليف شمس الدين أبي علي فخار بن معد، المتوفى عام ٦٣٠، طبعة النجف مطبعة العلوي ص ٧٩.

هـ - سيرة زيني دحلان: المطبوعة بهامش السيرة الحلبية، المجلد الأول ص ٨١.

الحديث السادس: التوسّل بالنبيّ أيضاً

روي أن سواد بن قارب أنشد لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قصيدته التي يتوسّل فيها بالنبيّ .

وفيها يقول:

وَأشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

وَأَنْتَ مَأْمُونٌ عَلَيَّ كُلِّ غَائِبٍ

وَأَنْكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسَيْلَةَ
 إِلَى اللَّهِ يَا بَنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطْنَابِ
 فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
 وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْبُ الدَّوَائِبِ
 وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَا ذَوْشَفَاعَةَ

بِمُضْنٍ فَتِيلاً عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ (١)
 أَيُّهَا الْقَارِيءُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ ذَكَرْنَا - حَتَّى الْآنَ - مَجْمُوعَةً مِنَ
 الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ فِي التَّوَسُّلِ، اعْتِمَاداً عَلَى كُتُبِ التَّارِيخِ
 وَالْحَدِيثِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ.

أَمَّا التَّوَسُّلُ بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ - فَيَا رُوي عَنْ أُمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ
 - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي كُتُبِ الشَّيْعَةِ - فَهُوَ عَلَى حَدِّ مِنَ الْوُضُوحِ وَالشُّبُوتِ
 بَحَيْثُ جَاءَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي الْأَدْعِيَةِ أَيْضاً.

وَلِنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ: هَلْ يَجِبُ أَنْ نَأْخُذَ الْمَعَارِفَ الْإِسْلَامِيَّةَ
 وَالْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ «ابْنِ تَيْمِيَّةٍ» وَ«مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ»
 وَنَظَرَاتِهَا أَمْ مِنْ عَتْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ الَّتِي نَصَّ النَّبِيُّ - فِي حَدِيثِ
 الثَّقَلَيْنِ - عَلَى أَنَّهَا الثَّقَلُ الْأَصْغَرُ وَعَدَلَ الْقُرْآنُ؟! !!

إِنْ كَلَّ مُسْلِمٌ - يَمْلِكُ ذَرَّةً مِنَ الْوَعْيِ وَالْإِنْصَافِ - يَحْكُمُ
 بِضُرُورَةِ الْأَخْذِ مِنَ الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهَا الرَّجْسَ
 وَطَهَّرَهَا تَطْهِيراً.

(١) الدرر السنية ص ٢٧ تأليف زيني دحلان، التوصل الى حقيقة التوسل: ص ٣٠٠.

نماذج من أدعية التوسل

أما الأدعية التي ورد فيها التوسل بأولياء الله تعالى فهي كثيرة وموزعة في الصحيفة العلوية (١) ودعاء عرفة (٢) والصحيفة السجادية (٣) وغيرها من كتب الدعاء.

وفيما يلي نذكر نماذج من تلك الأدعية.

١ - يقول الامام عليّ أمير المؤمنين -عليه السلام- في دعاء له:

«... بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّكَ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِمْ كَمَا أَنْتَ أَهْلُهُ وَأَنْ تُعْطِيَنِي أَفْضَلَ مَا أُعْطِيتَ السَّائِلِينَ مِنْ عِبَادِكَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَفْضَلَ مَا تُعْطِي الْبَاقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...» (٤).

٢ - و يقول الامام سيّد الشهداء الحسين -عليه السلام- في

دعاء عرفة:

«... اَللّٰهُمَّ اِنَّا نَتَوَجَّهُ اِلَيْكَ - فِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ الَّتِي فَرَضْتَهَا وَعَظَّمْتَهَا - بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ».

٣ - و يقول الامام زين العابدين -عليه السلام- في دعائه

بمناسبة حلول شهر رمضان:

(١) وهي المجموعة التي تضم بعض أدعية الامام عليّ أمير المؤمنين -عليه السلام- جمعها الشيخ عبدالله السماهيجي .

(٢) وهو دعاء الامام الحسين -عليه السلام- في عرفات يوم عرفة.

(٣) وهو بعض أدعية الامام زين العابدين -عليه السلام-.

(٤) الصحيفة العلوية للسماهيجي: ص ٥١.

«... أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْرِ وَيَحَقُّ مَنْ تَعَبَّدَ فِيهِ - مِنْ
ابْتِدَائِهِ إِلَى وَقْتِ فَنَائِهِ - مِنْ مَلَكٍ قَرَّبْتَهُ أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ أَوْ عَبْدٍ صَالِحٍ
اخْتَصَّصْتَهُ...» (١).

سيرة المسلمين في التوسل

لقد جرت سيرة المسلمين - في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -
وبعد وفاته - على التوسل بأولياء الله والاستشفاع بمنزلتهم وجاههم
عند الله تعالى .

وإليك نماذج من تلك السيرة:

١ - كتب المؤرخ الشهير: ابن الأثير - المتوفى عام ٦٣٠ - :

«وَأَسْتَسْقِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِالْعَبَّاسِ، عَامَ الرَّمَادَةِ، لَمَّا اشْتَدَّ
الْقَحْطُ، فَسَقَاهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَأَخْصَبَتِ الْأَرْضُ، فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا
- وَاللَّهِ - الْوَسِيلَةُ إِلَى اللهِ وَالْمَكَانُ مِنْهُ.

وقال حسان:

سأل الامام وقد نتابع جدبنا
فسقى الغمام بغرة العباس
- عم النبي وصنوه واليه الذي
ورث النبي بذاك دون الناس
أحيى الإله به البلاد فأصبح
مُخضرةً الأجناد بعد الياس

وَلَمَّا سَأَى النَّاسُ ظَفِيفُوا يَتَمَسَّحُونَ بِالْعَبَّاسِ وَيَقُولُونَ: هَنِيئاً لَكَ
سَاقِي الْحَرَمَيْنِ» (١).

إن التأمل في هذه القضية التاريخية - والتي ذكر بعضاً منها
البخاري في صحيحه - يؤكد على أن من مصاديق «الوسيلة» هو
التوسل بأصحاب الجاه والمنزلة، حيث ينتج منه التقرب إلى الله
وتكريم الداعي والمتوسل.
وأبيّ تعبيرٍ أوضح من قوله:

«هَذَا - وَاللَّهِ - الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ وَالْمَكَانُ مِنْهُ؟!»

٢ - يقول القسطلاني (٢) المعاصر للسيوطي المتوفى عام

٩٢٣هـ:

«إِنَّ عُمَرَ - لَمَّا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ - قَالَ «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ
كَانَ يَرَى لِلْعَبَّاسِ مَا يَرَى الْوَلَدُ لِلْوَالِدِ، فَاقْتَدُوا بِهِ فِي عَمَلِهِ وَ
اتَّخِذُوهُ وَسِيلَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى». ففيه التصريح بالتوسل، وهذا يبطل
قول من منع التوسل مطلقاً، بالأحياء والأموات، وقول من منع ذلك
بغير النبي».

٣ - سبق أن ذكرنا بأن المنصور العباسي «الدوانيقي» سأل
من مالك بن أنس - إمام المالكية - عن كيفية زيارة رسول الله
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والتوسل به... فقال لمالك:

«يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ اسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُو، أَمْ اسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ

(١) تاريخ أسد الغابة في معرفة الصحابة: ج ٣ ص ١١١ طبعة مصر.

(٢) في كتاب المواهب اللدنية: طبعة مصر.

مالك في جوابه: لِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَيْكَ
 آدَمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! بَلِ اسْتَقْبَلَهُ وَاسْتَشْفَعُ بِهِ فَيَشْفَعُكَ اللَّهُ، قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...» (١).

٤ - ذكر ابن حجر الهيثمي هذين البيتين من الشعر للشافعي
 - إمام الشافعية - :

آل النبي ذريعتي وهم اليه وسيلتي
 أرجوهم أعطى غداً بيدي اليمن صحيفتي (٢)
 بعد كل ما سبق من الأدلة والبراهين والشواهد، يمكن القول
 بأن الأنبياء والشخصيات الدينية السامية هم من الوسائل التي
 عنها الله تعالى بقوله:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» (٣).

وقد أمر تعالى باتخاذهم وسيلة إليه سبحانه.
 ولا شك أن الوسيلة غير منحصرة في أداء الفرائض واجتناب
 المحرمات فقط، بل تشمل المستحبات - التي من ضمنها التوسل
 بالأولياء - أيضاً.

فهل يمكن القول بأن العلماء والمحققين قد أخطأوا في فهم معنى
 «الوسيلة»؟!!

(١) وفاء الوفا: ج ٢ ص ١٣٧٦.

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٧٨، والكتاب ملي بالانحراف والافتراء، وقد ردّ
 عليه جمع من العلماء والمحققين، منهم: الشهيد السعيد القاضي نور الله التستري في كتابه:
 الصوارم المهرقة.

(٣) سورة المائدة: آية ٣٥.

مع العلم أنهم مصادِرٌ لِلْحُكْمِ وَحَفَاطٌ لِلْحَدِيثِ وَمِنْ عُلَمَاءِ
 الْإِسْلَامِ الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ؟!
 إِنَّ الَّذِينَ يُعْرَضُونَ صَفْحاً عَنْ هَذِهِ التَّصْرِيحَاتِ وَالْأَدَلَّةِ،
 وَيَبْحَثُونَ هُنَا وَهَنَّاكَ عَنْ تَوْجِيهِهِ وَتَأْوِيلِ لِكَلِّ حَدِيثٍ وَدَلِيلٍ، هُمْ
 أَشْبَهَ بِالْقَاضِيِ الَّذِي يَتَسَرَّعُ فِي إِصْدَارِ الْحُكْمِ مِنْ دُونِ الْإِعْتِمَادِ
 عَلَى الْقَرَائِنِ وَالشُّهُودِ.

٥ - يروي البخاري في صحيحه:

«إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ إِذَا قُحِطُوا اسْتَسْقَى بِأَعْبَاسِ بْنِ
 عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَالَ: اللَّهُمَّ كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا
 فَتُسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا.
 قَالَ: فَيُسْقُونَ» (١).

لا كلام في صحة هذا الحديث، حتى أن الرفاعي - الكاتب
 الوهابي الذي يردّ أحاديث التوسّل المتواترة مهما أمكنه - قد اعترف
 بصحة هذا الحديث وقال:

«إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ (٢) فَإِنَّ صَحَّ هَذَا الْجَوَازَ شَرْعاً فَحَنَ مِنْ
 أَسْبَقِ النَّاسِ إِلَى الْأَخْذِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهُ».

فمع الانتباه إلى ما ذكره عن عمر بن الخطاب بشأن التوسّل

(١) صحيح البخاري: باب صلاة الاستسقاء ج ٢ ص ٣٢.

(٢) كان الصحيح أن يقول «إن هذا التاريخ صحيح» لأن الحديث - في الاصطلاح - هو
 كلام النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وكلامنا الآن عن الأحداث التاريخية، وقد سبق ذكر
 الأحاديث الشريفة.

بالعبّاس، وأنه أقسم بالله بأن «هَذَا - وَاللَّهِ - الْوَسِيلَةَ إِلَى اللَّهِ وَالْمَكَانَ مِنْهُ» يتّضح بأن حقيقة التوسّل - في هذا المجال - هي التوسّل بذات العبّاس ونفسه، أو بشخصيته ووجهته عند الله تعالى، لا بدعاء العبّاس.

هذا... وقد روى محمد بن النعمان المالكي - المتوفى سنة ٦٨٣هـ - في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» كيفية توسّل عمر بالعبّاس وأنه قال:

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَفِيكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ وَنَسْتَشْفِعُ إِلَيْكَ بِشَيْبَتِهِ. فَسُقُوا» وَفِي

ذَلِكَ يَقُولُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُثْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ:

بِعَمِّي سَقَى اللَّهُ الْحِجَازَ وَأَهْلَهُ

عَشِيْبَةَ يَسْتَفِي بِشَيْبَتِهِ عُمَرُ (١)

و كذلك أنشد حسن قوله:

«فَسَقَى الْغَمَامُ بَعْرَةَ الْعَبَّاسِ».

وقال ابن حجر العسقلاني (٢):

«إِنَّ الْعَبَّاسَ دَعَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ... وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ

لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ».

أيها القارئ الكريم: لقد ظهر لك - بكلّ وضوح - أن التوسّل إنما كان بشخصية العبّاس وجاهه، وقد قال علماء البلاغة والأدب:

(١) وفاء الوفا: ج ٣ ص ٣٧٥ نقلاً عن مصباح الظلام.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج ٢ ص ٤١٣.

«تعلق الحُكم بالوصفِ مُشعرٌ بالعلية».

يعني: ترتب الحُكم على الوصف يدلّ على أن العلة في ذلك الحُكم هو الوصف، فمثلاً يقول القرآن الحكيم:

«وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ».

يعني: ان المرأة التي أنجبت مولوداً للزوج، فعلى الزوج أن يتكفل نفقتها، فالحُكم هو وجوب الانفاق، والوصف هو المولود الذي أنجبتة المرأة.

وإليك مثلاً آخر:

لو قال الوالد لولده «إحترم العالم» فإنما هو لعلّة العلم والفضيلة التي فيه.

بناءً على هذا... فإن قول عمر: «إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ» فيه بيان علة التوسّل بالعبّاس دون غيره من الناس، وأنها لكونه عمّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ذكر العبّاس نفسه ذلك فقال: «لمكاني مِنْ نَبِيِّكَ».

و الخلاصة: بعد كلّ ما سبق... يمكن القول -بالقطع واليقين- إن المسلمين في صدر الاسلام كانوا يتوسّلون بالأشخاص الصالحين الأزكياء.

٦ - شعر صفيّة في رثاء النبي

أنشدت صفيّة بنت عبدالمطلب - عمّة النبي - قصيدة بعد وفاة النبي في رثائه - صلى الله عليه وآله وسلم - ومنها:

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ رَجَاؤُنَا
وَكُنْتَ بِنَابِرًا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ بِنَابِرًا رُؤُوفًا نَبَيْنَا

لِيَبْنِكَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا (١)
إننا نستنتج من هذه المقطوعة الشعرية - التي أنشدها علي
مسمع من الصحابة وسجلها المؤرخون وأصحاب السير - أمرين:
الأول: إن مخاطبة الأرواح - وبالأخص مخاطبة رسول الله
بعد وفاته - كان أمراً جائزاً وجارياً، وقولها: «أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ» لم
يكن لغواً ولا شركاً كما تدعي الوهابية الضالّة.

الثاني: إن قولها: «أَنْتَ رَجَاؤُنَا» يدلّ على أن النبي
- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هو أمل المجتمع الإسلامي في كل
العصور والأحوال، ولم تنقطع الروابط والعلاقات معه - صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حتى بعد وفاته.

بعض ما كُتِبَ فِي التَّوَسُّلِ

من المناسب أن نُشير إلى بعض الكتب القيّمة التي كتبها
علماء أهل السُنّة حول التوسل بالنبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ - وإن مطالعة هذه الكتب تكشف عن رأي علماء الإسلام
في التوسل بالأنبياء والأولياء، وتؤكد على أن التوسل - على خلاف

(١) ذخائر العقبى' للمحافظ المحب الطبري: ص ٢٥٢، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ٣٦ ونشير
إلى أن جملة «أَنْتَ رَجَاؤُنَا» في الشطر الأول جاءت في هذا المصدر هكذا «كنت رجاءنا».

ما تدّعيه الزمرة الوهابية- كان أمراً متداولاً وسُنَّةً متّبعة عند المسلمين طوال التاريخ:

١ - كتاب الوفاء في فضائل المصطفى: لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ، وقد أفرد باباً حول التوسّل بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وباباً حول الاستشفاء بقبره الشريف.

٢ - مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام: تأليف محمد بن نعمان المالكي المتوفى سنة ٦٧٣هـ، وقد نقل السمهودي -في كتاب وفاء الوفا، باب التوسّل بالنبي- عن هذا الكتاب نقلاً كثيراً.

٣ - البيان والاختصار: لابن داود المالكي الشاذلي، وقد ذكر فيه توسّل العلماء والصلحاء بالرسول الأكرم -صلى الله عليه وآله وسلم- في المحن والأزمات.

٤ - شفاء السقام: لتقي الدين السبكي المتوفى عام ٧٥٦هـ، وقد تحدّث عن التوسّل بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بشكلٍ تحليلي رائع من ص ١٢٠ الى ١٣٣.

٥ - وفاء الوفا لأخبار دار المصطفى: للسيد نورالدين السمهودي المتوفى سنة ٩١١هـ، وقد بحث عن التوسّل بحثاً واسعاً في الجزء الثاني من صفحة ٤١٣ الى ٤١٩.

٦ - المواهب اللدنية: لأبي العباس القسطلاني المتوفى سنة ٩٣٢.

٧ - شرح المواهب اللدنية: للرزقاني المالكي المصري المتوفى

سنة ١١٢٢، في الجزء الثامن ص ٣١٧.

٨ - صلح الاخوان: للخالدي البغدادي المتوفى سنة ١٢٩٩، وله أيضاً رسالة خاصة في الردّ على الآلوسي حول موضوع التوسّل بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد طبعت الرسالة في سنة ١٣٠٦ هـ.

٩ - كثر المطالب: للعدوي الحمزاوي المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ.

١٠ - فرقان القرآن: للعزامي الشافعي القضاعي، وقد طبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء والصفات للبيهي في ١٤٠ صفحة. أيها القارئ الكريم: إن مطالعة هذه الكتب - وخاصة تلك التي تحدّثت بالتفصيل عن التوسّل، ويأتي كتاب صلح الاخوان وفرقان القرآن في طليعتها - إن مطالعة هذه الكتب يُثبت سيرة المسلمين - في كلّ عصر ومصر - في التوسّل بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويكشف عن ضلال ابن تيمية وتلامذته وانحراف رأيهم وفساد عقيدتهم

وفي الختام

في ختام هذا الفصل نقول - عوداً على بدء - : إن القرآن الكريم يصرّح بجواز التوسّل بأولياء الله تعالى، بل يدعو الى ذلك بقوله:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ» (١).

إن هذه الآية تدعو الى اتخاذ «الوسيلة» في كلّ المجالات بصورة عامّة.

و السؤال: ماهي «الوسيلة»؟

الجواب: لم تذكرها الآية الكريمة، ولا شك أن أداء الفرائض الدينية هي من وسائل الفلاح والنجاة، ولكن لا شك أيضاً أن «الوسيلة» غير منحصرة في ذلك، بل -وبالاعتماد على سيرة المسلمين طوال التاريخ- إن من «الوسيلة» التوسّل بأولياء الله الصالحين، وأنه من وسائل الفوز والفلاح وقضاء الحوائج وتحقيق الآمال، ويتجلّى هذا -بوضوح- فيما ذكرنا من كلام إمام المالكية مع المنصور العباسي، وتوسّل عمر بن الخطاب بالعبّاس للاستسقاء وغير ذلك.

«إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا».

النذر لأهل القبور

قبل كلّ شيء نذكر تعريفاً عن النذر فنقول:
النذر معناه أن يُلزم الانسان نفسه بأداء شيء معين إذا تحقّق هدفه وقُضيت حاجته، فيقول: لله عَلَيَّ أَنْ ... (ويذكر نذره) إذا كان ... (ويذكر حاجته).

مثلاً يقول: لله عَلَيَّ أَنْ أَخْتِمَ الْقُرْآنَ إِذَا نَجَحْتُ فِي
الْإِمْتِحَانَاتِ الدِّرَاسِيَّةِ.

هذا هو النذر الشرعي، ويجب أن يكون لله فقط، فإذا قال
الناذر: نذرتُ لفلان، ففي قوله مجازاً، والمعنى: نذرتُ لله على أن
يكون ثوابه لفلان. وثواب النذريّ يقع على ثلاثة أقسام:

١ - أن يكون الثواب لنفس الانسان الناذر.

٢ - أن يكون لشخص حيّ.

٣ - أن يكون لشخص ميّت.

فقد يُخصّص الانسان الناذر ثواب نذره لنفسه، أو لشخص

حيّ - واحد كان أو أكثر - أو لشخص ميّت - واحد كان أو أكثر - .

وهذه الأقسام الثلاثة كلّها جائزة، ويجب على الناذر الوفاء بنذره إذا قُضِيَتْ حاجته.

وقد مدح الله تعالى الامام علياً وفاطمة والحسن والحسين -صلوات الله عليهم- بقوله:

«يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ» (١).

أيها القارئ الكريم: إن النذر سنةٌ معروفة بين كافة المسلمين في العالم كلّه، وخاصة في البلاد التي تحتضن قبور أولياء الله وعباده الصالحين.

وقد تعارف بين المسلمين النذر لله وإهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين.

حتى جاء سرطان الفتنة والنفاق «ابن تيمية» فزعم حرمة ذلك وشنّ الهجوم على المسلمين -وخاصة الشيعة حيث يتعارف هذا النذر بينهم أكثر من غيرهم، نظراً لكثرة مراقد أولياء الله في بلادهم المحروسة- فاتّهمهم بالشرك والانحراف وقال:

«مَنْ نَذَرَ شَيْئاً لِلنَّبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْأَوْلِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ، أَوْ

ذَبَحَ ذَبِيحَةً، كَانَ كَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَذْبَحُونَ لِأَوْلِيَانِهِمْ وَيَنْذِرُونَ لَهَا، فَهُوَ

عَابِدٌ لغير الله، فيكون بذلك كافراً» (٢).

ثم جاء محمد بن عبد الوهاب -بعد ثلاثة قرون تقريباً- فجعل ينهق بنهيق سلفه، ويُحيي بدّعه ومفترياته.

(١) سورة الانسان: آية ٧.

(٢) فرقان القرآن: للغزالي ص ١٣٢ نقلاً عن ابن تيمية.

لقد جهلا - أو تجاهلا - أن المقياس العام هو القصد والنية القلبية ف«الأعمال بالنيات».

إذا كان مجرد العمل الظاهري دليلاً على النية، فإن كثيراً من مناسك الحج وفرائضه تشبه - في ظاهرها - أعمال عبدة الأصنام، فقد كانوا يطوفون حول أصنامهم ويُقبلونها، ونحن نطوف حول الكعبة المشرفة ونقبل الحجر الأسود، ونذبح الذبائح ونُقرب القرابين في منى يوم عيد الأضحى، فهل كفرنا وأشركنا بالله بأداء هذه المناسك !!؟

إن المقياس هو النية القلبية، ولا يصح التسرع في الحكم وإصدار الفتوى مجرد عمل ظاهري.

إن كل من ينذر لأحد أولياء الله، إنما يقصد - في قلبه - النذر لله وإهداء الثواب لذلك الولي الصالح، ليس إلا. و من حُسن الحظ أن العلماء والمفكرين - من الشيعة والسنة - قد تصدّوا لأباطيل ابن تيمية ونظرائه.

فهذا الخالدي يردّ على ابن تيمية ويقول:

«إن المسألة تدور مدار نيات الناظرين، وإنما الأعمال بالنيات، فإن

كان قصد الناظر الميت نفسه والتقرب إليه بذلك لم يجز، قولاً

واحداً، وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء - بوجه من

الوجوه - به وثوابه لذلك المنذور له - سواء عيّن وجهاً من وجوه

الانتفاع، أو أطلق القول فيه وكان هناك ما يطرّد الصرف فيه في

عُرف الناس، أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك - ففي هذه الصورة يجب

الوفاء بالندور» (١).

ثم ذكر ما صرح به علماء عصره، ومن قارب عصره حول هذه المسألة.

وقال العزامي - في كتاب فرقان القرآن - :

«... ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذئهم وندورهم للأموال - من الأنبياء والأولياء - إلا الصدقة عنهم وجعل ثوابها اليهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموال، واصلت اليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.

فتنها: ما صحَّ عن سعد أنه سأل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
«قال: يا نبي الله إن أمي قد افتلتت (٢) وأعلم أنها لو عاشت

لَتَصَدَّقَتْ، أفإن تصدَّقتُ عنها أُنْفَعُها ذلك؟

قال - صلى الله عليه وآله وسلم -: نعم.

فسأل النبي: أي الصدقة أنفع يا رسول الله؟

قال: الماء.

فحفر بئراً وقال: هذه لأُم سعد» (٣).

لقد أخطأ محمد بن عبد الوهاب فادعى أن المسلم إذا قال: هذه الصدقة للنبي أو للولي، فاللام بنفسها هي اللام الموجودة في

(١) صلح الاخوان: للخالدي ص ١٠٢ وما بعده.

(٢) أي ماتت.

(٣) فرقان القرآن: ص ١٣٣.

قولنا: «نذرتُ لله»، يُراد منها الغاية، فالعمل لله، بينما لو قال: للنبي، يريد بها الجهة التي يُصرف فيها الصدقة من مصالح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حياته ومماته.

وفي هذا الصدد يقول العزامي -بعد ذكر قصة سعد-:

«اللام في «هذه لأُم سعد» هي اللام الداخلة على الجهة التي وُجّهت إليه الصدقة، لا على المعبود المتقرّب إليه، وهي كذلك في كلام المسلمين، فهم سَعِدُون لا وَتُون!

وهي كاللام في قوله تعالى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ» لا كاللام في قوله سبحانه: «رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بطني مَحْرَمًا» (١) أو في قول القائل: صَلَّيْتُ لَهْ وَنَذَرْتُ لَهْ، فاذا ذَبِحَ للنبي أو الولي أو نَذَرَ الشيء له فهو لا يقصد إلا أن يتصدق بذلك عنه، ويجعل ثوابه إليه، فيكون من هدايا الأحياء للأموات المشروعة المثاب على إهدائها، والمسألة مبسطة في كُتب الفقه وفي كُتب الردّ على الرجل ومن شابعه» (٢).

وهكذا ظهر لك -أيها القارئ- جواز النذر للأنبياء والأولياء، من دون أن يكون فيه شائبة شرك، فيُثاب به الناذر إن كان لله وذبح المنذور باسم الله، فقول القائل «ذَبَحْتُ للنبي» لا يريد أنه ذَبَحَ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بل يريد أن الثواب له، كقول القائل: ذَبَحْتُ للضيف، بمعنى أن النفع والفائدة له،

(١) سورة آل عمران: آية ٣٥.

(٢) فرقان القرآن: ص ١٣٣.

فهو السبب في حصول الذبح.

و يوضح ذلك ماروي عن ثابت بن الضحّاك قال:

«نَدَّر رجلٌ على عهد رسول الله -ص- أن ينحر إبلاً بـ«بوانة»، فأتى

رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فأخبره، فقال [النبى]:

هل كان فيها وَنٌّ يُعْبَدُ من أوثان الجاهلية؟

قالوا: لا.

قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟

قالوا: لا.

قال -صلى الله عليه وآله وسلم- للسائل: أَوْفٍ بِتَدْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وِفَاءَ

لِتَدْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» (١).

و روي أيضاً:

«إن امرأة أتت النبي -ص- فقالت: يا رسول الله... إني نذرتُ أن

أذبح بمكان كذا وكذا -مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية-.

فقال النبي: الصم؟

قالت: لا.

قال: الوئن؟

قالت: لا.

قال: في بتدريك» (٢).

و عن ميمونة بنت كردم ان أباهما قال لرسول الله -صلى الله

(١) سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨٠.

(٢) سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨١.

عليه وآله وسلم - :

«يا رسول الله إني نذرتُ إنْ وُلِدني ذَكَرْتُ أنْ أُخْرِعَ على رَأْسِ «بُوانة» - في

عَقَبَةٍ مِنَ الثَّنَايا - عِدَّةً مِنَ الغَمِّ .

قال «الرواي عنها»: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين .

فقال رسول الله -ص- : هل مِنْ الأوثان شيء؟

قال: لا .

قال: فأوفِّ بما نذرتَ به لله...» (١) .

أرأيت - أيها القارئ - كيف يُكرّر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - السؤال عن وجود الأصنام في المكان الذي تُذبح فيه الذبائح؟! إن هذا دليل على أن النذر الحرام هو النذر للأصنام، حيث

كان ذلك عادة أهل الجاهلية . كما قال تعالى :

«وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ... ذَلِكَمْ فِسْقٌ» (٢) .

وكلّ من الطلّع على أحوال الزائرين للعتبات المقدّسة ومراقد أولياء الله الصالحين يعلم جيداً أنهم يندرون لله تعالى ولرضاه، ويذبحون الذبائح باسمه عزّوجل، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها .

وختاماً لهذا الفصل نذكر كلمة للخالدي - بعد أن ذكر ما رواه أبو داود في سنّنه - قال :

«وأما استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر في أماكن

(١) سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨١ .

(٢) سورة المائدة: آية ٣ .

الأنبياء والصالحين، زاعمين أن الأنبياء والصالحين أوثان
 -والعباذبالله- وأعياد من أعياد الجاهلية، فهو من ضلالتهم وخرافاتهم
 وتجاؤهم على أنبياء الله وأوليائه، حتى سمّوهم أوثانا، وهنا غاية
 التحقير لهم، خصوصاً الأنبياء، فإن من انتقصهم -ولو بالكتابة- يكفر
 ولا تُقبل توبته -في بعض الأقوال- وهؤلاء المخذلون بجهلهم يُسمون
 التوسل بهم عبادة ويُسمونهم أوثانا، فلا عبرة بجهالة هؤلاء وضلالتهم،
 والله أعلم» (١).

(١) صلح الاخوان: للخالدي ص ١٠٩.

تكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم

هل أن تكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم بدعة؟!
إن الزمرة الوهابية تدّعي حرمة ذلك ... فكأنها تَضمر الحقد
الدفين والعداء البغيض لأولياء الله وقادة الاسلام، حيث إنها
تمنع من إقامة الاجتماعات في مواليدهم ووفياتهم.
يقول الوهابي «محمد حامد فقي» رئيس جماعة «انصار السنة
المحمدية» - في حواشيه على كتاب الفتح المجيد-:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم

وتعظيمهم»(١).

إن العلة الأساسية في كلّ هذه الانحرافات هي أن الوهابيين

(١) الفتح المجيد: ص ١٥٤. في هذه الأيام التي أنشغل فيها بتأليف هذا الكتاب، يحتفل المسلمون -في كافة البلاد الاسلامية- بميلاد خاتم الأنبياء ومنقذ البشرية النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد أفتى مفتي آل سعود «ابن باز» بجرمة الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة واعتبرها بدعة، ولكن هذا المفتي نفسه خاطب الملك فيصل -في فترة حكومته- بـ«أمير المؤمنين» مما أثار السخط والاشمئزاز في الأوساط كلّها، حتى أن الملك نفسه أعرب عن عدم استحقاقه لهذا اللقب.

لم يُحدِّدوا معنى «التوحيد» و«الشرك» و«العبادة» حتى الآن، ولهذا فهم يعتبرون كلَّ تكريم لأولياء الله عبادة لهم وشركاً بالله، وقد قرأت أن المؤلف الوهابي حَبَطَ خبطة شعواء فقرن بين كلمتي «العبادة» و«التعظيم» وذكرهما بأزاء الآخر، ظناً منه أن المعنى فيهما واحد.

وإننا سوف نتحدّث عن العبادة ومفهومها - في فصلٍ قادم - وسنبرهن على أن كلَّ تكريم وتعظيم لأولياء الله ليس عبادة لهم أبداً. والحديث الآن حول جواز تكريم مواليد الأولياء ووفياتهم، على ضوء القرآن الكريم.

مما لا شكَّ فيه أن القرآن الحكيم ذكر جمعاً من الأنبياء والأولياء بكلمات المدح والثناء والتجليل والاحترام فمثلاً:

١ - يقول بالنسبة إلى النبي زكريا ويحيى وغيرهما:

«إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خاشعين» (١).

فاذا أقيم حفل تكريمي لهؤلاء الأنبياء، ووقف خطيب يتحدّث عنهم بمثل ما جاء في القرآن الكريم من كلمات المدح والثناء لهم، وذكرهم بالتجليل والاحترام،.. فهل ارتكب خطيئة بذلك، سوى أنه اقتدى بالقرآن الكريم؟!!

٢ - ويقول بالنسبة إلى أهل البيت - عليهم السلام -:

«وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» (٢).

فاذا اجتمع شیعة الامام علي أمير المؤمنين - عليه السلام - في يوم ميلاده الشريف، وقال خطيبهم: إنَّ هذا الامام هو من اولئك الذين قدّموا طعامهم للمسكين والیتيم والأسیر، فهل هذا یعنی أنهم عبده؟!

و هكذا الحال بالنسبة الى ميلاد رسول الله - صلی الله عليه وآله وسلم - فاذا أقمنا احتفالاً عظيماً يوم ميلاده السعيد وتحدّثنا فيه عن الآيات القرآنية التي امتدحت النبي - صلی الله عليه وآله وسلم - أو ترجمناها من اللغة العربية الى غيرها - حسب ما يقتضيه ذلك الحفل - أو ذكرنا معنى تلك الآيات في قوالب شعرية، أو ماشابه ذلك، فلماذا نكون عاصين بهذا العمل!!؟

إن الوهابيين هم أعداء تكريم الأنبياء والأولياء، ويُلَبسون عداؤهم هذا بلباس الدين فيقولون: إن التكریم بدعة، منعاً من إقامته بين المسلمين.

أيها القارئ الكريم: إن الموضوع الذي تُثيره الوهابية الشاذة وتهرج ضده في أبواقها الدعائية هو أن الاحتفال بذكرى الأولياء - بما أنه يُقام باسم الاسلام - يجب أن يُقرّه الاسلام بنصّ خاص أو عام، وإلا فهو بدعة وحرام.

و الجواب على هذا واضح جداً، إذ أن الآيات القرآنية التي تدعونا الى ضرورة تكريم النبي - صلی الله عليه وآله وسلم - كافية في الجواز، وأن هذه الاحتفالات والمراسيم لا تقام إلا «تكريماً» للأنبياء والأولياء فقط.

فالهدف من هذه المراسيم والاحتفالات - التي تُزاو لها كافة الشعوب في العالم - ليس إلا التكريم والتقدير للشخصيات البارزة، وأن هذه الاحتفالات متداولة لدى كافة الشعوب الاسلامية، باستثناء الشردمة «التجدية» المعقدة فقط، فلو كان هذا العمل بدعة وظاهرة جديدة ومخالفاً للشريعة الاسلامية لما كان علماء الاسلام - في الأقطار الاسلامية كلها - يقيمون بأنفسهم هذه الاحتفالات ويشتركون فيها بإلقاء الكلمات والقصائد، مما يزيد الاحتفال بهجة وحيوية وحبوراً.

القرآن وتكريم الأنبياء والأولياء

و الآن نذكر بعض الأدلة من القرآن الكريم على جواز تكريم الأنبياء والأولياء فيما يلي:

الآية الاولى:

إن القرآن الكريم يُشيد بجماعة كَرَّمَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فيقول:

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١).

إن الكلمات التي وردت في هذه الآية هي:

١ - «آمَنُوا بِهِ».

٢ - «عَزَّرُوهُ» .

٣ - «نَصَّرُوهُ» .

٤ - «اتَّبَعُوا النَّوْرَ» .

هل یحتمل أحد أن تكون هذه الكلمات والأوصاف خاصة بزمن النبى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -؟! بالتأكيد: لا.

ومع انتفاء هذا الاحتمال قطعاً، تكون كلمة «عَزَّرُوهُ» التي هي بمعنى التكریم والتعظيم (١) - عامة لحياة النبى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وبعد وفاته، فالله تعالى يريد أن يكون حبيبه المصطفى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - معظماً مكرماً حتى الأبد. ونتساءل: أليست إقامة الاحتفالات في يوم ميلاد النبى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وبعثته، وإلقاء الخُطب والقصائد، مصداقاً واضحاً لقوله تعالى: «عَزَّرُوهُ»؟!

يا للعجب!! إن الوهابيين يُعَظِّمون شخصياتهم وأمرأهم أكبر تعظيماً، يعتبرون جزء منه بدعة وشركاً إذا كان للنبي أو لمبیره ومحرابه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -!!

إن الوهابية -بهذه العقائد الجاقفة- تُشَوِّه سمعة الاسلام أمام الرأي العام العالمي، وتُعرِّفه ديناً عارياً عن كل عاطفة، وفاقداً للمشاعر الانسانية، وناقصاً عن كل تكريم واحترام، ورافضاً لتكریم عظمائه وقادته، وبهذا تُنْفِر الناس من الاسلام وتتركهم

(١) راجع كتاب مفردات القرآن: للراغب، مادة: عزز.

في رفضٍ واشمئزازٍ منه.

تماماً... بعكس الإسلام الذي جعله الله ديناً سهلاً سمحاً يتجاوب مع الفطرة البشرية ويتماشي مع العاطفة الانسانية، ويجذب - بجماله وروعته - الشعوب والأمم إلى اعتناقه.

الآية الثانية:

إن الزمرة الوهابية - التي تُعارض كلَّ نوع من أنواع العزاء والبكاء على الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله - ماذا تقول بشأن ما حصل للنبيِّ يعقوب - عليه السلام -؟!

إذا كان هنا النبيُّ الكريم اليوم حياً يعيش بين أهالي «نجد» وأتباع محمد بن عبد الوهاب، كيف كانوا يحكمون عليه؟!

لقد كان يعقوب - عليه السلام - يبكي على فراق ولده يوسف ليلاً ونهاراً، ويستفسر عنه ويترنَّم باسمه حتى: «ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ» (١).

وبالرغم من كلِّ ما كان يعاني منه يعقوب من ابضاض العين وحُزن القلب وألم الفراق، فإنه لم ينسَ ابنه يوسف، بل كان يزداد شوقاً إليه كلما قرب الوصال واللقاء به، حتى أنه شمَّ ريح يوسف من مسافة بعيدة. قال تعالى عن لسانه:

«إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّا تُفَنِّدُونَ» (٢).

(٢) سورة يوسف: آية ٩٤.

(١) سورة يوسف: آية ٨٤.

فكيف تكون هذه المحبة والمودة والتعبير عن العلاقة الشديدة بالمحجوب «يوسف» في حياته عملاً صحيحاً ومتفقاً مع توحيد الله تعالى، ولكنها تنقلب بدعة وحراماً بعد وفاته؟! مع العلم أن فراق العزيز وموته يترك القلب في نيران الأسى والحزن والألم بصورة أكثر من فراقه في حياته.

و اليوم... إذا اجتمع المؤمنون -الذين يشبهون يعقوب في حُزنه- في عزاء وليّ من أولياء الله -كالأئمة الطاهرين الذين يشبهون يوسف في مصابه، بل مُصابهم أشدّ منه كثيراً- وأحيى المؤمنون ذكر ذلك الوليّ الصالح، بالكلمات والخُطب والقصائد، وردّدوا سيرته وخُلُقَه الكريم وخصاله الحميدة وسلوكه الطيّب، ثم ذرفوا دموع العاطفة والحنان عليه... فهل معنى هذا كلّهم عبدوا ذلك الولي؟! قليلاً من التفكّر والموضوعية! قليلاً من الفهم والمعرفة!

الآية الثالثة:

قال تعالى:

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» (١).
مما لا شكّ فيه أن مودة ذي القربى هي إحدى الفرائض

الدينية التي نصَّ عليها القرآن بكلِّ صراحة (١) فلو أراد شخص أن يؤدي هذا الواجب الديني - بعد أربعة عشر قرناً - فإذا يجب أن يفعل والحال هذه؟!!

أليس المطلوب أن «يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم»؟! فلو أقام مراسم خاصة أشاد فيها بشخصية ذلك العظيم وحياته المتألّاة وفضائله الكريمة وتضحياته الجبّارة، واستعرض جانباً من آلامه وما جرى عليه من المصاعب والمصائب... فهل ارتكب حراماً بعمله هذا؟ أم أنه أحیی ذكر ذلك العظيم وأدى «المودّة» تجاهه؟!!

ولو أن الانسان - لمزيد المودّة في القربى - تفقّد من ينتسب الى ذوي القربى، وقام بزيارة قبور ذوي القربى وأقام تلك المجالس عند مراقدهم... ألا يحكم العقلاء وأهل البصيرة والدين بأنه يؤدي فريضة «المودّة في القربى»؟!!

إلا أن يقول الوهابيون: إن الواجب هو كتمان المودّة في النفوس وعدم إبرازها بأيّ وجه ممّا هو ثابت البطلان!.

لقد شهد عصر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وما بعده من العصور التي عاشت تغييراً في العقائد وتحولاً في الأفكار - شهد إقبالاً عظيماً من الشعوب والأمم المختلفة تجاه الاسلام، حتى قال تعالى:

(١) لقد وردت عشرات الأحاديث عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في أن «القربى» في الآية هم أهل البيت - عليهم السلام -.

«وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» (١).

و كان الاسلام يحتضنهم ويكتفي منهم - في البداية - بالشهادتين، مع محافظتهم على ثقافتهم وآدابهم وتقاليدهم، ولم يعمل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن جاء من بعده، على فرض الرقابة على عادات الشعوب وتقاليدها، وصهرها في بوتقة واحدة.

إن احترام كبار الشخصيات وإقامة مجالس العزاء في ذكريات وفاتهم، والاجتماع عند مراقدهم، وإظهار الحب والمودة لهم... كل ذلك كان ولا يزال أمراً متداولاً لدى كافة الشعوب في العالم كله.

وفي عصرنا الحاضر... ترى الشعوب الشرقية والغربية تقف ساعات طويلة في الانتظار لزيارة الأجساد المحنطة لزعمائها وقبور قادتها القدامى، ويزرفون دموع الشوق بجوارها، ويعتبرون ذلك نوعاً من الاحترام والتقدير.

ولم يُعهد من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يجري تحقيقاً عن عقائد الناس وآدابهم المعروفة - أولاً - ثم يوافق على دخولهم في الاسلام، بل كان يكتفي بتشهدهم للشهادتين، ولو كانت هذه العادات محرمة وعبادة لتلك الشخصيات لاشرط عليهم البراءة والتخلي من كل ما لديهم من عادات وتقاليد، ثم الدخول في الاسلام، ولم يكن الأمر كذلك.

الآية الرابعة:

إن النبي عيسى -عليه السلام- سأل من ربه أن يُنزل عليه مائدة من السماء، ويعتبر يوم نزولها عيداً له ولأصحابه. يقول القرآن الكريم - عن لسان عيسى - :

«رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (١).

فهل -ياترى- أن شخصية الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- أقل شأناً من تلك المائدة التي اتخذ المسيح يوم نزولها عيداً؟! إذا كان اتخاذ ذلك اليوم عيداً لكون المائدة آية إلهية ومعجزة سماوية... أليس نبي الإسلام أكبر آية إلهية ومعجزة القرون والعصور؟!

تَبَّاً وبعدها لقوم يوافقون على اتخاذ يوم نزول المائدة السماوية -التي لم يكن لها شأن سوى إشباع البطون الجائعة- عيداً، ولكنهم يُهملون يوم نزول القرآن على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ويوم مبعثه الشريف، بل ويعتبرون الاحتفال به بدعة وحراماً!!

الآية الخامسة:

قال سبحانه:

«وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (٢).

(٢) سورة الانشراح: آية ٧.

(١) سورة المائدة: آية ١١٤.

إن إقامة المجالس و الاحتفالات هي نوع من رفع الذكر، والمسلمون لا يهدفون من الاحتفال بميلاد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومبعثه وغير ذلك من المناسبات الدينية سوى رفع ذكره و ذكر أهل بيته الأطهار-عليهم السلام- .

فلماذا لا نقتدي بالقرآن؟! .!

أليس القرآن قدوة واسوة لنا؟! .!

هذا... وليس لأحد أن يقول: «إن رفع ذكره -صلى الله عليه وآله وسلم- خاص بالله سبحانه ولا يشمل غيره» لأن ذلك يشبه أن يقول: إن نصر النبي خاص بالله سبحانه ولا يجوز لأحد من المسلمين أن ينصره وقد قال تعالى:

«وَتَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا» (١).

ولعلّ الهدف من هذه الآيات هو دعوة المسلمين الى نصر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتخليد ذكره وإحياء اسمه ورسمه.

التناقض بين قول الوهابية وعملها

والعجب من هؤلاء الوهابيين... كيف يُحرّمون الاحتفال بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبيوم ميلاده المبارك، ذلك النبي الذي أسدى الى البشرية عاقبة أعظم العطاء الزاخر الدائم، ويعدّون الاحتفاء به والاحتفال بميلاده شركاً، ولكنهم يقيمون الاحتفالات الضخمة تشييداً لرجالهم وأمرائهم، ويُنفقون -في هذا

السبيل - ملايين الريالات، تقديراً لخدماتهم - كما يزعمون - .
انظر الى العدد ١٠٢ من مجلة الفيصل - التي تصدر في طباعة
أنيقة جداً في السعودية - فهو يحتوي على تقرير مفصّل عن
الاحتفالات الكبرى التي أقامتها سلطات الاحتلال السعودي بمناسبة
عودة «الأمير سلطان» من الرحلة الفضائية في مركبة «ديسكفري» .

ويحتوي هذا العدد على صور كثيرة تُنبئ عن حجم المبالغ
الطائلة التي صرفت في تلك الاحتفالات، وقد نُشرت الكلمات
والقصائد التي أُلقيت في تلك الاحتفالات، وتقرأ فيها المدح
المفرط والثناء المسرف لآل سعود عامة وللأمير خاصة!!

بالله عليك - أيها القارئ - هل يستحقّ أمير - لم يفعل شيئاً سوى
أنه رافق مجموعة من الأجانب الغربيين في رحلة فضائية أعدّها
الأمريكيون - هل يستحقّ هذا الاحتفاء والتكريم وصرف الأموال
الطائلة، وهدر الطاقات والنشاط فيما لا فائدة فيه... ولا يستحقّ
رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي أخرج الناس من
الظلمات الى النور، وحلّق بهم في سماء الكمال المعنوية
والفضائل النفسية والصفات العالية وأنقذهم من كلّ سوء
وانحطاط وضلال وضياع وانحراف .

ألا يستحقّ رسول الإسلام أن تُخلّد ذكرى مولده الشريف،
وتُعَدّد مناقبه وفضائله وإنجازاته العظيمة وعطاؤه الزاخر وخدماته
الجليلة وجهاده وجهوده وغير ذلك، حتى تعرف الأجيال - على
امتدادها - ما أسداه هذا النبي العظيم من خدمة، وما قدّمه من

عطاء، وما تحمّل من عناء وعذاب في سبيل هداية البشرية؟!
 وهل التكرم إلا الاحتفاء والاحتفال به ونشر قيمه الفاضلة
 والحث على الاقتداء به والأخذ بهديه والمحافظة على آثاره؟!
 وكيف لا يجوز مدح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وإلقاء
 القصائد في فضله وعظمته، ويجوز مدح آل سعود والأمراء الفسقة
 الذين ليسوا إلا وبالاً على المجتمع وضرراً على الأمة؟!!

ما هذا التناقض بين القول والعمل الذي يقع فيه الوهابيون دائماً؟!
 لماذا يمنعون إقامة الاحتفالات بمولد النبي الأكرم، بحجة أنه
 لم يرد في الشرع الاسلامي، ولكنهم يقيمون أعظم الاحتفالات
 والمهرجانات لرجالهم السياسيين؟! قال تعالى:

«وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
 إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ» (١).

إن المسلمين درجوا من قديم الأيام على الاحتفال بميلاد النبي،
 يقول «الديار بكرى».

«... ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون
 الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور،
 ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من كراماته
 كل فضل عميم» (٢).

الفصل العاشر

التبرُّك والاستشفاء بآثار أولياء الله

تعتقد الوهابية بأن التبرُّك بآثار أولياء الله شريكٌ بالله، وتعتبر الذي يُقبَل محراب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ومنبره مشركاً وإن لم يأتِ بذلك بنية العبادة، بل كانت المحبة والمودة تجاه النبي الكريم هي الدافع له الى التبرُّك والاستشفاء باثاره -صلى الله عليه وآله وسلم- .

إن المنع من التبرُّك بآثار الرسول الأكرم وتقبييل ضريحه المقدس ومنبره الشريف هو من أشدّ الإجراءات التي يتّخذها الوهابيون ضدّ المسلمين، وقد استخدموا مجموعة من الشرطة الإرهابيين باسم «الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر!!» ووزّعوهم في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- للحيلولة دون تقبييل ضريحه المقدس ومنبره الشريف ومحراب مسجده المبارك ، وهؤلاء الوهابيون يواجهون المسلمين الحُجاج بكلّ خشونة وصلافة ويمنعونهم عن التبرُّك والتقبييل، وطالما أمسكوا بأيديهم العصا أو الأسلاك الغليظة، وطالما أراقوا- في هذا السبيل- دماء الأبرياء

وهتكوا الأعراض والنواميس في حرم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- زعماً منهم أن التبرُّك والتقبيل عبادة لصاحب القبر. إن هؤلاء الغرباء عن الإسلام أخطأوا في فهم معنى العبادة ومفهومها، ولهذا تاهوا في متاهات الضلال والباطل، فاعتبروا كلَّ احترام للميت عبادة له، مع العلم أن تقبيل الضريح المقدس والتبرُّك بالآثار النبوية إنما هو في سبيل الله سبحانه، لأن المسلمين لا يكرمون النبي الأكرم ولا يتبركون به وبآثاره إلا لأنه رسول الله ونبيُّه الحبيب المصطفى، الذي شرَّفه الله على كلِّ الأنبياء والمرسلين وفضَّله على الخلق أجمعين، فكلَّ تكريم وتعظيم لأولياء الله إنما هو تعظيم لله سبحانه، وليست حقيقة التوحيد إلا أن يكون كلُّ شيء لله ومن أجله وفي سبيله، وعند ذلك يكون الله هو المبدأ كما يكون هو المنتهى.

وسوف نتحدَّث -في الفصل القادم- عن العبادة ومفهومها بالضبط والتحقيق.

أما الآن فالبحث عن التبرُّك بآثار الأولياء، فيجب أن نعرض المسألة على كتاب الله وسُنَّة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- كي يتجلَّى الحقُّ بأجلَى مظاهره.

القرآن والتبرُّك

نكتفي من القرآن الكريم بآية واحدة، وهي عن لسان النبي

يوسف -عليه السلام- :

«إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَيَّ وَجْهِي أَبِي يَأْتِ بِصَبْرًا» (١).

إن النبي يوسف أرسل قميصه الى أبيه، وقال لإخوانه: إذهبوا بقميصي هذا والقوه على وجهه حتى يعودُ اليه بصّره.
يقول تعالى:

«فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا» (٢).

فهذه الآية صريحة بجواز التبرك بآثار الأنبياء والأولياء حتى لنبي آخر، فهذا النبي يعقوب يتبرك بقميص النبي يوسف -عليهما السلام- ومن الواضح أن الشفاء من الله سبحانه، فهو المؤثر في الأشياء، إلا أن التبرك بالقميص صار وسيلة للشفاء كما يكون الدواء كذلك بإذن الله تعالى.

ياترى... اذا كان تبرك النبي يعقوب بقميص ابنه يوسف يقع أمام النجديين وأتباع محمد بن عبد الوهاب ماذا كان يحكمون عليه؟ بالكفر؟ بالشرك؟ بالذنب؟ وهو النبي المعصوم عن الخطأ والاشتباه!

إن تبرك المسلمين بضريح رسول الله وآله الطاهرين وبآثارهم -صلى الله عليه وعليهم أجمعين- لا يختلف عن تبرك النبي يعقوب بقميص ابنه يوسف -عليهما السلام-.

التبرك وسيرة المسلمين

إن نظرة خاطفة في سيرة المسلمين -بدءً من الصحابة والى هذا

(٢) سورة يوسف: آية ٩٣.

(١) سورة يوسف: آية ٩٢.

اليوم- تكشف لنا عن السنَّة المتَّبعة لديهم تجاه التبرُّك بالنبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وآثاره الشريفة طوال التاريخ، وفيما يلي نذكر نماذج من ذلك، مع مراعاة الاختصار:

١- إن فاطمة الزهراء سيِّدة نساء العالمين بنت رسول الله حضرت عند قبر أبيها -صلى الله عليه وآله وسلم- وأخذت قبضة من تراب القبر تشمّه وتبكي وتقول:

ما ذا على من شمَّ تربة أحمد

ألا يشمَّ مدى الزمان غواليها

صُبَّتْ عليّ مصائب لوأنها

صُبَّتْ على الأيام صيرن لياليا (١)

إن هذا التصرّف من السيِّدة الزهراء المعصومة لا يدلّ إلا على جواز التبرُّك بقبر رسول الله وتربته الطاهرة.

٢- إن بلال- مؤدّن رسول الله- أقام في الشام في عهد عمر بن الخطاب فرأى في منامه النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يقول له:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟»

فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- فجعل يبكي عنده ويُمِرِّغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين -عليهما السلام- فجعل يضمّهما

(١) لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرّخين، منهم السمهودي في وفاء الوفا: ج ٢ ص ٤٤٤، والخالدي في صلح الاخوان: ص ٥٧ وغيرهما.

ويقبلها... الى آخر الخبر(١).

٣- قال ابن حجر:

«كلّ مولودٍ وُلد في حياة النبيّ -ص- يُحكّم بأنه رآه، وذلك لتوقّر

دواعي إحصار الأنصار أولادهم عند النبيّ -ص- للتحنيك والتبرك ،

حتى قيل: لما افتتحت مكة جعل أهل مكة يأتون الى النبيّ بصبيانهم

يُسمح على رؤوسهم ويدعوهم بالبركة»(٢).

وفي ذلك يقول مؤلف كتاب «تبرك الصحابة».

«لا شك أن آثار رسول الله -صفوة خلق الله وأفضل النبيين- أثبت

وجوداً وأشهر ذكراً، فهي أولى بذلك «التبرك» وأحرى، وقد

شهده الجَمّ الغفير من الصحابة وأجمعوا على التبرك بها، والاهتمام

بجمعها، وهم الهداة المهديون والقدوة الصالحون، فتبركوا بشعراته

وبفضل وضوئه، وبقرّقه، وبثيابه، وبمسّ جسده الشريف، وبغير ذلك

مما عُرف من آثاره الشريفة التي صحّت به الأخبار عن

الأخبار»(٣).

ويكفي في ذلك ما ذكره مسلم في صحيحه:

«إن رسول الله -ص- كان يؤتى اليه بالصبيان فيُبرك عليهم

ويُحنّكهم»(٤).

(١) أسد الغابة: لابن الأثير ج ١ ص ٢٨.

(٢) الاصابة: ج ٣ ص ٦٣١.

(٣) تبرك الصحابة: ص ٥.

(٤) صحيح مسلم: ج ٣ ص ١٦٩١.

٤ - وقد كان الصحابة يتبرِّكون بفضله وضوئه وغسله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقد روى البخاري:

«خرج علينا رسول الله بالهاجرة، فأتي بوضوء فتوضأ، فجعل الناس

يأخذون من فضل وضوئه ويتمتحنون به» (١).

وقد وردت في ذلك روايات مَلَأَتِ الصَّحَاحَ وَالْمَسَانِيدَ.

٥ - وكان الصحابة يتبرِّكون بشعره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقد روى أنس:

«أن رسول الله لَمَّا حَلَقَ رَأْسَهُ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ

شَعْرَهُ» (٢).

إن قوله: «كان أبو طلحة أول من أخذ شعره» يدل على أن الصحابة تسابقوا إلى التبرُّك بشعره المبارك، وكان أبو طلحة أول من أخذ من شعره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

وروي أيضاً:

«أن رسول الله أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى، ثم

قال للحلاق: خُذْ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يُعْطِيهِ

الناس» (٣).

٦ - كما كانوا يتبرِّكون بالإِنَاءِ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ - صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -:

(١) صحيح البخاري: ج ١ ص ٥٩، فتح الباري: ج ١ ص ٢٥٦.

(٢) صحيح البخاري: ج ١ ص ٥٤.

(٣) صحيح مسلم: ج ٣ ص ٩٤٧.

«قال أبو بردة: قال لي عبدالله بن سلام: ألا اسقيك في قَدَحٍ شرب

النبي فيه» (١).

ويُفهم من الرواية أن عبدالله بن سلام كان يحتفظ بذلك القَدَح، لكونه اكتسب البركة بشُرب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فيه.

٧ - وكانوا يتبركون بيديه الشريفتين:

«عن أبي جحيفة قال: خرج رسول الله بالهاجرة الى البطحاء، فتوضأ

ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين...

الى أن قال: وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه، فيمسحون بها

وجوههم.

قال: فأخذتُ بيده فوضعتُها على وجهي، فاذا هي أبرد من الثلج

وأطيب رائحة من المسك» (٢).

٨ - وكانوا يتبركون بمنبره الشريف:

«عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عبدالقارئ أنه نظر الى ابن عمر وقد

وضع يده على مقعد المنبر حيث كان النبي يجلس عليه، ثم وضعها

على وجهه» (٣).

٩ - كما كانوا يستشفون بقبره الشريف:

«روي عن أمير المؤمنين علي [عليه السلام] أنه قال: إن أعرابياً قَدِم

(١) صحيح البخاري: ج ٧ ص ١٤٧، فتح الباري: ج ١٠ ص ٨٥.

(٢) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٨٨.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ١ القسم الثاني ص ١٣.

علينا بعد ما دفن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبي، وحشا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلتَ فسمعنا قولك، ووَعَيْتَ عن الله سبحانه فَوَعِينَا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: «ولوأنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك...» وقد ظلمتُ وجئتُك تستغفري. فنودي من القبر: قد عُفِرَ لَكَ» (١).

والخلاصة: إن من يراجع كتب الصحاح والسنن والمسانيد والتواريخ، يرى أن الصحابة والتابعين كانوا يتبركون بكل ما يرتبط بالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ويستشفعون بقبره، بوضع الخنث عليه، وشم تربته، والبكاء عنده، بل والتبرُّك بعصاه وملابسه، والصلاة في الأماكن التي صَلَّى فيها النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أو مشى فيها.

وهذه الروايات على حدٍّ من الكثرة والتواتر بحيث يستحيل عند العقل أن تكون موضوعة ومجعولة، وكيف تكون كذلك وقد رواها الشيخان: البخاري ومسلم، وغيرهما من أعلام الحديث. وقد قام بجمع هذه الروايات وتوضيحها مع ذكر مصادرها الفاضلان المحققان:

الاستاذ الشيخ محمد طاهر مكي في كتابه «تبرُّك الصحابة بآثار رسول الله» والاستاذ الفند الشيخ علي الأحمدي في كتابه القيم «التبرُّك» وقد استقصى فيه المؤلف كل ما ورد حول التبرُّك، والكتاب يُعتبر من حسنات العصر.

(١) كنز العمال: ج ٢ ص ٢٤٨، وفاء الوفا: ج ٢ ص ١٣٦١.

فإذا تقول الوهابية تجاه هذه الأحاديث المتواترة لفظاً ومعنى؟!!

وما هو موقفهم من هذه الحقيقة الساطعة؟!!

ولماذا هذه الضجة العمياء التي تثيرها حول التبرك بضريح رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والذي جرت عليه سيرة السلف من الصحابة والتابعين، دون أن يروا أي استنكار أو استقباح أو منع أو تحريم من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو من حوله من الصحابة؟!!

ولماذا لا يتركون المسلمين ليُقبَلوا بضريح رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويتبركوا به، ويُعبّروا عن مشاعرهم وعواطفهم تجاه نبي الله؟!!

أفلا يعلمون أن النهي عن التبرك بالضريح النبوي الطاهر وآثار رسول الله كان من دأب الأمويين لاسيما مروان الذي لعنه رسول الله؟!!

١٠ - تعالَ واقراً ما يرويه الحاكم في المستدرک عن داود بن

صالح، قال:

«أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته ثم

قال: هل تدري ما تصنع؟

فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري فقال: نعم إني لم آت الحَجْر،

إنما جئتُ رسولَ الله ولم آت الحَجْر، سمعتُ رسولَ الله يقول: لا تبكوا

على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غيرُ

أهله» (١).

قال المرحوم الشيخ الأميني:

«إن هذا الحديث يُعطينا خبراً بأن المنع عن التوسل بالقبور الطاهرة إنما هو من بدع الأمويين وضلالاتهم، منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أذن الدنيا قط صحابياً يُنكر ذلك، غير-وليُد بيت أمية- مروان الغاشم!!

نعم... «التورِيحمي أنفه بِرَوْقه» (٢).

نعم... «بعلة الورشان يأكل رطب الورشان».

نعم... لبني أمية- عاقمة- ولمروان- خاصة- ضغينة على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- منذ يوم لم يُبق- صلى الله عليه وآله وسلم- في الأسرة الأموية حرمة إلا هتكها، ولا ناموساً إلا مزقه، ولا ركناً إلا أباده، وذلك بوقيعته- صلى الله عليه وآله وسلم- فهم وهولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، فقد صح عنه- صلى الله عليه وآله وسلم- قولُه: «إذا بلغت بنو أمية أربعين، إتخذوا عباد الله خولا، ومال الله نحلا، وكتاب الله دغلا» (٣).

(١) مستدرک الصحيحین: للحاکم ج ٤ ص ٥١٥.

(٢) الرّوق: القرن، وهنا مثلاً يُضرب لمن يُدافع عن شخصيته وعرضه.

(٣) الغدير: ج ٥ ص ١٢٩ - ١٣٠.

وترى أن أبا أيوب الأنصاري يردّ على مروان - لَمَّا قال له:
هل تدري ما تصنع؟ - بقوله: نعم إني لم آتِ الحَجْرَ، إنما جئت
رسول الله ولم آتِ الحَجْرَ..

أي: إن الهدف من التوسّل والتبرّك هو رسول الله - صَلَّى اللهُ
عليه وآله وسلّم - الذي نعتقد بعدم الفرق بين حياته ومماته - من
هذه الجهة - وإلا فالتراب والحَجْر لا قيمة لهما، إلا أن الحجر
والتراب حول قبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - قد اكتسبا
القيمة والشرف بذلك .

أيها القارئ الكريم: إن البخاريّ قد عقد في صحيحه - الذي
يُعتبر أصح الكتب عند أهل السُنّة - باباً سَمَّاه: باب ما ذُكر من
درع النبيّ - ص - وعصاه وسيفه وقَدْحه وخاتمه وما استعمل
الخلفاء بعده من ذلك - ممَّا لم يُذكر قسمته - ومن شَعْره ونعله
وآنيته ممَّا يتبرّك أصحابه وغيرهم بعد وفاته (١) .

فاذا وقف الوهابي على هذه الأحاديث الهائلة - التي تجاوزت
المائة - فلا مناص له من قبول الحقّ والاعتراف به إن كان ممّن
يستمع القول فيتبع أحسنه، وإلا فإن يوم الفصل كان ميقاتاً .

التوحيد في العبادة

لقد كانت عبادة الله وحده - لا عبادة غيره منفرداً أو مشتركاً - أساس دعوة الأنبياء - عليهم السلام - وكان توحيد الله وكسركيود الشرك أساس الأحكام السماوية وفي طليعة رسالات الأنبياء جميعاً، فكأن الهدف من بعثة الأنبياء هو الدعوة الى عبادة الله وحده ومكافحة الشرك بصورة عامة وفي العبادة بصورة خاصة.

و القرآن الكريم يشير الى هذه الحقيقة بصراحة فيقول:

١ - «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الظَّالِمَاتِ» (١).

٢ - «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُونِ» (٢).

وقد اعتبر القرآن الكريم عبادة الله جامعاً مشتركاً بين كافة

الشرائع السماوية فقال:

(١) سورة النحل: آية ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٢٥.

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» (١).

إن التوحيد في العبادة هو أصل ثابت لدى المسلمين كافة، ولا يعارضه أحد ولا تختلف فيه أية فرقة من الفرق الاسلامية.

و اذا كانت المعتزلة تختلف وجهة نظرها حول «توحيد الأفعال» وكذلك الأشاعرة تختلف حول «توحيد الصفات» فإن جميع المذاهب والطوائف الاسلامية تتفق حول «توحيد العبادة» ولا مجال لإنكاره، وإن كان هناك اختلافٌ وإنما هو في المصاديق لا في الأصل، أي أن بعض المسلمين يعتبر بعض الأفعال عبادة، في حين يعتبره سائر المسلمين تكريماً وتعظيماً لا غير.

و بالاصطلاح المنطقي: إن الاختلاف إنما هو في «الصغرى» -وهو: هل أن هذا الفعل عبادة أم لا؟- ولا اختلاف في «الكبرى» -وهو: هل تجوز عبادة غير الله أم لا؟ فهذا متفق على جوازه-.

و بعبارة أخرى: إن الاختلاف إنما هو في سلسلة أعمال يعتبرها الوهابيون عبادة، ولكن غيرهم من المسلمين -في العالم كله- لا يعتبرونها عبادة أصلاً.

فالمفروض أن نوضح معنى «العبادة» لغوياً وعلى ضوء القرآن الكريم أيضاً، وعند ذلك ستتضح المصاديق -المختلف فيها- بنفسها تلقائياً، ويظهر لنا -بالتحديد والتحقيق- معنى «العبادة».

تحديد معنى العبادة والتعريف الكامل لها

إن «العبادة» معناها ومفهومها واضح في اللغة العربية، ولو لم نتمكن من تعريفها تعريفاً منطقياً بكلمة واحدة، فهي كالأرض والسماء اللتين لهما معنيان واضحان، بالرغم من أن الكثير منا لا يستطيع تحديده بكلمة واحدة تحديداً كاملاً، ولكن ذلك لا يمنع من تجسّم معنى الأرض والسماء في أذهاننا عند سماع لفظيهما. إن معنى «العبادة» كمعنى الأرض والسماء تماماً، معروف ومفهوم لدينا جميعاً، بالرغم من عدم القدرة على تعريفهما تعريفاً منطقياً، ف«العبادة» و«التعظيم» و«الاحترام» و«التكريم» ألفاظ متعدّدة لها مصاديق معروفة، والفصل بينها سهل يسير.

إن الذي يعشق أحداً ويُغرم بحبه، تراه يُقبّل جدران بيت معشوقه ويشمّ ملابسه ويلصقها على صدره، وبعد وفاته يُقبّل قبره ويلثم تربته... ومع ذلك كلّه لا يُعتبر أحد عمل هذا العاشق عبادة للمعشوق.

كما أن مسارعة الناس الى مشاهدة الأجساد المحنّطة للزعماء في العالم، أو مشاهدة آثارهم ومنازلهم التي كانوا يعيشون فيها، والوقوف دقائق حداداً على أرواحهم كلّ هذا لا يُعتبر عبادة عند أيّ شعب من شعوب العالم، ولو كان حبّهم وخشوعهم لأولئك على مستوى خشوع المؤمنين لله سبحانه، فإن أهل المعرفة والتحقيق هم الذين يستطيعون الفصل بين الاحترام وبين العبادة.

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ: وَ إِذَا حَاولْنَا ان نُقَدِّمَ تَعْرِيفاً مَنْطِقِيّاً لـ «العبادة» فَإِنَّ لَهَا ثَلَاثَةَ تَعَارِيفٍ، وَكَلَّ هَذِهِ التَّعَارِيفُ تَهْدَفُ مَعْنَى وَاحِداً.

وَ قَدْ اخْتَارَ الْوَهَابِيُّونَ تَعْرِيفَيْنِ آخَرَيْنِ وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِمَا، وَلَكِنَّهَا نَاقِصَانِ غَيْرِ كَامِلَيْنِ، وَفِي مَا يَلِي نَذَرَهُمَا لِلْمُنَاقَشَةِ:

تَعْرِيفَانِ نَاقِصَانِ لِلْعِبَادَةِ

أ - الْعِبَادَةُ: خُضُوعٌ وَتَذَلُّلٌ.

لَقَدْ وَرَدَ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ تَعْرِيفُ «الْعِبَادَةِ» بِ: الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ (١) وَلَكِنْ هَذَا التَّعْرِيفُ لَا يَعْكُسُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ بِصُورَةٍ دَقِيقَةٍ، وَذَلِكَ لِمَا يَلِي:

١ - إِذَا كَانَتْ «الْعِبَادَةُ» مُرَادَفَةً - فِي الْمَعْنَى - لِلْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَ أَيَّ إِنْسَانٍ مُوَحَّداً لِلَّهِ، لِأَنَّ الْبَشَرَ - بِفِطْرَتِهِ - يَخْضَعُ لِمَنْ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِ، مَعْنَوِيّاً أَوْ مَادِيّاً، كَالتَّلْمِيذِ يَخْضَعُ لِأُسْتَاذِهِ، وَالْوَلَدُ يَخْضَعُ لِوَالِدِيهِ، وَكَلَّ مَحَبَّةً لِحَبِيبِهِ.

٢ - إِنْ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَأْمُرُ الْإِنْسَانَ بِأَنْ يَتَذَلَّلَ لِوَالِدِيهِ فَيَقُولُ:

«وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا

رَبَّيْنِي صَغِيرًا» (٢).

(١) وَ قَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِنْدَقَوْلِهِ «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تُمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ

بَنِي إِسْرَائِيلَ» الشُّعْرَاءُ/٢٢.

(٢) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: آيَةٌ ٢٤.

فاذا كان الخضوع والتذلل معناه عبادة من تذلل له، فهذا يستلزم الحكم بكفر من يبرّ والديه، كما أنه يستلزم الحكم بتوحيد من يعقّ والديه.

ب - العبادة: نهاية الخضوع.

لقد حاول بعض المفسرين - بعد أن أدركوا نقصان تعريف اللغويين للعبادة - ترميم هذا النقص وإصلاحه، فقالوا:

«العبادة: نهاية الخضوع بين يدي من تُدرك عظّمته وكماله».

وهذا التعريف يشترك مع التعريف الأول في النقص والإشكال وذلك:

١ - لأن الله تعالى يأمر الملائكة بالسجود لآدم فيقول:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» (١).

إن السجود هو نهاية التذلل والخضوع لمن سجدت له، فإذا كان معنى العبادة هو نهاية الخضوع فإنه يستلزم القول بكفر الملائكة الممثلين لأمر الله، وإيمان الشيطان المخالف لأمر الله.

٢ - إن اخوة النبي يوسف والديه سجدوا جميعاً ليوسف،

كما يقول تعالى:

«وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ، قَدْ

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» (٢).

و الرؤيا التي أشار إليها يوسف - في الآية - هي في قوله تعالى:

(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠٠.

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» (١).

٣ - إن كلّ المسلمين اقتداء برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يُقْبَلُونَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ الْمُسْتَقَرَّ فِي زَاوِيَةِ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِقَةِ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ، وَنَفْسَ هَذَا الْعَمَلِ يَقُومُ بِهِ عُبَادُ الْأَصْنَامِ تَجَاهَ أَصْنَامِهِمْ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ عَمَلَهُمْ ذَلِكَ شَرِكٌ قِطْعاً وَعَمَلُ الْمُسْلِمِينَ تَوْحِيدٌ قِطْعاً.

إذن: ليس معنى «العبادة» نهاية الخضوع والتذلل، وإن كانت في الحقيقة من أركان العبادة، إلا أنها ليست الركن الوحيد لها، فلا بدّ من القول بأن «العبادة» معناها الخضوع والتذلل المقرون بـ «الاعتقاد الخاص» فالعبادة تتكوّن من عنصرين:

١ - الخضوع والتذلل.

٢ - الاعتقاد الخاص.

وهذا «الاعتقاد الخاص» هو الذي يحسم الموقف ويفصل القضية... فالخضوع - حتى لو لم يكن كثيراً - إذا كان مقروناً «بالاعتقاد الخاص» فهو عبادة.

وفي الحقيقة إن «الاعتقاد الخاص» هو الذي يصبغ العمل بصبغة العبادة، وبدون «الاعتقاد الخاص» لا تتحقّق العبادة حتى لو كانت بمظهرها.

و الآن... وبعد أن أثبتنا بطلان التعريفين اللذين اعتمد

عليها الوهابيون، وظهر ضعفها ونقصها، يأتي دور التحدّث عن التعريفات الثلاثة للعبادة.

و السؤال الآن: ما هو «الاعتقاد الخاص» الذي يُفرز العبادة عن غيرها؟

الجواب: إن هذا - بالضبط - ما يتناوله البحث والتحقيق الآن، وسوف يظهر من خلال التعريفات الثلاثة الآتية:

التعريف الأول:

«العبادة» خضوع عملي أو لفظي ينبع من عقيدة الانسان بـ «الالوهية».

ما معنى «الالوهية»؟ هذه نقطة حساسة يجب تحديدها. الجواب: إن «الالوهية» مشتقة من «الإله» و «الإله» هو الله بصيغة النكرة - وهو الخالق سبحانه -.

و اذا كان «الإله» قد فُسر - أحياناً - بمعنى «المعبود» فإنما هو تفسير باللازم، أي أن الالوهية تستلزم العبودية، لا أن معنى الإله هو المعبود.

إن الأمم التي تعتقد بالإله تعتقد - بالتبع - بضرورة عبادته، سواء كان الإله حقاً - كالله سبحانه - أم باطلاً - كما سوى الله - ولهذا يُفسر الإله بالمعبود من هذه الجهة فقط.

و الدليل الواضح على هذا التعريف، هو الآيات التي وردت في هذا المجال، فمن خلال التأمل في تلك الآيات يظهر لنا أن

«العبادة» هي الأعمال والأقوال النابعة من الاعتقاد بالالوهية (١) وأن مع عدم هذا الاعتقاد لا تتحقق العبادة، ولهذا ترى القرآن الكريم -عند ما يأمر بعبادة الله- يستدل فوراً بأنه لا إله غيره، فمثلاً يقول:

«يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» (٢).

وقد ورد مضمون هذه الآية في تسع مواضع من القرآن أو أكثر، ويمكنك -أيها القارئ- مراجعة هذه الآيات في سورة الأعراف آية ٦٥ و٧٣ و٥٨، وسورة هود آية ٥ و٦١ و٨٤، وسورة الأنبياء آية ٢٥، وسورة المؤمنون آية ٢٣ و٣٢، وسورة طه آية ١٤. إن هذه العبارات تدل على أن العبادة هي ذلك الخضوع والتذلل النابع من الاعتقاد بالالوهية، وبدون هذا الاعتقاد لا يُسمى العمل عبادة.

وإليك المزيد من الآيات الدالة على هذا المقصود:
يقول تعالى:

«إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» (٣).

لماذا يستكبرون؟

(١) إن جعل الأصنام آله لا يعني أنها خالقة أيضاً ومديرة ومدبرة لشؤون الكون والانسان، بل إن للإله معنى واسعاً يشمل الإله الحقيقي والإله المنحوت والمختلق، فإذا اعتبرنا موجوداً ما مصدراً للأعمال الإلهية وتصورنا أنه يتصرف ما هو خاص بالله - كالشفاعة والمغفرة - وأنه مالك لها، فقد تصورناه إلهاً، ولكنه يُعتبر إلهاً صغيراً لا كبيراً.

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٩.

(٣) سورة الصافات: آية ٣٥.

لأنهم يعتقدون بألهة غير الله، و يعبدونها.
و يقول سبحانه:

«أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (١).

إن القرآن يعتبر هؤلاء مشركين، لأنهم يعتقدون بالوهية غير الله سبحانه.

و يقول عز وجل:

«الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (٢).

«وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...» (٣).

و مما يدل على أن دعوة المشركين كانت مقرونة بالاعتقاد بالوهية أصنامهم هي هذه الآيات:

«وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» (٤).

«أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى» (٥).

«وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً» (٦).

إن التأمل في الآيات التي تتحدث عن شرك عبدة الأصنام يكشف لنا عن هذه الحقيقة وهي أن شرك هؤلاء إنما كان بسبب اعتقادهم بالوهية أصنامهم المعبودة، وأن تلك الأصنام

(١) سورة الطور: آية ٤٣.

(٢) سورة الحجر: آية ٩٦.

(٣) سورة الفرقان: آية ٦٨.

(٤) سورة مريم: آية ٨١.

(٥) سورة الأنعام: آية ١٩.

(٦) سورة الأنعام: آية ٧٤.

هي آلهة صغيرة قد خَوَّلَ الإله الأكبر بعض صلاحياته اليهم، فهي مخلوقة ومعبودة في وقت واحد، ولهذا كانوا يرفضون دعوة التوحيد. يقول القرآن الكريم:

«ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» (١).

هذا و للمفسر القدير المرحوم آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي تعريفاً رائعاً للعبادة - في تفسيره القيم «آلاء الرحمن» - يقول:

«العبادة: ما يرونه مستشعراً بالخضوع لمن يتّخذها الخاضع إلهاً، ليوقيه بذلك ما يراه له من حق الامتياز بالإلهية» (٢).

إن المرحوم البلاغي قد صبّ نظريته العلمية - بإحياء من الفطرة - لكلمة «العبادة» في قالب اللفظ فجاء هذا التعريف الرائع الذي ينسجم - بالكامل - مع الآيات القرآنية.

التعريف الثاني للعبادة

إن العبادة هي الخضوع بين يدي مَنْ يعتبره «رَبّاً». ويمكننا ان نعرفها كالتالي: العبادة هي الخضوع العملي أو القولي لمن يُعتقد بربوبيّته، فالعبودية تلازم الربوبيّة، فاذا اعتبر إنسان نفسه عبداً لمن يعتقد رِبّاً تكوينياً - سواء كان ذلك ربّاً

(١) سورة المؤمن: آية ١٢.

(٢) تفسير آلاء الرحمن ج ١ ص ٥٧.

واقِعاً أم لا- وخضع له مع هذا الاعتقاد فقد عبده.
وفي القرآن الكريم آيات يُستفاد منها أن العبادة هي من
شؤون الربوبية، وإليك بعضها:

«وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» (١).

«إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (٢).

وغيرها من الآيات.

وهناك آيات تعتبر العبادة من شؤون الخالق، كما في قوله
تعالى:

«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ» (٣).

ما معنى كلمة «الرب»؟

تُطلق كلمة «رب» - في اللغة العربية- على من أسند إليه
تدبير شيء ما وترك مصير ذلك الشيء بيده، فإذا أطلقت هذه
الكلمة على مالك الدار ومالك الإبل ومرضعة الطفل والفلاح
- وغيرهم- فإنما هو بسبب امتلاكهم لإدارة ذلك الشيء وتكفلهم
لمسؤوليته.

وإننا إذ نعبر الله تعالى «رباً» فإنما هو بسبب أن شؤوننا
وأمرنا ومصيرنا - كالموت والحياة والرزق والصحة والتقنين

(١) سورة المائدة: آية ٧٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ٥١.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٠٢.

والتشريع والمغفرة والعفو وغير ذلك - بيد الله تعالى .
 و الآن ... لو اعتقد إنسان أن أحد هذه الشؤون - أو كلها - قد
 خوّها الله تعالى إلى شخص ما، فإن هذا الاعتقاد يعني اعتبار
 ذلك الشخص «ربّاً» والايان بهذا الربّ والخضوع له عبادة له .
 وبعبارة أخرى: إن العبادة تنبع من شعور الانسان بكونه
 عبداً، هذه حقيقة العبوديّة، أن يعتبر الانسان نفسه مملوكاً والأعلى
 منه مالكاً للوجود والموت والحياة والرزق ... أو - على الأقل - مالكاً
 لصلاحيّة المغفرة (١) والشفاعة (٢) ووضع القوانين والواجبات (٣)
 فيكون بذلك قد جعل المالك «ربّاً» له، وكلّ من يُجسّد هنا
 الشعور في نفسه ويترجمه إلى قول أو فعل، فلا شك أنه يعبّد المالك
 الذي اعتبره ربّاً.

التعريف الثالث للعبادة

هنا يمكن أن نُقدّم للعبادة تعريفاً ثالثاً مستخلصاً من الوجدان
 والفترة فنقول:

«العبادة: خضوع أمام من نعتبره إلهاً أو مصدراً للأعمال الإلهية» .
 لا شك أن الأعمال المتعلقة بالكون والوجود - كتدبير شؤون
 العالم والإحياء والإماتة وبسط الرزق بين الموجودات وغفران

(١) يقول تعالى: «ومن يغفر الذنوب إلا الله» آل عمران/١٣٥ .

(٢) يقول تعالى: «قل لله الشفاعة جميعاً» الزمر/٤٤ .

(٣) قوله عزّوجل: «إنخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» التوبة/٣١ .

الذنوب- هي خاصة بالله تعالى .

وأنت لو تأملت الآيات القرآنية- التي تتحدث عما سبق ذكره (١) لرأيت أن القرآن يؤكد تأكيداً شديداً على أن هذه الأعمال خاصة بالله تعالى ولا ترتبط بغيره سبحانه .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى: نحن نعلم أن عالم الخلق والإيجاد هو عالم منظم ولا يحدث أي شيء في هذا العالم إلا بأسباب تعود الى الله تعالى، والقرآن الكريم يشير الى هذا الموضوع فيقول سبحانه:

«وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» (٢) .

ويقول سبحانه- في موضع آخر- أن من الملائكة من تتولى قبض الأرواح، وهو قوله:

«حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا» (٣) .

بناءً على هذا... يمكن الجمع بين هاتين الآيتين فنقول: إن الفاعلية والسببية لهذه العلل والعوامل الطبيعية- مادية كانت أم معنوية كالملائكة- إنما تتحقق بإذن الله سبحانه، والفاعل هو الله تعالى .

وبعبارة أخرى: إن فعل كل من هذين الفاعلين يقع في طول

(١) كالأية ٧٣ من سورة القصص، والأية ٦٠ الى ٦٤ من سورة النمل، والأية ٦٥ و٦٥ من

سورة الزمر.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٨٠.

(٣) سورة الأنعام: آية ٦١.

الآخر لا في مقابله وعرضه، فالفاعل الأول مستقل والثاني تابع للأول، وهذا من المعارف العالية في القرآن والتي تُستفاد من مراجعة الآيات الكريمة التي تتحدث عن أفعال الله تعالى .
والآن... لو أن إنساناً اعتقد بأن الله قد فوّض أفعاله - من الإرزاق والإحياء وغيرهما - الى بعض مخلوقاته - كالملائكة والأولياء - وأنهم الذين يُديرون شؤون الكون ويدبرون أموره، ولا علاقة لله سبحانه بذلك، ودفعه هذا الاعتقاد الى الخضوع لهم، فما من شك أن خضوعه هذا عبادة، وأن عمله هذا شرك بالله سبحانه.

و بتعبير آخر: لو اعتقد بأن الله قد فوّض صلاحية تنفيذ هذه الأفعال الى الملائكة والأولياء وبقي سبحانه مجرداً من كل صلاحية، والملائكة والأولياء ينفذون تلك الأفعال بالاستقلال ومن دون إذنه سبحانه، فيكون هذا الانسان - المعتقد هذا الاعتقاد - قد جعل لله مثلاً ونداً، ولا شك أن هذا الاعتقاد هو الشرك بذاته، وأن التوسل والخضوع - النابعين من هذا الاعتقاد - هو عبادة، كما جاء في القرآن الكريم:

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ» (١).

إن أي كائن و موجود لا يستطيع أن يكون مثلاً لله ونداً، إلا إذا صار يتصرّف في الكون بإرادته الشخصية ومن دون إرادة الله

تعالى، وليس أحدٌ كذلك، بل إن كلَّ كائنٍ خاضعٌ لإرادة الله سبحانه - شاء أو أبى - وعليه فلا يكون ندأً لله فحسب بل يكون مطيعاً له يتصرف وفق إرادته سبحانه.

والجدير بالذكر أن المشركين كانوا يعتقدون بأن أصنامهم المعبودة مستقلة في التصرف في هذا الكون والشؤون الإلهية، وقد كان أضعف درجات الشرك - في العهد الجاهلي - هو الاعتقاد بتفويض التقنين والتشريع إلى الأحرار والرهبان، كما قال تعالى:

«إِن تَخْذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُؤْبَانَهُمْ أَزْجَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» (١).

وكذلك كانوا يعتقدون بأن صلاحية الشفاعة والمغفرة - التي هي خاصة بالله وحده - قد فوّضت إلى أصنامهم المعبودة، فهي تتصرف بالاستقلال الكامل في تلك الصلاحيات، ولهذا ترى الآيات القرآنية - التي تتحدث عن الشفاعة - تؤكد بأن الشفاعة لا تتحقق إلا بإذن الله تعالى، كما في قوله سبحانه:

«مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (٢).

ولو كان المشركون يعتقدون بأن أصنامهم المعبودة تملك الشفاعة بإذن الله سبحانه، لما كنت ترى هذا النبي القرآني القاطع للشفاعة بدون إذن الله تعالى.

إن بعض حكماء اليونان كانوا قد نحتوا - في أفكارهم - آلهة

(١) سورة البقرة: آية ٣١.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

متعددة لكل شأن من شؤون العالم، فالمطر له إله والزرع له إله والانسان له إله وهكذا، وكانوا يزعمون أن التصرف في شؤون الكون - الذي هو خاص بالله سبحانه - قد فُوض الى هذه الآلهة .

وفي العهد الجاهلي كان بعض العرب يعبدون الملائكة والنجوم الثابتة والمتحركة، ظناً منهم أن تدبير شؤون الكون والانسان قد فُوض اليها، فهي تتصرف بالاستقلال والاختيار الكامل، وأن الله تعالى يعيش معزولاً مجرداً عن كل هذه الصلاحيات بصورة كاملة، تعالى الله عن هذا علواً كبيراً(١).

ولهذا فإن كل نوع من الخضوع للملائكة والنجوم يُعتبر عبادة، لكونه نابعاً من هذا الاعتقاد الخاطيء .

والبعض الآخر من العرب الجاهلي لم يعتبروا الأصنام الخشبية والمعدنية آلهة وخالقة لهم ولا مدبرة لشؤون الكون والانسان، بل كانوا يعتبرونها مالكة للشفاعة، وكانوا يقولون: هؤلاء - أي الأصنام - شفعاؤنا عند الله(٢).

وعلى أساس هذا التصور الباطل كانوا يعبدون هذه الأصنام، تقرباً الى الله تعالى وكانوا يقولون:

«ما تَعْبُدُوهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى»(٣).

(١) راجع الليل والنحل للشهرستاني ج ٢ طبعة مصرص ٢٤٤-٢٤٧.

(٢) قال تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» سورة يونس/١٨.

(٣) سورة الزمر: آية ٣.

و خلاصة القول: إن أي عمل ينبثق من هذا الاعتقاد ويدلّ على الانقياد والخشوع، فهو عبادة، وفي المقابل: إن أي تصرف لا يستند إلى اعتقاد كهذا، لا يُعتبر عبادة ولا شركاً، فلو خضع إنسان أمام موجود وكرّمه وعظّمه، دون أن يعتقد به هذا الاعتقاد، فلا يُعتبر عمله شركاً ولا عبادة، حتى لو فرض عمله ذلك حراماً. مثلاً: لا يُعتبر سجود العاشق لمعشوقه، والمأمور لآمره، والمرأة لزوجها... عبادة، بالرغم من أنه حرام شرعاً، لأن السجود خاصّ بالله تعالى، ولا يجوز لأحد أن يأتي به - حتى بصورته الظاهرية المجردة عن العقيدة - إلا بأمره سبحانه.

نتيجة البحث

إلى هنا استطعنا - نوعاً ما - أن نوضح حقيقة «العبادة» والآن يجب أن نستخلص النتيجة من هذا البحث... فنقول: لو أن إنساناً خضع وتواضع لآخرين، دون أن يعتبر أحدهم «إلهاً» أو «رباً» أو «مصدراً» مستقلاً لأفعال الله تعالى، بل يحترمهم لأنهم: «عباد مكرّمون لا يسبقونهم بالقول وهم بأمره يعملون» (١). فإن عمله هذا ليس إلا تعظيماً وتكريماً لهم، ولا علاقة له بالعبادة أبداً.

إن الله تعالى قد ذكر بعض عباده ذكراً حسناً ووصفهم بشكلٍ يثير رغبة كل إنسان في تعظيمهم وتكريمهم... فمن ذلك

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٦.

قوله سبحانه:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ

الْعَالَمِينَ» (١).

كما يصرّح القرآن الكريم بأن الله تعالى قد اصطفى إبراهيم

للامامة فيقول:

«فَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» (٢).

وقد ذكر الله سبحانه - في القرآن - كلاً من النبي نوح وإبراهيم

وداود وسليمان وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم اجمعين -

ذكرهم أحسن الذكر، ووصفهم بأسمى الصفات، بحيث ان كل

صفة - بوحدتها - تكفي لجذب القلوب واكتساب المحبة في النفوس.

وترى القرآن الكريم يهتف - بفضل آل محمد - في آيات عديدة

منه فيقول:

«إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

تَطْهِيرًا» (٣).

ويقول فيهم:

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» (٤).

ويقول فيهم:

(١) سورة آل عمران: آية ٣٢.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٤.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

(٤) سورة الشورى: آية ٢٣.

«وَنُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَتَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوسًا فَانظُرُوا، فَوَقَاهُمْ اللَّهُ سَرَّ ذَلِكُمُ الْيَوْمَ وَلَقَاهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا... الى آخر السورة» (١). وغيرها من الآيات.

فلوقام الناس -تجاه هؤلاء الأولياء المقربين- بما ينبغي من التعظيم والتجليل والتكريم والاحترام -سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم- دون أن يعتبروهم آلهة ولا مصدرًا مستقلاً لأفعال الله، فليس هناك من يعتبر هذا العمل عبادة، ولا القائم به مشركاً، بل بالعكس يعتبرهم حضاريين تقدميين يقدرون أولياء الله ويخلدون ذكرياتهم ويتخذونهم قدوة وأسوة لهم.

إن تعظيم أولياء الله تعظيمٌ لشعائر الله - كما سبقت الإشارة إليه- وإن الاسلام يزخر بالشعائر الإلهية.

لقد كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقف عند الحجر الأسود ويستلمه ويُقبّله، مع العلم أنه ليس إلا حجراً. ونحن كذلك نفتدي بهذا النبي العظيم فنقبّل الحجر الأسود، ونطوف حول بيت الله -الذي ليس إلا مجموعة من الطين والحجر- ونسعى بين الصفا والمروة -وليسا إلا جبلين- أي: إننا نفعل نفس ما كان يفعله عبدة الأصنام تجاه أصنامهم، ولكن لم يخطر ببال أحد -حتى الآن- بأننا نعبد الطين والأحجار... لماذا؟ لأن

الأحجار لا تضر ولا تنفع، أما لو أدينا هذه المناسك مع الاعتقاد بأن هذه الأحجار والجبال هي الإله ومصدر آثاره، لأصبحنا - عند ذلك - في عداد عبدة الأصنام.

وعلى هذا الأساس: فإن تقبيل يد النبي أو الامام أو المعلم أو الوالدين، وكذلك تقبيل القرآن الكريم والكتب الدينية - مثل نهج البلاغة - وتقبيل الضريح وكل ما يتعلق بعباد الله الأزكياء ليس إلا تعظيماً وتكريماً لهم لا غير، وتعظيمهم ليس إلا تعظيماً لله سبحانه.

لقد ورد في القرآن الكريم سجود الملائكة لآدم - عليه السلام - وسجود إخوة يوسف ليوسف - عليه السلام - ولم يخطر ببال أحدٍ بأن هذا السجود كان عبادة لآدم أو ليوسف، والسبب في ذلك هو أن الذين سجدوا لآدم وليوسف لم يعتقدوا لهما بالالوهية والربوبية، ولم يعتبروهما مصدرًا لأفعال الله تعالى، بل كان ذلك من باب التعظيم والتكريم لا العبادة، كما هو واضح.

إن الوهابيين عند ما يواجهون هذه الآيات القرآنية ويصطدمون بها، تراهم يبحثون - هنا وهناك - عن تبرير وذريعة لها، فيقولون: إن سجود أولئك لا يُعتبر عبادة، لأنه جاء بأمر الله تعالى.

والجواب: صحيح أن كل ذلك - حتى سجود إخوة يوسف - كان بأمر الله أو رضاه، ولكن الشيء الذي يتغافل عنه الوهابيون ويتجاهلون هو أن حقيقة العمل أيضاً لم تكن عبادة، ولهذا أمر الله

به، ولو كان السجود عبادة للمسجود له لما أمر الله بذلك أبداً، لأن الأمر لا يُخرج العبادة عن حقيقتها ولا يجعل الشرك توحيداً. قال تعالى:

«قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ أَن تُكْفَرُوا بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانُ يَكْفُرًا عَنَّا» (١).

والخلاصة: إن حقيقة العمل يجب أن تكون غير عبادية قبل صدور الأمر بها من الله تعالى، حتى يتعلّق الأمر بها، ولا يُتصوّر -بأيّ وجه- أن يكون العمل عبادياً فيأتي الأمر فيُسقطه عن العبادة.

إنّ هذا التبرير الذي يلجأ اليه الوهابيون -والذي طالما سمعناه من مشايخهم في مكّة والمدينة -إنما يدلّ على الجمود الذي يعيشونه تجاه المعارف القرآنية، وعدم معرفتهم بأن العبادة لها حقيقة مستقلة، ويطرأ عليها الأمر تارة، والنهي تارة أخرى، أي أن الشيء -بذاته- عبادة، فيأمر الله تعالى به أو ينهى عنه، كالصلاة والصوم، حيث أمر الله المكلفين بأدائهما، ونهى المرأة الحائض عنهما، أو كصوم عيد الفطر والأضحى حيث نهى الله عنه فيها جميع الناس.

فإذا كان سجود الملائكة لآدم وسجود إخوة يوسف والديه له عبادة لهما، فإن الأمر به لا يُخرجه عن حقيقة العبادة، فلا بدّ من القول بأن الاعتقاد بالالوهيّة أو الربوبيّة هو الذي يُحرّم الفعل ويجعله عبادة، أو الاعتقاد بكون الخضوع له مصدر لافعاله سبحانه.

كيف نحسم الموقف؟

أيها القارئ الكريم: يجب أن تعلم بأن إزالة الخلافات الموجودة بين المسلمين والوهابيين في كثير من المسائل - تتوقف على تحليل مفهوم «العبادة». ومع عدم الوقوف على تعريف منطقي للعبادة وعدم التفاهم والانصاف بين الطرفين، لا فائدة من البحث والمناقشة.

من هنا... فلا بدّ للانسان المحقق أن يقوم بجولةٍ تحقيقية في عمق هذا الموضوع، وأن لا ينخدع بالتعريفات اللغوية الجملة - الناقصة عن التحليل والتوضيح - وخيرُ مصدر يُرجع إليه هي الآيات القرآنية، فهي الدليل المرشد في هذا المجال - وكلّ مجال - .
ومن المؤسف أن كلّ الكتاب والمؤلفين الوهابيين - وكذلك الذين كتبوا الردود على معتقداتهم - قد أطالوا البحث والتحقيق في نقاط أخرى، ولم يُركزوا على هذه النقطة المهمة بالشرح والتحقيق.

فالوهابيون يقولون: إن كثيراً من الأعمال التي تقومون بها - أيها المسلمون - تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والأئمة من أهل بيته - عليهم السلام - هي عبادة لهم، وذلك يستلزم الشرك في عبادة الله تعالى .

فيجب على المسلمين ان يُقدّموا توضيحاً وتشريحاً دقيقاً لـ «العبادة» حتى يُجردوا الوهابيين من هذا السيف الموهوم.

إن الوهائية تعتبر كثيراً مما يقوم به المسلمون تجاه الميت عبادة له، مثلاً:

- ١ - الاستشفاع من النبي والصالحين.
 - ٢ - الاستشفاع من أولياء الله.
 - ٣ - طلب قضاء الحوائج من قادة الدين.
 - ٤ - تكريم صاحب القبر وتعظيمه.
 - ٥ - الاستعانة بالنبي الأكرم، وغيره.
- فهم يقولون: إن الشفاعة من أفعال الله، وكذلك الشفاء منه سبحانه، فطلب أحدهما من غيره يؤدي الى عبادته.

ما هو «فعل الله»؟

نحن - في هذه العجالة - نُقدّم بحثاً موجزاً عن أفعال الله ومعناها، كي يتّضح الموضوع... فنقول: إذا كان الذي يقوم بالشفاعة والشفاء يقوم بهما بقدرته الشخصية وإرادته المستقلة، من دون أن يكون قد اكتسب حقّ الشفاعة من أحد، ومن دون اعتماد على قدرته تتفوّق عليه، فهذا من أفعال الله الخاصة به سبحانه، والاستشفاع من أحد - بهذا الاعتقاد - معناه الايمان بربوبيته والوهيته.

أما لو كان الاستشفاع والاستشفاء سليماً من هذا الاعتقاد، بأن يستشفع الانسان ممن يعتقد بعبوديته لله، وأنه يتصرّف بالاستعانة بقدرة الله تعالى وإذن منه سبحانه، فهذا الاستشفاع

والاستشفاء لا يلزم الاعتقاد بالالوهية والربوبية، ولا هو طلبُ فعل الله من غير الله.

يقول القرآن الكريم عن لسان النبي عيسى - عليه السلام - :

«وَأُتِرَى الْأَكْمَةَ وَالْأُبْرَصَ وَأَحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» (١).

و نفس هذا التوضيح يأتي بالنسبة الى طلب قضاء الحاجة من أحد أولياء الله أو الاستعانة به، فطلب قضاء الحاجة له صورتان:

١ - الطلب من العبد - مع الاعتقاد بقدرته المستقلة - فهذا عبادة.

٢ - الطلب من العبد - مع الاعتقاد بعبوديته لله واستمداده منه سبحانه - فهذا لا يرتبط بالعبادة أبداً.

إن هذا التوضيح ليس فقط الحدّ الفاصل بين العبادة وغيرها، بالنسبة الى هذه الأفعال، بل هو قاعدة عامّة تفصل بين التوحيد والشرك في كلّ المؤثرات والأسباب.

إن الاعتقاد بتأثير «الاسبرين» - مثلاً - في تسكين الآلام، اذا كان نابغاً من قدرته المستقلة في ذلك، وأنه لا يرتبط بقدره أعلى - وهي الله تعالى - فهذا معناه الاعتقاد بالوهيئة، أما الاعتقاد بأن الله تعالى هو الذي جعل هذا الأثر في الاسبرين، وأنّ هذا الدواء ليس إلا سبباً لتسكين الآلام، وأنه لا يُسكّن الألم إلا باذن الله، فإن هذا الاعتقاد نابغ من التوحيد ذاته، لأنه «لا مؤثر في الوجود

إلا هو».

ولهذا قلنا: إنَّ حَسْمَ الخلافات يتوقف على تحديد معنى «العبادة» وفرز التوحيد من الشرك، وأفعال الله من غيرها، والالوهية من العبودية.

وقد سبقت الإشارة الى ان العرب الجاهليين كانوا يعتقدون ذلك الاعتقاد الخاطئ، بأن الأصنام هي التي تدير بعض شؤون الكون إدارة مستقلة وتملك الشفاعة وغيرها، وهذا هو الذي صيرهم مشركين.

هذا... وإن أردت التفصيل من المعلومات حول هذا الموضوع فراجع هذين الكتابين للمؤلف:

١ - معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٢ - التوحيد والشرك في القرآن الكريم.

كلامٌ للعلامة القضاعيّ المصريّ

ثمّ إنّي لَمّا حرّرت ذلك وبيّنت حدود العبادة، وقفت على كلام لأحد المحققين من علماء الأزهر الشريف أعني به: الأستاذ الشيخ سلامة القضاعيّ العزاميّ الشافعيّ مؤلف «فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان» (١) قال أنا والله برهانه:

(١) من أنفس الكتب الكلامية المؤلفة في العصور الأخيرة، والمؤلف وزميله الأستاذ المحدث المحقق محمد زاهد الكوثريّ المصري من الذين قاموا في وجه البدع اليهودية من القول بالتشبيه والتجسيم والجهة والمكان في حق الله سبحانه. فقد أخذت هذه البدع تنتعش من

[فلننتقل الى معنى العبادة شرعاً، وأرجو أن تعطي هذا المقام فضل تنبّه فإن الغلط فيه هو المزلفة الكبرى والمزلة العظمى، التي استحلت بها دماء لا تحصى، وانهدت بها أعراض لا تعدّ، وتقاطعت فيها أرحام أمر الله بها أن توصل، عياداً بالله من المزالق والفتن، ولا سيّما فتن الشبهات.

فاعلم أنهم فسّروا العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع، وأرادوا بذلك المعنى اللغوي، أمّا معناها الشرعي فهو أخصّ من هذا كما يظهر للمحقّق الصّبار على البحث من استقراء مواردها في الشرع فإنه الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلباً باعتماد ربوبية المخضوع له، أو قلباً مع ذلك الاعتقاد - وأوفيه للتقسيم - فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعاً في كثير ولا قليل مهما كان المأتيّ به ولو سجوداً. ومثل اعتقاد الربوبية اعتقاد خصيصة من خصائصها كالإستقلال بالنفع والضرر، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريق الشفاعة لعابده عند

أوائل القرن الثامن بيد شيخ البدع والضلال: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الجرائي، وبعده بيد تلميذه ابن القيم، وبعدهما بيد شارب ثمالتهما: الشيخ محمّد بن عبد الوهاب. فقام الأول بتأليف كتابه «فرقان القرآن» فرد فيه على هذه البدع وغيرها، من منع التوسّل والاستغاثة وطلب الشفاعة عمّن جعل الله وسيلة ومغيثاً بإذنه وشافعاً بأمره. كما قام الثاني بنشر كتاب «الأسماء والصفات» للحافظ أبي بكر البيهقي مع تحقيقه والتعليق عليه وتقديم مقدّمة نافعة عليه، وطبع الكتابان في مصر عام ١٣٥٨هـ في مجلّد واحد. شكر الله سعيها وسعي ناشري كتب الحقّ ورافعي ألوية الهدى - آمين -.

الربّ الذي هو أكبر من هذا المعبود. وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقيق هذا القيد فيهم، وهو اعتقادهم ربوبية ما خضعوا له، أو خاصة من خواصها كما سيأتيك تفصيله. ولا يصح أن يكون السجود لغير الله فضلاً عما دونه من أنواع الخضوع بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعاً، فإنه حينئذٍ يكون كفراً، وما هو كفر فلا يختلف باختلاف الشرائع، ولا بأمر الله عزّ وجلّ به «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» (١) «وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ» (٢) وذلك ظاهر إن شاء الله.

وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة: «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ» (٣) وقال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» (٤). وقال: «الْأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» (٥). والقول بأن آدم كان قبله قول لا يرضاه التحقيق ويرفضه التدقيق في فهم الآيات كما ينبغي أن تفهم، فإن قصر فهمك عن هذا فهذا نبيّ الله يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر قال الله فيهم «وَاخْرُؤْ لَهُ سُجُودًا» (٦) أي ليوسف -صلى الله عليه وسلم-. قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: «أي سجد له أبواه وإخوته السابقون وكانوا أحد عشر رجلاً، وقد كان

(١) سورة الأعراف: آية ٢٨.

(٢) سورة الزمر: آية ٧.

(٣) سورة البقرة: آية ٣٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٢.

(٥) سورة الإسراء: آية ٦١.

(٦) سورة يوسف: آية ١٠٠.

هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرّم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الربّ تعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره. وفي الحديث «أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلّم-، فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحقّ أن يسجد لك، قال: لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها». وفي حديث آخر «أن سلمان لقي النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلّم- في بعض طرق المدينة -وكان سلمان حديث عهد بالاسلام- فسجد للنبي -صلى الله عليه [وآله] وسلّم- فقال: لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحبيّ الذي لا يموت» والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم» انتهى. وقال الامام أبو جعفر في تفسيرها نحواً من هذا.

وقد علمت أن ما هو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به في حين من الأحيان، فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف -عليهما الصلاة والسلام- مع خلق الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبية، بمن سجدوا له كفراً، بل هو من الملائكة عبادة لله الذي أمرهم سبحانه، وممن سجد ليوسف تحية جائزة، ونسخ الجواز في شريعتنا، وإنما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قرأ أو وثن من أجل أنه أمارة على

الكفر الذي هو إنكار ما علم من الدين بالضرورة كما حكموا بالايان - وهو معنى قلبي كما علمت - لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه، لا لأن الأول بمجرد كفر والثاني بمجرد إيمان.

فان تعسر عليك فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاء الله تعالى، فانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أهلك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه، فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها، ولا يكون ذلك منك عبادة له، لماذا؟ لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه. وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت له، وسر ذلك هو أن هذا الخضوع الممثل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عزوجل. وتدعورئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك أو يغيثك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقلّ يجلب نفع أو دفع ضرر، ولكن الله جعله سبباً في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك ما يشاء فضلاً منه سبحانه، فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ما وصفنا.

فإن دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقلّ بالنفع أو الضرر أو نافذ المشيئة مع الله لا محالة، كنت له بذلك الدعاء عابداً، وهذه العبادة أشركته مع الله عزوجل، لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية، فإن الاستقلال بالجلب أو الدفع ونفوذ

المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية، والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لا اعتقادهم فيها الاستقلال بالنعف أو الضرّ ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى، ولو على سبيل الشفاعة عنده، فإنهم يعتبرونه الربّ الأكبر ولعبوداتهم ربوبية دون ربوبيته، وبمقتضى ما لهم من الربوبية وجب لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة. و يدلّ لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ» (١).

وقوله «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ» (٢).

والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه. وحكى الله عن قوم هود قولهم له - عليه السلام - «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» (٣) وقوله لهم «فَكَيْدُوْنِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُون». إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ...» الآية (٤) وكقوله تعالى موبخاً لهم يوم القيامة ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنعف ووجوب نفوذ مشيئتها «أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ» (٥) وقولهم وهم في النار يختصمون يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (٦) فانظر إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق

(٢) سورة الأنبياء: آية ٤٢.

(١) سورة الملك: آية ٢٠.

(٤) سورة هود: آية ٥٥.

(٣) سورة هود: آية ٥٤.

(٦) سورة الشعراء: آية ٩٨.

(٥) سورة الشعراء: آية ٩٣.

الكذب، ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم. فان التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب، ومن هذه الحيشية شركهم وكفرهم، لأن صفاته تعالى تجب لها الوحدانية بمعنى عدم وجود نظير لها في سواه عز وجل، كما مر مفصلاً في المقصد.

وإن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق، وهو صفات الألوهية أو بعضها، وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلا لمن يعتقد استحقاقه لها كرتب العالمين، تعالى الله عما يشركون.

و كيف يُنفى عنهم اعتقاد الربوبية بألهتهم وقد اتخذوها أنداداً وأحبوها كحب الله كما قال تعالى فيهم: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ» (١) والأنداد جمع نَدٌّ وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة المثل المناوي، فهذا ينادى عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضرباً من المقاومة للحق، تعالى عما يقولون. أما قوله تعالى فيهم: «وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (٢) ونحوه، فليس معناه أنهم لا يشبتون لألهتهم ربوبية ولا خاصة من خواصها، بل معناه أنهم إذا نوقشوا اعترفوا بالحق الذي فطر الله عليه النفوس، ودلت عليه الكائنات، ثم ما أسرع ما يرجعون إلى اعتقاد الربوبية الباطلة في آلهتهم، فينتكسون ويرتكسون كما قال عنهم في آية أخرى: «يَعْرِفُونَ

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥.

(٢) سورة الزخرف: آية ٨٧.

يَعْمَتَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْكِرُهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» (١) و كقوله تعالى في طائفة منهم «كُلٌّ مَارُذُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا» (٢) وليس ذلك بعجيب ممن اتخذ إلهه هواه، وإنك لتشاهد بين أهل الأهواء من تناقشه في بدعته ويصغي إليك فيقتنع بالحجة وقت المناقشة ويعترف بمخالفته للحق وتظهر فيه مخايل الإنصاف، فاذا انقضى المجلس عاد إلى ما ألف من الهوى، وارتكس في بدعته كأن لم يكن بينك وبينه نقاش - إلا من رحم الله - وقد رأينا ذلك كثيراً في كثير ممن لفينا من أهل الأهواء - نسأل الله العافية بفضله - .

على أنه لو سلم أنهم لم يعتقدوا لأهتهم خلقاً ولا رزقاً ولا تدبيراً للأمر، فهم يعتقدون فيها غير ذلك من خصائص الألوهية وهو وجوب نفوذ مشيئتها، فإنهم يرون أن شفاعتها مقبولة لا ترد وليست متوقفة على إذنه، تعالى عما يقول الجاهلون به علواً كبيراً. ولذلك قال الله تعالى في سيده آي القرآن رداً على هذا الزعم «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (٣) قال القاضي ناصر الدين البيضاوي في تفسيرها: «بيان لكبرياء شأنه ولأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريد شفاعته واستكانة فضلاً أن يعارضه عناداً ومناصبية»، فانظر إلى قوله «يستقل بأن يدفع ما يريد شفاعته» تجده صريحاً في اعتقاد وجوب مشيئتها معه عز وجل،

(١) سورة النحل: آية ٨٣.

(٢) سورة النساء: آية ٩١.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

ووجوب نفوذ المشيئة من خصائص الربوبية كما لا يخفى^١. وهذا النوع من الشفاعة هو الشفاعة الشركية وهي التي أبطلها القرآن، فإن اعتقادها كفر، كما قال تعالى «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ» (١) الآيتين. فانظر إلى قوله «من دون الله» وكما قال الله تعالى «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (٢).

أما الشفاعة التي يعتقدها أهل التوحيد وجاء بها الكتاب والسنة فهي بعيدة من هذا بعد الإيمان عن الكفر والنور عن الظلمة، وهي دعاء الشافع للمشفوع فيه فيستجيب بفضله لمن شاء، وهو معنى الاستثناء في قوله تعالى «إِلَّا بِإِذْنِهِ» والمراد هنا بالإذن الرضا كما قال في الآية الأخرى «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» (٣) وكقوله: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى» (٤).

وهذا يتبين لك الفرق بين ما أثبتته القرآن من الشفاعة وبين مانفاه منها، وهو ما كان بغير إذنه ورضاه، جلّ أن يكون في ملكه إلا ما يشاء، أما الشفاعة بإذنه ورضاه من عباده المصطفين الأختيار لعصاة الموحدين فهي جائزة بل واقعة لثبوتها بالتواتر وليس فيها محذور، واعتقادها من الدين، فإنها من باب الدعاء

(١) سورة الزمر: آية ٤٣.

(٢) سورة الأحزاب: آية ١٧.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٢٨.

(٤) سورة النجم: آية ٢٦.

وهو تعالى يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

وعسى أن يكون قد وضع لك إن شاء الله ما هو معنى العبادة شرعاً، وحينئذ تعلم أنه ليس من عبادة غير الله في شيء أن يبتغي المسلم إلى الله الوسيلة[*].

هذا نص ما أفاده العلامة القضاعي، أتينا به لما فيه من فوائد جمّة، وقد أوضحنا حالها في كلامنا، فلاحظ أيها القارئ المنصف.

(٥) فرقان القرآن: ص ١١١ - ١١٥. ولاحظ بقية كلامه فإنها نافعة.

الاستعانة بأولياء الله في حياتهم

إنَّ طلب شيء ما - من أولياء الله تعالى - يقع بأشكال مختلفة، نشير إليها فيما يلي:

١ - أن نطلب من الانسان الحي بأن يُعيننا في بناء دار أو سقي ماء.

٢ - أن نطلب من الانسان الحي بأن يدعو الله ويستغفره لنا.

هاتان الصورتان تشتركان معاً في كون المطلوب أمراً طبيعياً، والمطلوب منه قادراً على إنجازه، ويفترقان في أن الطلب الأول يرتبط بالدنيا والثاني بالآخرة.

٣ - أن نطلب من الانسان الحي إنجاز عمل، بدون الاستعانة بالأسباب المادية له، بأن نطلب منه - مثلاً - شفاء المريض بدون دواء، أو استرداد الشيء المفقود بدون البحث عنه، أو أداء الدين بدون العمل على تحصيل المال.

وبعبارة أخرى: نطلب منه إنجاز العمل عن طريق المعجزة أو الكرامة (١) من دون أن يستعين بالأسباب المادية والطبيعية.

(١) «المعجزة» تُطلق على ما يصدر من المعصوم - كالتبّي والإمام - من خوارق العادة،

- ٤ - أن نطلب من الانسان الميِّت أن يدعو الله لنا، ويكون الطلب منه نابعاً من الاعتقاد بأنه حيٌّ يُرَزَقُ في عالم الآخرة.
- ٥ - أن نطلب من الانسان بأن يستعين بقدرة الله- التي مَنَحَهَا إِيَّاه- على شفاء مريضنا أو إعادة مفقودنا، أو غير ذلك .

و هاتان الصورتان هما كالصورة الثانية والثالثة، لكن الفرق بينهما هو أن الطلب هناك كان من الانسان الحي في عالم المادَّة والطبيعة، وهنا من الانسان الميِّت في الظاهر، والحي في الواقع.

و على هذا فلا يمكن أن نطلب من الميِّت بأن يُعِينَنَا- في الشؤون المادية- بواسطة الأسباب والعوامل المادية، وذلك لأن المفروض انقطاع الميِّت عن عالم الماديات بارتحاله من هذه الدنيا.

أيها القارئ الكريم: هذه خمسة أقسام من الاستعانة، ثلاثة منها تختص بالانسان الحي في عالم الماديات، وإثنان تختص بالانسان الحي في العالم الآخر.

نحن الآن نتحدث عن الصور الثلاث الأولى، ونؤجل الحديث عن الاستعانة بأولياء الله- الأحياء في عالم الآخرة- الى الفصل القادم إن شاء الله.

وإليك البحث عن الأقسام الثلاثة:

لإثبات نبوته أو إمامته، و«الكرامة» تُطلق على ما يصدر من غيرهم من سائر أولياء الله الصالحين مثل ما ورد في حق السيدة مريم في القرآن الكريم.

الصورة الأولى:

إن الاستعانة بالأحياء للشؤون العادية - التي لها أسباب طبيعية - تُشكّل الحَجَرُ الأساسيّ للتمدّن البشري، حيث إن حياة البشر - في الكرة الأرضية كلّها - تقوم على أساس التعاون، وأن العقلاء في العالم يتعاونون لأموهم الحيويّة.

إن حكم هذه الصورة واضح جداً، لدرجة أنه لم يستنكره أحد، ولم يعترض عليه إنسان وبما أنّ بحثنا قائم على ضوء القرآن والأحاديث، فإننا نعالج هذه المسألة من الزاوية القرآنية، ونكتفي بآية واحدة.

عندما أراد «ذوالقرنين» أن يبني سدّاً يحول دون هجوم «ياجوج» و «ماجوج» إلتفت الى سُكّان المنطقة وقال:

«فَاعْبُدُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ لَكُمْ وِيْتَهُمْ رِذْمًا» (١).

الصورة الثانية:

إن الاستعانة بالإنسان الحي - في هذا العالم المادي - للدعاء الى الله تعالى بالخير والاستغفار منه، هي من الضرورات الواضحة التي لا يختلف فيها اثنان، و القرآن الكريم يؤكد على ذلك في موارد متعدّدة، و القيام بجولة خاطفة في رحاب الآيات الكريمة يُثبت لنا أن الأنبياء كانت عاداتهم الدعاء لأُممهم بالخير

والهداية و الرشاد، أو أن الأمم نفسها كانت تطلب من أنبيائها الدعاء لها بالمغفرة والخير.

والآيات كثيرة، وهي على أقسام، نذكرها على الأرقام التالية:

١ - تارة يأمر الله تعالى نبيّه المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يستغفر لأُمَّته، فيقول:

«فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَساوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ» (١).

«فَبَايِعْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢).

«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ

صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٣).

وفي هذه الآية الأخيرة يأمر الله تعالى نبيّه محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - بالدعاء لهم، وأن دعاءه يبعث السكينة والطمأنينة في قلوبهم.

٢ - وتارة كان الأنبياء يعدون المذنبين والعاصين بالاستغفار لهم في الفرصة المناسبة، فمثلاً يقول تعالى:

«إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (٤).

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٣) سورة الممتحنة: آية ١٢.

(٤) سورة الممتحنة: آية ٤.

«سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» (١).

«وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءً» (٢).

إن هذه الآيات الكريمة تدلّ على أن الأنبياء كانوا يبشرون المذنبين بالاستغفار، حتى أن النبي إبراهيم -عليه السلام- وعدّ «آزر» بالاستغفار له، ولكنه لما رأى آزر مُصرّاً على عبادة الأصنام عدل عن وعده، لأنّ من شروط استجابة الدعاء أن يكون المدعو له مؤمناً بالله تعالى.

٣ - وقد أمر الله تعالى المؤمنين المذنبين بالحضور عند رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وطلب الاستغفار لهم منه، لأن الله يغفر لهم ببركة استغفار النبي لهم، يقول سبحانه:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (٣).

فأية آية أوضح من هذه الآية التي يأمر الله المذنبين -من هذه الأمة- بالحضور عند رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وطلب الاستغفار منه لهم؟!!

إن المجيء الى رسول الله وطلب الاستغفار منه له فائدتان:
الأولى: إنه يبعث في الانسان روح الطاعة والانقياد لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وذلك بالانتباه والتوجه الى عظمة

(١) سورة مريم: آية ٤٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١٤٤.

(٣) سورة النساء: آية ٦٤.

النبي ووجاهته عند الله، بحيث إن استغفاره له يوجب مغفرة الله له.

وبصورة عامة... الحضور عند النبي وطلب الاستغفار منه يوجب الخضوع له، ويهيئ الإنسان نفسياً لامثال قوله تعالى: «أطيعوا الله وَأطيعوا الرَّسُولَ» (١).

الثانية: إن هذا يجسد منزلة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لدى الأمة، ويبيّن لهم أن الإفاضة المادية كما أنها متوقفة على أسباب وعوامل طبيعية كذلك الإفاضة المعنوية - التي هي مغفرة الله لعباده - تأتي عبر أسباب خاصة، مثل دعاء النبي وأولياء الله للإنسان.

إذا كانت الشمس منبعاً للإضاءة والطاقة والحرارة، وكانت هذه الخيرات تنزل على عباد الله بسببها، فإن الفيوضات الإلهية والخيرات الربانية تنزل على عباد الله بسبب شمس النبوة الساطعة وتشملهم بالخير والرحمة.

إن عالم الوجود هو عالم الأسباب والمسببات، وإن الخيرات المادية والمعنوية تأتي عبر الأسباب المناسبة لها.

٤ - ويستفاد من بعض الآيات الكريمة أن المسلمين كانوا يحضرون عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دوماً ويسألونه الدعاء والاستغفار لهم، ولما اقترح المسلمون على المنافقين بالحضور عند النبي الكريم وطلب الدعاء والاستغفار منه، رفضوا

ذلك كما يقول سبحانه :

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَزَايَتُهُمْ

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» (١).

٥ - و تشهد بعض الآيات الكريمة أن الناس كانوا يدركون بفطرتهم النزهة - بأنّ لدعاء النبي تأثيراً خاصاً لهم ، وأن الله تعالى يستجيب دعاءهم بلا تردد ، ولهذا كانوا يسألونه الدعاء والاستغفار لهم من الله سبحانه .

إن الناس كانوا يستلهمون من فطرتهم السليمة أن الفيض الإلهي والرحمة الربانية تدرّ عبر دعاء الأنبياء ، كما أن هداية الناس وإرشادهم يتمّ عبرهم ، ولهذا كانوا يقصدونهم ويسألون منهم الاستغفار ، كما جاء في القرآن الكريم - في قصة إخوة يوسف بعد أن وقفوا على خطأهم وسوء تصرفهم بالنسبة إلى أخيهم يوسف - قوله تعالى :

«قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ

رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢).

٦ - هناك آيات كريمة يُحذّر فيها الله تعالى نبيّه - صلى الله عليه وآله وسلم - من الدعاء والاستغفار للمنافقين الذين لا زالوا على عبادة الأصنام ، وذلك لأنّ عبادتهم لغير الله يمنع من مغفرة الله لهم ، حتى لو استغفر لهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ممّا

(١) سورة المنافقون: آية ٥ .

(٢) سورة يوسف: آية ٩٧ و ٩٨ .

يدلّ على أن استغفار النبي نافذ ومؤثر إلا لمن يعكف على عبادة الأصنام، لأن عبادة الأصنام مانعة من الاستجابة، فمثل استغفار النبي لهم كمثال الماء الزلال الذي يهطل على الأرض الصلبة المانعة من نفوذ الماء فيها، يقول تعالى:

«إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (١).

«سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ

لَهُمْ» (٢).

«وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ

عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي

إِسْرَائِيلَ» (٣).

إن المذنبين سألوا النبي موسى -عليه السلام- الدعاء لهم، وتدلّ جملة «بما عهدت عندك» على أنهم كانوا يعلمون بأن الله تعالى عهداً مع موسى.

أما قوله تعالى: «ادع لنا ربك» ففيه احتمالان:

الأول: أن يكون طلب الدعاء لكشف العذاب عنهم عن طريق المعجزة، وذلك بايمانهم بقدرة النبي موسى على ذلك -بالاستعانة بقدرة الله سبحانه-.

ومع صحة هذا الاحتمال فإن هذه الآية تدخل في البحث

(١) سورة التوبة: آية ٧٩.

(٢) سورة المنافقون: آية ٦.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٣٤.

عن الصورة الثالثة - وهي الاستعانة بالانسان الحي للقيام بعمل إعجازي خارق للأسباب المادية - وسوف يأتي البحث عنها إن شاء الله تعالى .

الاحتمال الثاني: أن يكون طلب مجرد الدعاء لكشف العذاب، لا المعجزة وخرق العادة .

و الظاهر هو الاحتمال الثاني، لأن المفهوم من جملة « ادع لنا ربك » هو مجرد الدعاء لكشف العذاب .

نعم ... ليس في الآية إشارة الى أن الله تعالى لا يستجيب دعاء موسى في حق المشركين وعبدة العجل، وإنما الإشارة سبقت في آيات أخرى .

٧ - يُستفاد من بعض الآيات القرآنية بأن بعض المؤمنين كان يستغفر للبعض الآخر، كما في قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » (١) .

٨ - وبالإضافة الى أولئك المؤمنين المستغفرين فإن حاملة العرش يستغفرون للمؤمنين أيضاً، كما في قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » (٢) .

(١) سورة الحشر: آية ١٠ .

(٢) سورة المؤمن: آية ٧ .

بناء على هذا فما أحسن أن نتبع هؤلاء في هذه السيرة المرضية
لله تعالى، ونستغفر الله للمذنبين.

الى هنا تمّ البحث عن الصورة الأولى والثانية... والآن
إليك البحث عن:

الصورة الثالثة:

وهي الاستعانة بالانسان الحيّ - القادر على المعجزة وخرق
العادة- من أجل تنفيذ عمل ما، عن طريق الإعجاز، ودون
اللجوء الى الأسباب المادية، كشفاء المريض وتفجير الماء من عين
يابسة، وما شابه ذلك .

إن بعض المؤلفين الأعظم يعتبرون هذا الصورة- من
الاستعانة- داخله في الصورة الثانية ويقولون: إن المقصود من
المعجزة هو أن يسأل الانسان ربّه بأن يشفي مريضه أو يُسدّد دُيونه
وغير ذلك ، لأن هذه الأفعال خاصّة بالله تعالى، ومادعاء النبي
والامام إلا وسيلة الى الله تعالى، ولهذا فإن نسبة هذه الأفعال الى
النبي والامام هي من باب المجاز لا الحقيقة (١).

إلا أن في القرآن آيات تدلّ -بوضوح- على أن طلب هذه
الحوائج من الأنبياء والأولياء أمرٌ صحيح وليس مَجازاً، فإننا إذ
نطلب من المعصوم نفسه -القادر على المعجزة- بأن يشفي المريض
-الذي صعب علاجه- فإن ذلك يتحقّق بحول الله وقوّته.

صحيح أن القرآن الكريم يعتبر الشفاء من اختصاص الله تعالى فيقول:

«وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» (١).

إلا أنه في الوقت نفسه ينسب الشفاء الى القرآن والعسل أيضاً فيقول:

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

«يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ» (٣).

«قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّرْءَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ» (٤).

و السؤال الآن: ما هو وجه الجمع والتوافق بين هذه الآيات؟
الجواب: إن النظر الصائب في الجمع بين هاتين المجموعتين من الآيات - التي تجعل الشفاء من اختصاص الله تعالى، وتشبته للعسل والقرآن والمواعظ الإلهية - هو أن الله سبحانه مُؤَثِّرٌ في الأشياء بالاستقلال، ومعتمداً على ذاته المقدسة في الأمور كلها، بينما العسل والقرآن والمواعظ الإلهية تترك تأثيرها في الأشياء بإذن الله وإرادته سبحانه.

إن النظرة الاسلامية - الى الكون والحياة - تعتبر جميع العوامل والمؤثرات تابعة لإرادة الله وقادرة على التأثير بإذنه سبحانه، وأن

(١) سورة الشعراء: آية ٨٠.

(٢) سورة الإسراء: آية ٨٢.

(٣) سورة النحل: آية ٦٩.

(٤) سورة يونس: آية ٥٧.

العلل والأسباب لا تملك أدنى استقلال لها أبداً من دون فرق بين الأسباب الطبيعية والروحية.

وعلى هذا الأساس فلا مانع - على ضوء القرآن والعقل - أن يمنح الله - الذي جعل الشفاء في العسل والأدوية النباتية والكميائية - أن يمنح نفس تلك القدرة للأنبياء والأئمة - عليهم السلام - .

انظر الى المتراضين (١) كيف يتمكّنون من بعض التصرفات الغريبة، فما المانع من أن يتفضّل الله على الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - بقدرة الإشفاء، ويجعلهم قادرين على القيام بأعمال محيرة للعقول وخارقة للأسباب المادية والطبيعية؟!!

إن قدرة الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - على شفاء المريض والقيام بأعمال استثنائية لا تُنافي أن يكون الله هو السبب الحقيقي والعلّة الأساسية لها، وذلك بأن منّهم القدرة على التصرف في الكون - بإذنه تعالى - عند الحاجة والمصلحة.

والجدير بالذكر أن في القرآن الحكيم آيات تصرّح بأن الناس كانوا يراجعون الأنبياء - وغير الأنبياء أيضاً - كي يقوموا بأعمال استثنائية خارقة للعادة الطبيعة.

وإليك بعض تلك الآيات:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

(١) المتراض: هو الذي يقوم بالرياضة الروحية والتمارين الشاقّة، يمنح روحه شفافية خارقة، تمكّنه من بعض التصرفات الغريبة، طبعاً تلك الشفافية شيطانية وليست رحمانية، ولهذا فهي تزول مع ترك تلك التمارين.

الحَجَر» (١).

يدلّ ظاهر هذه الآية على أن بني إسرائيل طلبوا من النبي موسى -عليه السلام- في وقت الجفاف وعدم توفر الماء أن يُهيئ لهم الماء بالطرق الغيبية والمعجزة، لا بالأسباب المادية الطبيعية. وترى واضحاً في الآية- أن بني إسرائيل لم يطلبوا من النبي موسى أن يدعو الله ويسأله توفر الماء، بل طلبوا منه أن يوفر لهم الماء فجأةً ومن دون سبب مادي، ولهذا أمره الله بأن يضرب بعصاه الحجر كي ينفجر منه الماء، بطريقة إعجازية، قال سبحانه:

«فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَيْ عَشَرَ عَيْنًا» (٢).

وأوضح من هذه الآية هي الآية التي تحكي قصة النبي سليمان -عليه السلام- عند ما طلب من الحاضرين عنده بإحضار عرش بلقيس، على الرغم من الحواجز والموانع التي كانت في طريقه (٣) يقول تعالى - حاكياً قول سليمان لمن حوله-:

«إِن كُنتُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» (٤).

لقد كان هدف سليمان -عليه السلام- إحضار عرش بلقيس بطريقة غير عادية، ولقد تحقّق ذلك فعلاً بطريق خرق الطبيعة، كما قال سبحانه:

(١) سورة الأعراف: آية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٦٠.

(٣) كان النبي سليمان في الاردن وكان عرش بلقيس في اليمن، وبينهما مئات الفراسخ والكيلومترات.

(٤) سورة النمل: آية ٣٨.

«قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
ظَرْفُكَ، فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ» (١).

إن روح الموضوع وبيت القصيد هو تصور البعض بأن الأعمال العادية هي من صلاحيات الانسان، وأن الأعمال الاستثنائية - التي يعجز الناس منها عادة - خاصة بالله سبحانه، وهذا هو الخطأ، لأن المقياس في تمييز أفعال الله عن غيره هو الاستقلال وعدم الاستقلال فيها.

إن الأعمال الإلهية هي التي ينفذها الفاعل - وهو الله - دون تدخل الغير فيها ودون الاستعانة بقدرة الآخرين. و بعبارة أخرى: إن الأعمال الإلهية هي التي يكون الفاعل مستقلاً تماماً في تنفيذها، ولا يحتاج الى الغير في إنجازها أبداً. أما الأعمال غير الإلهية - سواء كانت بسيطة وعادية أو صعبة وغير عادية - فهي التي لا يكون الفاعل مستقلاً في تنفيذها، بل يتم التنفيذ تحت ظلّ قدرة مستقلة وبالاستمداد منها، وهي قدرة الله تعالى.

بناءً على هذا فليس هناك أيّ مانع من أن يتفضّل الله على أوليائه بالقدرة على إنجاز الأعمال الخارقة للعادة والطبيعة، والتي يعجز البشر عادة عن القيام بها. يقول الله تعالى للنبيّ عيسى - عليه السلام -:

«تُبْرَى الْأَكْمَمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي» (١).

فما أصرح هذه الآية في الدلالة على الموضوع؟! إن هذه المجموعة من الآيات تدلّ على أن أولياء الله كانوا يملكون هذه القدرة، وأن طلب الناس منهم القيام بالأعمال الإستثنائية والإعجازية كان أمراً مُتداولاً معروفاً.

أيها القارئ الكريم: لقد تحدّثنا - حتى الآن - عن الصور الثلاث للاستعانة بأولياء الله في حياتهم، على ضوء القرآن الكريم، وقد عرفت بأن القرآن يُصرّح بصحة تلك الصور ويؤكد عليها في آيات متعدّدة.

أما التحدّث عن الصورتين الأخيرتين اللتين تتعلّقان بالاستعانة بالأرواح المقدّسة فسيأتيك في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

الاستعانة بأرواح أولياء الله

إن مسألة الاستعانة بأولياء الله - بعد وفاتهم وغيابهم عن هذه الحياة المادية - هي أهمّ مسألة في بحث الاستعانة بأولياء الله، ولا فرق بين أن تكون الاستعانة بصورة الدعاء أو طلب المعجزة. أمّا السبب في أهميّة هذه المسألة - عن التي سبقتها - فهو لأن المسلمين اليوم ليسوا في محضر نبيّ أو إمام كي يستعينوا به بصورة مباشرة (١) ولهذا فهم يستعينون بأرواحهم المقدّسة. من هنا كان هذا البحث أكثر أهميّة من الذي سبقه. أيّها القارئ الكريم: إن البحث في هذا الموضوع يتوقّف على التحدّث عن أربعة أمور، ومن خلال التحدّث عنها والاطلاع عليها تعرف جيّداً صحة الاستعانة والاستغاثة بالأرواح المقدّسة، والأمور الأربعة هي:

(١) إنّما عبّرنا بـ «محضر» ولم نعبّر بـ «عصر» نظراً لأنّ الزمان لا يخلو من حجة لله تعالى، ونحن الآن في عصر الامام الثاني عشر المهدي المنتظر - عليه السلام - ولكنه غائب عن الأبصار، ولهذا فلسنا في محضره الشريف. نسأل الله أن يعجل في ظهوره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

- ١ - بقاء الروح بعد الموت.
 - ٢ - حقيقة الانسان هي روحه.
 - ٣ - الاتصال بعالم الأرواح ممكن.
 - ٤ - الأحاديث الصحيحة التي رواها المحدثون، وهي تنادي بصحة الاستعانة بأولياء الله، وأن سيرة المسلمين كانت جارية على ذلك.
- وإليك الآن تفصيل هذه الأمور الأربعة:

١ - موت الانسان لا يعني فناءه

إن الآيات القرآنية تدلّ -بوضوح- على أن الموت ليس هو النهاية للحياة، بل هو محطة انتقال الى حياة جديدة، وبالموت يدخل الانسان في عالم جديد أسمى من عالم المادة والطبيعة.

إن كلّ من يعتقد بأن الموت فناءٌ وعَدَمٌ، وأن الانسان يفقد كلّ شيء بالموت ولا يبقى منه أثر، سوى جسد لا روح فيه، ثم يتحوّل ذلك الجسد -بعد فترة من الزمن- الى التراب والعناصر الأخرى. إن كلّ من يعتقد هذا الاعتقاد فهو -في الحقيقة- يُقلّد الفلسفة المادّية -القائمة على إنكار ما وراء المادة- تقليداً لا شعورياً.

إن أصحاب هذه النظرية لا يعتبرون الحياة إلا نتيجة مادّية لسلسلة تفاعلات كيميائية وعمليات فيزيائية تحصل في المخ والأعصاب، وعندما يفقد الجسم حرارته وتتوقف الخلايا عن الحركة والانتاج، تتوقف حياة الانسان أيضاً ويتحوّل الى جسد

جامد هامد.

وتذهب هذه النظرية الى أن الروح ليس إلا انعكاساً للمادة وآثارها وخواصها، ومع فقدان هذه الآثار والخواص تبطل الروح وتفتنى تبعاً للمادة.

ولهذا فهؤلاء لا يعتقدون بوجود عالم آخر باسم عالم الأرواح.

إن نظرية كهذه تستلهم أفكارها من «الفلسفة المادية» التي تعتبر الانسان كماكنة مركبة من قطع وأجزاء مختلفة، وأن تأثير هذا الأجزاء على بعضها يولد قدرة التفكير والإدراك في المخ، فاذا تعثرت هذا الأجزاء انعدمت آثار التفكير وتفتنى الحياة فناء كاملاً.

إن كبار الفلاسفة والعلماء الإلهيين يُفتدون تماماً نظريات الماديين حول الروح ويقولون بأن للانسان -بالإضافة الى النظام المادي الحاكم في جسمه، والتفاعلات المتبادلة وسلسلة الأعصاب- جوهرأ أصيلاً اسمه «الروح»، وهذا الجوهر يُلازم البدن فترة من الزمان ثم ينفصل عنه ويُحلق في عالم آخر اسمه «البرزخ» ليلتحق بجسم لطيف هناك .

إن التحدّث عن بقاء الروح بعد الموت يستدعي كتاباً مستقلاً حوله، ولا يمكن البحث عنه -بالتفصيل- في هذه الصفحات المحدودة، وذلك لأن الآيات القرآنية والأدلة الفلسفية وتجارب الروحانيين الثابتة قد برهنت اليوم على بقاء الروح

الانسانية بعد الموت.

وهنا نكتفي فقط بذكر بعض الآيات التي تثبت بقاء الروح

بعد الموت.

القرآن وبقاء الأرواح

إن الآيات القرآنية تدلّ -بوضوح كامل- على بقاء الروح بعد الجسد، ولمراعاة الاختصار نذكرها ذكراً عابراً، على أمل أن نُقدّم تحليلاً لها في فرصة أُخرى:

أ- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ، بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» (١).

ب- «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

«فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ...».

«يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» (٢).

ج- «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمِعُونِ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي

يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» (٣).

إن المقصود من الجنة التي أمر أن يدخل فيها هي الجنة

(١) سورة البقرة: آية ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٩/١٧٠/١٧١.

(٣) سورة يس: آية ٢٥/٢٦/٢٧.

البرزخيَّة لا الجنة الأخروية (١) بدليل قوله تعالى: يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ».

إن تمني معرفة قومه على مكانه لا يتفق مع عالم الآخرة التي «تُبلى السرائر» فيها وتُرفع فيها الأستار أمام الأنظار، ولا تخفى -يومئذٍ- أحوال بعض الناس عن بعضهم، بل إنه ينسجم مع الحياة الدنيا التي يعيش الناس فيها منقطعين عن البرزخ وقضاياها وما يجري على الناس فيها، وهذا ما يشهد به القرآن الكريم. بالإضافة الى ذلك... إن الآية الأخرى التالية -بعد الآية المذكورة- تدلّ بأن قوم ذلك الرجل فارقوا الحياة -بعد ذلك- إثر صيحة سماوية عنيفة، يقول تعالى:

د - «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا

مُنزِلِينَ، إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ» (٢).

يُستفاد من هاتين الآيتين بأن قوم الرجل -الذي دخل الجنة- كانوا يعيشون في هذه الحياة، ثم فاجأهم الموت بغتة، فهذه الجنة ليست إلا جنة البرزخ.

هـ - «التَّارِ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ

فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (٣).

مع الانتباه الى هاتين الآيتين يظهر لنا حياة آل فرعون في

(١) البرزخ: هو العالم الذي يتوسط الدنيا ويوم القيامة.

(٢) سورة يس: آية ٢٨/٢٩.

(٣) سورة المؤمن: آية ٤٦.

عالم البرزخ، حيث إنهم يُعرضون على النار في الصباح والمساء الى قيام الساعة، فاذا قامت القيامة أدخلوهم في أشد العذاب-جهنم. ولولا قوله تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» لما ظهر المقصود من الآية، ولكن دليل على أن ما قبلها يعود الى عالم البرزخ. أضف الى ذلك: إن موضوع الصباح والسما يدل على أن المقصود ليس يوم القيامة، وذلك لأنه لا صباح ولا مساء في ذلك اليوم.

أيها القارئ الكريم: كان هذا بحثاً موجزاً عن حياة الانسان بعد الموت، والآن جاء دور التحدُّث عن الأمر الثاني وهو:

٢ - حقيقة الانسان هي روحه

يبدو للانسان - في الوهلة الأولى - أنه مركَّب من الروح والجسد معاً، ولكن حقيقة الانسان هي روحه التي تلازم جسده.

نحن الآن لسنا في مقام التحدُّث عن هذا الموضوع من الوجهة الفلسفية الاسلامية واليونانية، بل إن هدفنا هو دراسة الموضوع على ضوء كتاب الله الذي لا ريب فيه.

إن التأمل في الآيات التي تتحدَّث عن الانسان، يكشف لنا - بكل وضوح - أن حقيقة الانسان هي روحه، إقرأ هذه الآية:

«قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

تُرْجَعُونَ» (١).

إن كلمة «توقى» لا تعني الإمامة - كما هو معروف - بل تعني الأخذ والقبض، ولهذا فإن قوله تعالى: «يَتَوَقَّأَكُمُ» معناه: يأخذكم ويقبضكم، وإنما يكون هذا التعبير صحيحاً إذا كانت الروح هي الوجود الحقيقي للإنسان، فهي التي «تُقَبِّضُ» و«تُؤَخِّدُ» (٢).

أما لو كانت الروح تُشكّل جزءً من شخصية الإنسان والجزء الثاني هو جسمه، فإن هذه العبارة تكون مجازاً، لأن المفروض أن ملك الموت يقبض أحد الجزء - وهو الروح - وأما الجزء الثاني - وهو الجسد المادي - فهو يتركه باقياً في الدنيا، ثم يودع في القبر ولا علاقة لملك الموت به.

أيها القارئ الكريم: إن الآيات التي تتحدث عن الروح وموضعها من الإنسان متعددة، وقد ذكرنا آية واحدة نموذجاً من ذلك.

و الأمر الأول الذي أشرنا إليه «بقاء الروح بعد الموت» يكشف هذه الحقيقة أيضاً، بأن الروح هي واقع الإنسان ومصدر تكامله النفسي والمعنوي، كما أن الجسد بمثابة الرداء الذي يغطي الروح ويكسوها.

(١) سورة السجدة: آية ١١.

(٢) لقد أجرى المرحوم العلامة البلاغي بحثاً قيمياً حول كلمة «توقى» في مقدمة

تفسير آلاء الرحمن: ص ٣٤.

و القرآن الكريم لا يعتبر الموت فناً للإنسان وخاتمةً لحياته، بل أنه يؤكد - وخاصةً للشهداء والصالحين، والمجرمين أيضاً - أن لهم حياة أخرى تسبق يوم القيامة، وأن تلك الحياة مصحوبة بالفرح والبشرى أو بالعذاب الأليم.

فاذا كانت حقيقة الإنسان كامنة في جسده، فلا شك أن جسده سوف يتلاشى بعد أيام من موته ودفنه، ويتحوّل الى عناصر أخرى، فأين عالم البرزخ لو كان الحال هذا؟!!

٣ - الإتصال بعالم الأرواح

هل يمكن الاتصال بعالم الأرواح؟

الجواب: نعم بكل تأكيد، وسوف نبرهن عليه على ضوء القرآن الكريم والأدلة العلمية.

إن إثبات بقاء الروح مجرداً عن المادة، لا يكون كافياً في صحة الاستعانة والاستغاثة بها إلا إذا ثبت إمكان الاتصال بذلك الروح من عالم الدنيا.

في القرآن الكريم آيات متعددة تُثبت أن اتصال الإنسان بعالم الأرواح أمرٌ ممكن، بل تحقّق ذلك فعلاً، فمثلاً:

أ - النبيّ صالح - عليه السلام - تحدّث الى أرواح قومه.

يقول تعالى:

«فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ

كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ».

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ».

«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ

لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» (١).

تأمل هذه الآيات:

الآية الأولى: تشير الى أنهم -يوم كانوا على قيد الحياة-

طلبوا منه العذاب الإلهي الموعود.

الآية الثانية: تُشير الى نزول العذاب عليهم وموتهم جميعاً.

الآية الثالثة: تُشير الى مقالة النبي صالح -عليه السلام- بعد

موتهم وفنائهم، حيث تأسف على المصير الأسود الذي اختاروه

لأنفسهم وقال -مخاطباً لهم-: «يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَ

نَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ». والدليل على أن هذا الخطاب من

النبي صالح كان بعد موتهم هو كالتالي:

١ - تنظيم و تنسيق الآيات بالشكل الذي سبقت الإشارة

اليه.

٢ - حرف «الفاء» في كلمة «فَتَوَلَّى» الذي يدل على

الترتيب، وقد جاءت بعد قوله تعالى: «فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ»

(١) سورة الأعراف: آية ٧٧ و٧٨ و٧٩. لقد ذكر في بعض الآيات أن العذاب الذي نزل

عليهم كان صيحة سماوية - كما في سورة هود: آية ٦- وفي بعضها أن العذاب كان صاعقة

نارية - كما في سورة فصلت: آية ١٧- وفي بعضها أنه كان زلزلة ورجفة، ووجه الجمع بين

هذه الآيات هو أن الصيحة السماوية والصاعقة كانت مصحوبة بالزلزلة.

مما يدلّ على أن خطاب النبيّ صالح لقومه كان بعد نزول العذاب عليهم .

ويُفهم من قوله: «وَلَكِنَّ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» ان أولئك كانوا على حدّ من العناد والشقاء بحيث إن أرواحهم - حتى بعد مماتهم - كانت رافضة للموعظة والنصيحة .

ب - النبيّ شعيب - عليه السلام - تحدّث الى أرواح قومه أيضاً .
إقرأ هذا الآيات :

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثمين» .

«الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» .

«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ» (١) .

إن الإستدلال بهذه الآيات هو كالإستدلال السابق بالآيات المرتبطة بالنبيّ صالح وقومه .

ج - النبيّ محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - مع الأنبياء .
يقول تعالى :

«وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (٢) .

(١) سورة الأعراف: آية ٩١ و ٩٢ و ٩٣ .

(٢) سورة الزخرف: آية ٤٥ .

إن ظاهر هذه الآية يدلّ على أن بإمكان النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي يعيش في هذه النشأة الطبيعية أن يتصل بالأنبياء الذين يعيشون في النشأة الأخرى، كي يثبت للمشركين أن جميع الأنبياء -وفي كلّ العصور- كانوا يدعون الى توحيد الله وعبادته.

د - سلام القرآن على الأنبياء

إن القرآن الكريم يُسلم على الأنبياء، في مواضع متعدّدة، ولا شكّ أن هذا السلام ليس سلاماً سطحياً أجوفاً، بل هو سلام حقيقيّ وتحية جدية يوجّهها القرآن الى أنبياء الله ورسله. ومن غير الإنصاف أن يحاول أحدٌ تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً سطحياً سخيفاً، يتحوّل الى مجموعة ألفاظ فارغة جوفاء.

إن الماديين -الذين لا يعتقدون بالروح والمعنويات- يبعثون السلام والتحية الى قادتهم وشخصياتهم، في عبارات جوفاء. أمّا نحن المسلمين فتمتّع بالعقيدة الصحيحة تجاه الروح، وعليه فلا يصحّ أن نفسّر المفاهيم القرآنية -النابعة من الحقيقة والواقع- تفسيراً قشرياً، بأن نقول: إن كافة التحيات في القرآن -والتي نتلوها في آناء الليل وأطراف النهار- ليست إلاّ مُجاملات جوفاء وفي مستوى تحيات الماديين. انظر الى القرآن يُسلم على الأنبياء:

- ١ - «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ».
- ٢ - «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ».
- ٣ - «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ».
- ٤ - «سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ».
- ٥ - «سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» (١).

هـ- السلام على النبي عند ختام الصلاة

إن جميع المسلمين في العالم - بالرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين - يُسَلِّمُونَ على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في الصلاة عند ختامها فيقولون:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

وقد افتى الشافعي وآخرون - بوجوب هذا السلام بعد التشهد، وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متفقون على أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَلَّمَهُمُ السَّلَامَ (٢) وأن سُنَّةَ النبي ثابتة في حياته وبعد وفاته.

والسؤال الآن: إذا كانت صَلَّتْنَا وَعَلَّاقْنَا بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قد انقطعت بوفاته، فما معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟!!

(١) سورة الصافات: آية ٧٩ و ١٠٩ و ١٢٠ و ١٣٠ و ١٨١.

(٢) راجع كتاب تذكرة الفقهاء: ج ١، و كتاب الخلاف للشيخ الطوسي: ج ١ ص ٤٧ لمعرفة أقوال المذاهب والفقهاء في هذا المجال.

وقد روي عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه قال:
 «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ بُعْدِ
 أُبْلَغْتُهُ» (١).

هذا وقد تحدّثنا بالتفصيل عن موضوع الاتصال بالأرواح في
 العالم الآخر في كتاب مستقل، وذكرنا هناك آيات متعدّدة
 حوله، ونكتفي هنا بهذه الآيات مراعاة للاختصار.
 وختاماً تجدر الإشارة إلى أننا أوردنا الاستدلال بالسلام عند
 التشهد في خلال البحث عن الآيات المذكورة، بسبب قطعيتها
 وثبوته الأكيد.

وإليك الآن نموذجين - من التاريخ - حول التحدّث مع
 الأرواح:

١ - روي عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه وقف على
 قليب «بَدْر» (٢) وخاطب المشركين - الذين قُتلوا وأُقيت
 أجسادهم في القليب -:

«لَقَدْ كُنْتُمْ جِيرَانَ سَوْءِ لِرَسُولِ اللهِ، أَخْرَجْتُمُوهُ مِنْ مَنْزِلِهِ وَطَرَدْتُمُوهُ،
 ثُمَّ اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ فَحَارَبْتُمُوهُ، فَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».
 فقال له رُجل: يَا رَسُولَ اللهِ مَا خِطَابُكَ لِهَامٍ قَدْ
 صُدِّيتَ؟ (٣).

(١) كتاب حقّ اليقين للسيد عبد الله شُبَيْر: ج ٢ ص ٧٣.

(٢) القليب: البئر.

(٣) الهام - جمع هامة - الرأس. صُدِّيت: تفسّخت، والمعنى: كيف تخاطب رؤوساً قد تفسّخت.

فقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :

«وَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ، وَمَا بَيِّنُهُمْ وَيَبَيِّنُ أَنْ تَأْخُذَهُمُ الْمَلَائِكَةُ

بِمَقَامِعٍ مِنْ حَدِيدٍ إِلَّا أَنْ أُعْرِضَ بِوَجْهِهِ -هكذا- عَنْهُمْ» (١).

٢ - وروي أن الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

-عليهما السلام- ركب دابته -بعد انتهاء حرب الجمل في البصرة-

وصار يتخلل القتلى، حتى مرَّ على كعب بن سور -وكان قاضي

البصرة منذ أيام عمر وفي أيام عثمان، ولما وقعت الفتنة بالبصرة

خرج لحرب خليفة رسول الله وإمام زمانه، مع أهله وولده فقتلوا

جميعاً -فوقف عليه أمير المؤمنين -عليه السلام- وهو صريع بين

القتلى.

فقال -لن حوله- :

«أَجْلِسُوا كَعْبَ بْنَ سُورٍ».

فأجلسوه بين شخصين يمسانه، فقال -عليه السلام- :

«يَا كَعْبَ بْنَ سُورٍ! قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُ مَا

وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقًّا؟!»

ثم قال :

«أَضْحَجُوهُ».

وسار قليلاً حتى مرَّ بطلحة بن عبد الله صريعاً فقال :

«أَجْلِسُوا طَلْحَةَ».

(١) صحيح البخارى: ج ٥ باب قتل أبي جهل ص ٧٦ و٧٧، وسيرة ابن هشام: ج ٢

ص ٢٩٢، وحق اليقين للسيد عبد الله شبر: ج ٢ ص ٧٣.

فأجلسوه، فقال - عليه السلام - :

«با ظَلَحَةً! فَذْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتَ مَا وَعَدَكَ

رَبِّي حَقًّا؟!»

ثم قال :

«أُضِجِعُوا ظَلَحَةً.»

فقال له رجل :

«يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟!»

فقال - عليه السلام - :

«يا رَجُلٌ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعَا كَلَامِي، كَمَا سَمِعَ أَهْلُ الْقَلْبِ كَلَامَ رَسُولِ

اللَّهِ» (١).

نتيجة البحث

بصورة خاطفة نستخلص ما سبق من البحث فيما يلي :

- ١ - لقد أثبتنا - في الموضوع الأول - أن الموت ليس هو النهاية للحياة، ولا يعني فناء الانسان، إنما هو معبر ينتقل الانسان به الى عالم آخر.
- ٢ - كما أثبتنا - في الموضوع الثاني - أن حقيقة الانسان هي روحه، وأن الجسد ليس إلا رداء يُغطي الروح، وبقاء الروح يعني بقاء المعنويات والكمالات والشخصية الانسانية - باستثناء القدرات المادية التي تزول بزوال الجسد -.

(١) حق اليقين للسيد عبد الله شُتْر: ج ٢ ص ٧٣.

و على هذا الأساس... لو كانت لنفس الانسان وروحه القدرة على الدعاء أو إنجاز أعمال إعجازية - عند ما كان على قيد الحياة - فلروحه أيضاً القدرة على إنجاز كل تلك الأعمال بعد موته بإذن الله تعالى.

٣ - وفي الموضوع الثالث أثبتنا إمكان الاتصال بالعالم الآخر، بل وقوعه وحدوثه، وأن الأرواح قادرة على سماع كلامنا وخطابنا لها، ولا فرق بين أرواح الصالحين أو المجرمين، كما سبقت القصص القرآنية والتاريخية عليك.

بعد الانتباه الى هذه الأمور الثلاثة، ثبت أن أولياء الله تعالى يسمعون كلامنا وخطابنا، واذا أذن الله لهم فإنهم يردون علينا الجواب.

و السؤال الآن: هل يجوز لنا - شرعاً - مخاطبة أرواح أولياء الله والاستعانة بها؟

الجواب يأتيك في الأمر الرابع إن شاء الله تعالى.

٤ - المسلمون وطلب الحاجة من الأرواح المقدسة

لقد تسرع ابن تيمية - وأتباعه - في الحكم، فأنكروا أن يكون الصحابة والتابعون قد طلبوا حاجة من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فهم يقولون:

«ولم يكن أحد من سلف الأمة - في عصر الصحابة ولا التابعين ولا

تابعي التابعين - يتخيرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء

ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم» (١).
 لعلَّ الانسان الجاهل بتاريخ الصحابة والتابعين ينخدع بهذا الكلام ويتصور صدقَه وصحته، ولكن سرعان ما يثبت له كذب هذا الادعاء وبطلانه اذا قام بنظرة خاطفة الى التاريخ، وقرأ بعينه توسُّل الصحابة وغيرهم بالنبي، والاستغاثة به - صلى الله عليه وآله وسلم - . واليك بعض النماذج من ذلك :

١ - أصاب الناسَ فحطُّ في عهد عمر بن الخطاب، فجاء رجل الى قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأناه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في المنام فقال: انتِ عمر، فأقره السلام وأخبره إنهم مُسْئِفُونَ» (٢).
 ثم يقول السمهودي - بعد ذكر هذه القضية -:

«وَمَحَلُّ الاستشهاد طلب الاستسقاء منه -ص- وهو في البرزخ، ودعاؤه لربه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه، كما كان في الدنيا» (٣).

٢ - ويروي السمهودي أيضاً عن الحافظ أبي عبد الله محمد بن موسى بن النعمان، بسندٍ ينتهي الى الامام علي أمير المؤمنين - عليه السلام -:

«ان أعرابياً جاء الى المدينة بعد ثلاثة أيام من دفن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فرمى بنفسه على قبر النبي وحنى من ترابه على رأسه

(١) رسالة الهدية السيِّية: ص ١٦٢ طبعة المنار في مصر.

(٢ و ٣) وفاء الوفا: ج ٢ ص ١٣٧١.

وقال: «يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه ما
وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا
رَحِيمًا» (١) وقد ظلمت نفسي وجثك تستغفري» (٢).

أيها القارئ الكريم: إن السمهودي يذكر- في كتابه وفاء
الوفا، الباب الثامن- قضايا ووقائع كثيرة وكلها تدل على أن
الاستغاثة برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كانت سيرة
مستمرة للمسلمين، حتى أنه يقول: إن الامام محمد بن نعمان
كتب كتاباً حول هذا الموضوع بعنوان: مصباح الظلام في
المستغيثين بخير الأنام.

٣- يقول محمد بن المنكدر:

«أودع رجلٌ أبي ثمانين ديناراً، وخرج للجهاد وقال لأبي: إن
احتجت أنفقها الى أن أعود، وأصاب الناس جُهدٌ من الغلاء، فأنفق
أبي الدينار، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال له أبي: عُد إليّ غداً،
وبات في المسجد يلوذ بقبر النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلم- مرّة
ومنبره مرّة، حتى كاد أن يُصبح، يستغيث بقبر النبي، فبينما هو كذلك
وإذا بشخص -في الظلام- يقول: دونكها يا أبا محمد، فقد أبي يده
فاذا هو بصرّة فيها ثمانون ديناراً، فلما أصبح جاء الرجل فدفعها إليه» (٣).

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) وفاء الوفا: ج ٤ ص ١٣٦١ وقد سبق ذكر هذا الحديث في فصل سابق.

(٣) وفاء الوفا: ج ٤ ص ١٣٨٠.

٤ - يقول أبو بكر المقرئ:

« كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في حرم رسول الله -ص- وكنا على حالة وأثر فينا الجوع، وواصلنا ذلك اليوم، فلما كان وقت العشاء حضرت قبر النبي -ص- فقلت: يا رسول الله: الجوع... فحضر الباب غلوي فدق ففتحنا له، فاذا معه غلامان مع كل واحد زنبيل فيه شيء كثير، فجلسنا، وأكلنا، وظننا أن الباقي يأخذه الغلام، فولى وترك عندنا الباقي، فلما فرغنا من الطعام قال العلوي: يا قوم أشكوتكم إلى رسول الله؟ فإني رأيت رسول الله في المنام فأمرني أن أحمل بشيء اليكم» (١).

٥ - يقول ابن جلاب:

«دخلت مدينة النبي -ص- وفي فاقة، فتقدمت إلى القبر وقلت: ضيفك. فغفوت فرأيت النبي فأعطاني رغيفاً، فأكلت نصفه، فانتبهت ويدي النصف الآخر» (٢).

نحن الآن لسنا في مقام مناقشة هذه القضايا المذكورة، وبيان صحيحها من سقيمها، وإنما الكلام هو أن هذه الوقائع -بمجموعها- تشهد بأن الاستغاثة برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كانت سنة جارية بين المسلمين، ولو كانت بدعة ومحرمة، أو شركاً وكفراً، لما ذكرها حتى وُضِعَ الحديث، خوفاً من تشويه سمعتهم بين الناس.

(١) وفاء الوفا: ج ٤ ص ١٣٨٠.

(٢) وفاء الوفا: ج ٤ ص ١٣٨١.

والجدير بالذكر، إننا قد أفردنا كتاباً مستقلاً بعنوان «اصالة الروح» وتحدّثنا فيه - بالتفصيل - عن كلّ ما يرتبط بهذا الموضوع، وأوردنا أحاديث وروايات كثيرة فيه، وكلّها تدلّ على صحة الدعاء والحاجة من الأرواح المقدّسة وصحة طلب إنجاز عمل إعجازي خارق للطبيعة منهم.

وفي ختام هذا الفصل نجلب الانتباه الى الأمور التالية:

١ - إن طلب الحوائج من أولياء الله ليس عبادة لهم أبداً، وخاصّة بعد أن تحدّثنا - بالتفصيل - عن معنى العبادة ومواردها، وأن الاعتقاد بالألوهيّة والربوبيّة هو الذي يصبغ العمل بصبغة العبادة، ومن الواضح أن المتوسّل بأولياء الله لا يعتقد بالوهيّيّتهم ولا بربوبيّتهم، ولا بتدبيرهم لشؤون الكون ولا بقيامهم بأفعال الله - بالاستقلال والاختيار - بل يعتبرهم عباداً مكرمين، أطهاراً طيّبين، وُجّهاء عند الله، مطيعين له، غير مرتكبين لأدنى ذنب ومعصية.

٢ - إن الأمور الأربعة المذكورة أثبتت - بالدليل والبرهان - أن أولياء الله يملكون القدرة على قضاء حاجة المتوسّل، نظراً لحياتهم عند الله، وأن كلّ ما يصدر منهم إنما هو بإذن الله تعالى، فهم من مصاديق قوله تعالى:

«وما تشاؤون إلا أن يشاء الله».

فشلاً: كما أن النبيّ عيسى - عليه السلام - كان في حياته المادّيّة في الدنيا يسأل الله تعالى الخير لمن يريد، أو يُبرئ الأكمه

والأبرص (١) بإذن الله كذلك يملك هذه القدرة بعد الانتقال الى عالم الأرواح «البرزخ» لأن روحه - التي هي حقيقته - باقية .
 ٣ - إن التواضع والخضوع أمام قبور أولياء الله هو - في الحقيقة - تواضع لله وخضوع له، وإن كان في ظاهره تواضعاً لذلك الولي الصالح، إلا أنه لو كشفنا الستار عن قلب ذلك المتواضع لرأينا أنه يتواضع لله من خلال تواضعه لوليّه الصالح، وأنه يطلب حاجته من الله بواسطة هذا الولي الصالح وبسببه، فالتوسّل بالأسباب هو عين التوسّل بمسبّب الأسباب - وهو الله سبحانه - وهذا واضح لأهل البصيرة والمعرفة .

و أنت لو سألت المتوسّل بأولياء الله عن الذي دعاه الى التوسّل به، لأجابك - فوراً - بأنه «وسيلة» الى الله سبحانه، كما قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٢) .

فكما أن الانسان يتوسّل الى الله بالصلاة والصوم والعبادات والطاعات، كذلك يتوسّل اليه سبحانه بأوليائه الصالحين المكرّمين لديه .

والخلاصة: إن المؤمن يعتقد - في قرارة نفسه - بأن توسّله بالنبّي

(١) الأكمة: الذي وُلد أعمى . البرص - : مرض جلدي يكون بظهور بقع بيضاء في الجسم .

(٢) سورة المائدة: آية ٣٥ .

وغيره من المعصومين والصالحين يدفع ذلك المتوسّل به الى السؤال من الله تعالى لقضاء حاجة من توسّل به، سواء كانت الحاجة غفران ذنب، أو أداء دين، أو شفاء مريض، أو رفاهيّة عيش، أو غير ذلك .

الفصل الرابع عشر

طلب الشفاعة من أولياء الله تعالى

إن «الشفاعة» كلمة معروفة بيننا جميعاً، وهي تتردد على ألسنتنا في وقتها المناسب، فمثلاً: إذا دار الحديث عن إنسان ارتكب جريمة وحكمت عليه المحكمة بالأعدام أو السجن أو غيرهما، ثم تدخل إنسان آخر وتوسّط له وأنقذه ممّا حُكم عليه عندها نقول: إن فلاناً «تشفّع» لفلان.

معنى الشفاعة

«الشفاعة» مشتقة من مادة: الشفع - بمعنى الزوج - ويقابله: الوتر - بمعنى الفرد - والسبب في إطلاق «الشفاعة» على الوساطة و«الشفيع» على الوسيط هو أن جهود الوسيط ومساعدته تزوّج مع عوامل الانقاذ والجهود والمساعدات الأخرى الموجودة في المشفوع له، فتتقد المذنب أو المتهم من ورطته.

إن شفاعة أولياء الله للمذنبين تأتي بسبب قرب هؤلاء من الله تعالى، ومكانتهم وجاههم عنده سبحانه، فهم يشفعون - بإذن الله - وضمن شروط خاصة - للمذنبين والمجرمين كي يغفر الله لهم أو

يقضي حوائجهم.

و بعبارة أخرى: إن الشفاعة إعانة من أولياء الله - بإذن الله - لأشخاص لم يقطعوا روابطهم المعنوية مع الله وأوليائه، بالرغم من أنهم مذنبون، هذا تعريف دقيق يجب الانتباه اليه دائماً.

و بتعبير ثالث: إن الشفاعة هي إعانة موجود عال لموجود دان، بشرط أن تكون في الداني القابلية والاستعداد لشمول الشفاعة له، من حيث صلاحيته للتكامل والرقى الى مرتبة عالية ودرجة سامية، وتحوّله الى إنسان صالح نزيه.

بعد هذه التعاريف المتعددة نقول: إن التاريخ الاسلامي يُثبت أن المسلمين منذ عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وما بعده كانوا يطلبون الشفاعة من أولياء الله الصالحين، سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم، ولم يعتبر أحد من علماء الاسلام بأن هذه الشفاعة مُعارضة للمبادئ والأصول الاسلامية.

حتى جاء ابن تيمية - في القرن الثامن الهجري - بأفكار شاذة وآراء سقيمة، فاستنكر كثيراً من مبادئ الاسلام وسُنن المسلمين. وبعده بثلاثة قرون جاء محمد بن عبد الوهاب النجدي، فرفع راية الخلاف مع المسلمين وأحدث الفتنة والشقاق بينهم، وأحیی مبتدعات ابن تيمية بأشدّ مما كان عليه.

إن الوهابية تعتقد بالشفاعة - من حيث المبدأ - ولكن نقطة الخلاف بينها وبين المسلمين هي أنها تُحرّم الاستشفاع بأولياء الله في الدنيا، وقد عبّر الوهابيون عن عقيدتهم هذه بعبارات قاسية

متضمنة للإهانة والاستخفاف بالأنبياء والأولياء، ونحن نتورّع حتى عن ذكر تلك العبارات.

وَمَا يَقُولُونَ فِي الشَّفَاعَةِ: إِنَّ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَسَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ، لَهُمْ حَقَّ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ فَقَطْ، لَكِنْ طَلَبَ الشَّفَاعَةَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْهُمْ، بَأَنْ يُقَالَ:

«اللَّهُمَّ شَفِّعْ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا فِيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَوْ: اللَّهُمَّ شَفِّعْ فِيْنَا عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ. أَوْ: مَلَائِكَتِكَ أَوْ خِزْيَانَتِكَ مِمَّا يُطَلَّبُ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْهُمْ، فَلَا يُقَالُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَوْ - يَا وَلِيَّ اللَّهِ أَسْأَلُكَ الشَّفَاعَةَ أَوْ غَيْرَهَا مِمَّا لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا طُلِبَتْ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ الْبَرْزَخِ كَانَ مِنْ أَقْسَامِ الشَّرْكِ» (١).

وهكذا ترى الوهابيين يرمون المسلمين بالشرك، لأنهم يسألون الشفاعة من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأولياء الله الصالحين في الدنيا والآخرة.

نحن قبل أن نتطرق إلى مناقشة أدلة الوهابيين، نبدأ - أولاً - بدراسة المسألة على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيرة المسلمين، ثم نتناول أدلة الوهابيين بالبحث والمناقشة.

الأدلة على جواز طلب الشفاعة في الدنيا

إن دليلنا على جواز طلب الشفاعة في الدنيا يتركب من

أمرين، ومع ثبوتها يتّضح الموضوع بالكامل. أمّا الأمران فهما:

- ١ - إن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بالضبط.
 - ٢ - إن طلب الدعاء من الصالحين أمرٌ مستحبٌّ في الإسلام.
- وإليك البحث عن هذين الأمرين:

١ - طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بالضبط

إن شفاعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسائر الشفعاء الصالحين ليست سوى الدعاء الى الله تعالى، إذ أنهم -لمنزلتهم الوجية عند الله وكرامتهم عليه- يتهلون اليه سبحانه بالدعاء وطلب المغفرة للمذنبين، والله تعالى يستجيب دعاءهم فيشمل عباده العاصين برحمته ومغفرته ويغسل ذنوبهم ويكفر سيئاتهم.

إن طلب الدعاء من الأخ المؤمن هو أمرٌ مُستحسن ولم يتردد في حُسنه أحدٌ من علماء الإسلام والمذاهب المتعددة -حتى الوهابية-

فكيف بدعاء النبي والأولياء الصالحين؟!!

طبعاً... لا يمكن القول بأن الشفاعة معناها الدعاء في مواقف يوم القيامة، ولكن يمكن القول بأن من المعاني الواضحة للشفاعة هو الدعاء، وأن مَنْ يُخاطب أحد أولياء الله ويقول: «يا وَجِيهًا عِنْدَ اللَّهِ إِشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ» لا يقصد إلا هذا المعنى.

يروى نظام الدين النيشابوري - في تفسير قوله تعالى:

«مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» (١).

يروى عن مقاتل أنه قال :

«الشفاعة إلى الله إنما هي الدعوة لمُسلم».

وقد روي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن من يدعو لأخيه المسلم بظهر الغيب يُستجاب دعاءه وتقول الملائكة: ولك مثله.

إن ابن تيمية هو من الذين يعتبرون طلب الدعاء من الانسان الحي صحيحاً، وعلى هذا الأساس فإن طلب الشفاعة لا يختص من النبي وأولياء الله، بل يجوز ذلك من كل مؤمن يحظى بالوجاهة والمنزلة عنده سبحانه.

و الفخر الرازي هو أحد الذين يُفسرون «الشفاعة» بالدعاء والتوسل الى الله تعالى، فقد قال - في تفسير قوله سبحانه :

«وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً» (١).

قال :

«هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين (٢) ... واذ ثبت هذه في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء، لانعقاد الاجماع على أنه لا فرق».

وقال أيضاً :

وأيضاً قال تعالى لمحمد -ص-: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» فأمر محمداً أن يذكر -أولاً- الاستغفار لنفسه، ثم بعده

(١) سورة غافر: آية ٧.

(٢) لأن في نهاية الآية قوله تعالى: «وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح - عليه السلام - أنه قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» (١).

إن هذا التوضيح من الفخر الرازي شاهدٌ على أنه يرى معنى الشفاعة هو دعاء الشفيع للمذنب، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء منه.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة أن دعاء المسلم لأخيه المسلم هو شفاعة له، فعن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال:

«مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أُرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ» (٢).

لقد جاء - في هذا الحديث - تعبير «شفعهم الله فيه» للذين يدعون لأخيه المسلم.

و انطلاقاً من هذا الحديث فلو أن رجلاً أوصى - في حياته - إلى أربعين رجلاً من أصدقائه الأوفياء بأن يقوموا على جنازته بعد وفاته و يدعوا له، فهو بذلك قد طلب الشفاعة منهم، وهياً أسباب شفاعة عباد الله لنفسه.

(١) تفسير الفخر الرازي: ج ٧، ص ٣٣ و ٣٤. أقول: لقد ثبت بالأدلة القطعية أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وغيره من الأنبياء معصومون عن كل خطأ وذنوب، مُطَهَّرُونَ مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، ولهذا فالمقصود من قوله تعالى: «الذنبك» ليس هو المعصية والمخالفة، والتفصيل يطلب من محلّه.

(٢) صحيح مسلم: ج ٣ ص ٥٤.

وقد أفرد البخاري - في صحيحه - باباً بعنوان «إذا استشفعوا الى الامام ليستسقي لهم، لم يردّهم» وأفرد أيضاً باباً آخر بعنوان «إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط» (١).

وتدلّ الأحاديث التي ذكرها في هذين البابين أن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بذاته، ولا يجوز تفسير ذلك بمعنى آخر. الى هنا ننهي من الاستدلال الأول، وقد ثبت أن طلب الشفاعة ليس إلا طلب الدعاء لا غير.

و الآن نبدأ البحث عن الموضوع الثاني وهو أن طلب الدعاء من المؤمن مستحب، فكيف من الأنبياء وأولياء الله تعالى؟!:

٢ - القرآن و طلب الدعاء من الصالحين

إن الآيات القرآنية تشهد بأن طلب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - المغفرة من الله لبعض عبادِه مُفيدٌ ونافعٌ جداً... يقول تعالى:

١ - «وَاسْتَعْفِرْ لَدُنِّيكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

٢ - «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» (٣).

فما دام دعاء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يترك هذا الأثر الكبير والنتيجة الحسنّة لمن دعا له، فما المانع من أن يطلب

(١) صحيح البخاري: ج ١.

(٢) سورة محمد - صلى الله عليه وآله - : آية ١٩.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٣.

الانسان من أن يدعو له، مع العلم أن طلب الدعاء ليس إلا طلب الشفاعة منه، قال تعالى:

٣- «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (١).

إن معنى قوله تعالى: «جاءوك» أي: جاؤا الى النبي وطلبوا منه الدعاء والاستغفار لهم، ولولا هذا لكان مجيئهم لغواً وباطلاً. إن تشرّفهم بالحضور عند النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وطلبهم الدعاء والاستغفار منه دليل على حدوث رد فعل في نفوسهم، وحصول تغيير يُمهّد الأرضية المناسبة لاستجابة الدعاء.

٤- يروي القرآن الكريم عن أولاد يعقوب - عليه السلام - أنهم طلبوا من أبيهم أن يستغفر الله لهم، فلبى النبي يعقوب طلبهم، ووفى بوعدته، قال تعالى:

«قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ

لَكُمْ رَبِّي...» (٢).

إن كل هذه الآيات تدل على أن طلب الدعاء من الأنبياء والصالحين - الذي هو طلب الشفاعة أيضاً - لا يتنافى مع الأحكام الشرعية والقواعد والموازين الاسلامية.

أيها القارئ الكريم: هناك أحاديث كثيرة بشأن طلب الدعاء من الأولياء الصالحين، وقد صرفنا النظر عن ذكرها مراعاة للاختصار.

(٢) سورة يوسف: آية ٩٧ و٩٨.

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

٣- الأحاديث النبوية وسيرة الصحابة

روى الترمذي - في صحيحه - عن أنس أنه قال:

«سَأَلْتُ النَّبِيَّ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: أَنَا فَاعِلٌ، قُلْتُ: فَأَيَّنَ

أَظْلُبُكَ؟ قَالَ: عَلَى الصَّرَاطِ» (١).

ويأتي سواد بن قارب الى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويطلب منه الشفاعة في أبيات أنشدتهن ... ومنها:

فكن لي شفيعاً يوم لا ذوشفاعة

بمُغْنِي فتيلاً عن سواد بن قارب (٢)

وجاء في التاريخ: أن رجلاً اسمه «تُبَّع» كان قبل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بأكثر من ألف سنة، وكان قد بلغه أن نبي آخر الزمان سوف يظهر من مكة، فكتب كتاباً ودفعه الى بعض أقربائه، كي يُسَلِّمُوهُ الى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذكر فيه إسلامه وإيمانه وأنه من أمة رسول الله، وجاء فيه:

«فَإِنْ لَمْ أُدْرِكْكَ فَاشْفَعْ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا تُنْسِيَنِي».

ومات الرجل و كان الكتاب ينتقل من واحد لاخر حتى بُعث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فلما وصل الكتاب بيده قال - ثلاث مرات -:

«مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ» (٣).

(١) سنن الترمذي: ج ٤ ص ٤٢ باب ما جاء في شأن الصراط.

(٢) الدرر السنية لزيني دحلان: ص ٢٩.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب: ج ١ ص ١٦، بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٢٢٤.

فاذا كان طلب الشفاعة شركاً بالله، لما عبّر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن تبع بـ «الأخ الصالح» ولما قال ثلاثاً «مرحباً».

هذه بعض الأحاديث التي تُثبت جواز طلب الدعاء والشفاء من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في حياته الكريمة.

٤ - طلب الشفاعة بعد الموت

ويُستفاد من مجموعة من الروايات أن الصحابة كانوا يطلبون الشفاعة من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد وفاته، واليك بعض النماذج:

١ - قال ابن عباس: لما فرغ أمير المؤمنين -عليه السلام- من تغسيل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «بأبي أنت وأمي... طُيِّبَ حَيًّا وَطُيِّبَ مَيِّتًا... وَادُّكْرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ» (١).

٢ - ويروى أنه لما توفي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كشف أبو بكر عن وجهه وقبّله وقال:

«بأبي أنت وأمي، طُيِّبَ حَيًّا وَطُيِّبَ مَيِّتًا، ادُّكْرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ» (٢).

إن هاتين الروايتين -وأمثالهما- تدلّ على أنه لا فرق بين طلب الشفاعة من الشفيع في حياته وبعد وفاته، وقد كان الصحابة

(١) نهج البلاغة: رقم الخطبة ٢٣٠.

(٢) كشف الارتباب: ص ٦٥ نقلاً عن خلاصة الكلام.

يطلبون الدعاء من النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعد وفاته، فلو كان طلب الدعاء منه صحيحاً بعد وفاته فإنَّ طلب الشفاعة - الذي هو نوع من طلب الدعاء - سيكون صحيحاً أيضاً (١).

والخلاصة: بالاستناد الى ما سبق من الآيات والروايات وسيرة المسلمين - على مرَّ العصور والقرون - يُعتبر طلب الشفاعة أمراً بديهيّاً لا يترك أيَّ مجال للشكّ فيه أبداً.

(١) لقد أفردنا كتاباً حول الشفاعة وذكرنا فيه مائة حديث، أربعة وأربعين منها من كُتب أهل السنة والباقي منها من كُتب الشيعة، فراجع لمزيد الاطلاع.

أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة

لقد ذكرنا في الفصل السابق أدلة جواز طلب الشفاعة - من آيات وأحاديث - والآن جاء دور ذكر أدلة الوهابيين على حرمة ذلك ، ومناقشتها مناقشة موضوعية «لِيُحَقَّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» .
لقد استدك الوهابيون على حرمة طلب الشفاعة بأمر نذكرها فيما يلي :

١ - طلب الشفاعة شرك بالله

إن ما تعنيه الوهابية من الشرك هو الشرك في العبادة، حيث إنها تزعم أن طلب الشفاعة من الشفيع هو عبادته .
لقد تحدّثنا - في فصل سابق وبالتفصيل - عن العبادة ومعناها، وذكرنا بأن أيّ طلب من الانسان - حتى طلب الشفاعة - إنما يكون عبادة إذا كان مقرونًا بالاعتقاد بأنه: «إِلَهُ وَرَبٌّ» أو «مصدر لأفعال الله ومُدبّر مستقلّ لشؤون الكون وقائم بما يرجع اليه سبحانه» .

إن طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين - الذين أذن الله لهم

بالشفاعة- إنما يعتبرهم عبادةً لله، مقرّبين لديه، وُجّهاء وكرماء عليه، وليس هناك أيّ اعتقاد بالوهيبتهم ورُبوبيّتهم أو كونهم مصدرًا مستقلًّا لأفعال الله تعالى أو أن الشفاعة والمغفرة قد فوّضت اليهم تفويضاً مطلقاً لا يحتاج إلى إذن الله سبحانه.

كلاً، إن الشفعاء الصالحين إنما يشفعون في إطار «إذن الله سبحانه» لمن يستحقّ الشفاعة ويليق بها، بأن تكون علاقاتهم المعنوية متّصلة بالله، غير مقطوعة مع الشفعاء.

ومن الواضح أن طلب الشفاعة من الميّت لو كان معناه عبادته لكان الطلب من الشفيح الحي عبادة له أيضاً.

وقد ذكرنا- في فصل سابق- أن القرآن يدعو المسلمين إلى الحضور عند رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وطلب الاستغفار لهم من الله سبحانه، وليس هذا الطلب سوى طلب الشفاعة من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حياته، ولا يمكن أن يكون هذا العمل شركاً في زمان، واعتقاداً بوحداية الله في زمان آخر.

كما ذكرنا أيضاً- في فصل الاستعانة بأولياء الله- أن الاستشفاع بالوليّ الصالح إذا لم يكن باعتقاد الوهيّته وربوبيّته فلا يُعتبر شركاً أبداً، فمثلاً يقول تعالى:

«وَإِلَّاكَ نَسْتَعِينُ» (١).

فيحصر الاستعانة بذاته المقدّسة، ثم يقول أيضاً:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» (١).

فهل يقول قائل: إن الاستعانة بالصبر شركاً بالله؟!
طبعاً... لا، لأن الاستعانة المحرمة هي المقرونة بالايان
بربوبيّة غير الله سبحانه، وهذا ما لا يؤمن به أحد من المسلمين.

٢ - المشركون والتشفع بالأصنام

بعد إبطال الدليل الأول للوثابيّة على حرمة طلب الشفاعة
من الأولياء، يأتي دور إبطال الدليل الثاني وهو: إن الله تعالى إنما
اعتبر عبدة الأصنام مشركين، لأنهم كانوا يطلبون الشفاعة من
أصنامهم، وكانوا يبكون أمامها ويطلبون الوساطة منها، كما قال
تعالى:

«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» (٢).

وعلى هذا الأساس فإن مطلق طلب الشفاعة من غير الله يُعتبر
شركاً بالله وعبادة للشفيعة.

الجواب:

أولاً: ليست في هذه الآية آية دلالة على ما ترتبه الوثابيّة
أبداً، لأن القرآن عند ما يعتبر أولئك مشركين فليس لأجل طلبهم

(١) سورة البقرة: آية ٤٥.

(٢) سورة يونس: آية ١٨.

الشفاعة من الأصنام، بل بسبب عبادتهم لها، عبادة تؤدّي بهم الى الاستشفاع بها أيضاً.

ولو كان مُجرّد طلب الشفاعة من الأصنام عبادة لها و موجّباً للشرك، لما كانت هناك حاجة الى قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا» بل كان قوله سبحانه: «وَيَعْبُدُونَ» كافياً لنسبة الشرك اليهم، فإضافة الجملة الثانية على الأولى دليل على أنها شيان مُستقلان، وأن موضوع عبادة الأصنام يفترق عن موضوع طلب الشفاعة منهم.

إن عبادة الأصنام دليل على الشرك بالله تعالى، وأما الاستشفاع بالحجر والخشب فهو دليل على الجهل والحمق وعدم المعرفة.

بالإضافة الى أن الآية لا تدلّ على أن طلب الشفاعة من الأصنام هو عبادة لها، فكيف يمكن اعتبار الاستشفاع بأولياء الله دليلاً على عبادتهم!!؟

فالآية لا ترتبط بالبحث إطلاقاً.

ثانياً: لنفرض - جَدَلًا - أن علّة الشرك في أولئك هو استشفاعهم من الأصنام، ولكن بين استشفاع المشركين بالأصنام واستشفاع المسلمين بأولياء الله فرق كبير وبعُد واسع كما بين السماء والأرض، لأن المشركين كانوا يعتبرون الأصنام مالكة للشفاعة والمغفرة، وكأنّ الله تعالى في معزل عنها تماماً، والأصنام هي صاحبة الاختيار، فمن الواضح أن هذا الاستشفاع هو عبادة

للأصنام، لأنه مقرون مع الاعتقاد برؤوبيتها وألوهيتها ومصدريتها لأفعال الله وشؤون الكون.

هذا... في حين أن الانسان المسلم يطلب الشفاعة والدعاء من الشفيع باعتباره عبداً مقرباً الى الله، وعبداً وجيهاً مأذوناً من عند الله في الشفاعة.

بالله عليك أيها القارئ: ألا يكون القول بعدم الفرق بين هذين مخالفاً للعقل ومُنافياً للمنطق وبعيداً عن الإنصاف؟!
ألا تُدرك الفرق جيداً بينهما كما تدرك الفرق بين ظلام الليل ونور النهار؟!!

٣ - طلب الحاجة من غير الله حرام

بعد إبطال الدليل الثاني للوثابية على حرمة الاستشفاع من أولياء الله، يأتي الدليل الثالث وهو عدم جواز الدعاء وطلب الحاجة من غير الله تعالى، والاستشفاع من الأولياء نوع من طلب الحاجة، فهو حرامٌ بنص القرآن الكريم، قال تعالى:

«فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (١).

فالجمع بين القول بحرمة دعاء غير الله تعالى وبين ثبوت الشفاعة للأولياء هو الدعاء الى الله بأن يُشفع أوليائه في حق الانسان.

و الدليل على أن دعاء غير الله عبادة للمدعو، هو قوله تعالى:

«أدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (١).

فلو تأملنا في الآية لرأينا أنها بدأت بلفظ «الدعوة» وُختمت بلفظ «العبادة» وهذا دليل على أن مفهوم الكلمتين واحد، وقد روي عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -:

«الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ» (٢).

الجواب:

أولاً: ليس المقصود من تحريم دعوة غير الله - في قوله سبحانه: «فلا تدعوا» - الدعوة المطلقة، بل المقصود هو تحريم العبادة لغير الله، والدليل على هذا هو بداية الآية حيث قال تعالى:

«وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا...».

فالآية - بمجموعها - تدل على أن الدعوة المحرمة هي المقرونة بالعبادة والاعتقاد بالوهية ذلك المدعو وربوبيته وتصرفه في شؤون الخلق والكون (٣) وليس هذا الاعتقاد موجوداً لمن يتشفع به المسلمون من أولياء الله تعالى - كما هو واضح -.

ثانياً: إن ما تحرمه الآية وتنهى عنه أن ندعو مع الله أحداً،

(١) سورة غافر: آية ٦٠ .

(٢) سفينة البحار: مادة «الدعاء».

(٣) فقوله تعالى: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» معناه: فلا تعبدوا مع الله أحداً، كما يقول سبحانه في آية أخرى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» سورة الفرقان: آية ٦٨: أي لا يعبدون مع الله إلهاً آخر.

ونجعله مساوياً في الدعاء، كما تدلّ على هذا جملة «مع الله» فإذا طلب إنسان من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يبتهل الى الله بالدعاء والتوسل لقضاء حاجته وغفران ذنوبه، فليس معناه أنه دعا مع الله أحداً، بل إن هذا الدعاء -في الحقيقة- ليس إلا دعاء الله سبحانه.

و إذا كانت بعض الآيات تعتبر طلب الحاجة من الأصنام شركاً فإنما هو بسبب أنهم كانوا يعتبرون الأصنام آلهة صغاراً تملك الإختيار الكامل لأفعال الله تعالى، كلّها أو بعضها، ولهذا ترى القرآن الكريم ينتقد هذه الأفكار الباطلة فيقول:

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَضْرِكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» (١).

ويقول أيضاً:

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَفْئَالِكُمْ» (٢).

و خلاصة القول: إن المشركين كانوا يعتبرون أصنامهم آلهة صغاراً، وأن أفعال الله تعالى مفوضة اليها بشكل مطلق، لكن طلب الشفاعة والدعاء من إنسان متحه الله هذا الحق وهذه المنزلة فاقد لهذه الخصائص والشروط. فأين ذلك مع الاعتقاد بكرامة ولي صالح ووجهته عند الله والتشفع به الى الله سبحانه؟! قليلاً من الإنصاف والموضوعية!

(١) سورة الأعراف: آية ١٩٧.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٩٤.

«أفلا تعقلون»؟!)

ثالثاً: إن كلمة «الدعوة» لها معنى واسعاً، حتى أنها تُستعمل - أحياناً ومن باب المجاز- في العبادة أيضاً، كما استدلوا به في الآية (١) والحديث (٢) مع العلم أن هذه الاستعمالات الجزئية المجازية لا تكفي، دليلاً على أن تُفسر «الدعوة» بمعنى العبادة دائماً، وأن نعتبر طلب الحاجة والدعاء من أحدٍ شركاً.

٤ - الشفاعة حقٌ خاصٌّ بالله فقط

أيها القارئ الكريم: بعد إبطال الدليل الثالث للوهابية نذكر الدليل الرابع وهو قوله تعالى:

«أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ، قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَقُولُونَ، قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً» (٣).

ووجه الاستدلال بهذه الآية هو تصريحها باختصاص الشفاعة بالله سبحانه.

إذن: ماذا يعني طلب الشفاعة من غير الله؟

الجواب:

ليس معنى قوله تعالى: «لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً» ان الشفاعة خاصة

(١) وهي: «ادعوني أستجب لكم».

(٢) وهو: الدعاء مُخَّ العبادة.

(٣) سورة الزمر: آية ٤٣ - ٤٤.

بالله ولا يحقّ لغيره أن يشفع، لأنه لا شك أن الله لا يشفع لأحدٍ عند آخر، بل يعني أنه تعالى مالك أصل الشفاعة لا الأصنام، وذلك لأن الشفيع يجب أن يكون ذاعقلاً وشعوراً أولاً ومالكاً للشفاعة ثانياً، في حين أن الأصنام تفقد هذين الوصفين، ولهذا قال سبحانه:

«قُلْ: ١- أَوْلُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا.

٢- وَلَا يَغْفِلُونَ».

إذن: تركيز الآية إنما هو على أن الله تعالى هو مالك الشفاعة لا الأصنام، وأن الله يمنح هذه الصلاحية لمن تتوفّر فيه اللياقة والأهليّة ليستشفع لعباده، فلا علاقة لهذه الآية مع الموضوع الذي نتحدّث عنه، لأن المسلمين يعتبرون الله وحده «مالك الشفاعة» وليس أولياؤه، ويعتقدون أن من أذن الله له في الشفاعة قادرٌ على الاستشفاع دون غيره.

كما أن المسلمين يعتقدون -بالاستناد الى الآيات والأحاديث- بأن الله تعالى قد أذن للنبي وآله الأطهار -عليهم السلام- بالشفاعة، ولذلك فنحن نستشفع بهم.

وهكذا ظهر لك -أيها القارئ- عدم العلاقة بين تلك الآية وهذا البحث، وعدم العلاقة أيضاً بين الحديث الذي ذكره وهذا البحث.

٥- لغويّة الاستشفاع بالميت

إن آخر دليل ذكره الوهابيون -على حرمة الاستشفاع من

الأولياء- هو أن طلب الشفاعة من أولياء الله في هذه الحياة هو طلب الحاجة من الميت الفاقد للسمع، وقد استدّلوا على ذلك بآيتين:

١- «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا

مُذِيرِينَ» (١).

ووجه الاستدلال بها: أن القرآن الكريم شبّه المشركين بالأموات، وهي تُخاطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنك لا تستطيع أن تُفهم هؤلاء، لأنهم كالموتى لا يسمعون، فلو كان الموتى قادرين على التكلم والسمع لما صحَّ تشبيه المشركين بالموتى.

٢- «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ» (٢).

و الاستدلال بهذه الآية كالأستدلال بالآية السابقة، في عدم قدرة الموتى على السمع والتكلم، وعلى هذا فالاستشفاع منهم كالأستشفاع من الجمادات.

الجواب:

إن الشردمة الوهابية تلجأ دوماً الى مسألة الشرك في ردّ الفرق والمذاهب الاسلامية، وتتهم المسلمين بالكفر تحت ستار الدفاع عن وحدانية الله واختصاص العبادة به.

(١) سورة النحل: آية ٨٠.

(٢) سورة فاطر: آية ٢٢.

ولكنها - في هذا الاستدلال - غيّرت اسلوها وتشبّثت بالقول: إن الاستشفاع بالأولياء لغو ولا فائدة فيه، لكونهم موتى.
ولكن هذه الشذمة - الغريبة عن القرآن - تجاهلت وتغافلت عن الأدلة العقلية والشرعية التي تُثبت حياة الأولياء بعد الموت.
لقد أثبت فلاسفة الاسلام أن الروح - بعد ما تتجرّد عن هذا الجسم المادّي وتستغني عنه - تظلّ باقية الى ما لانهاية، وتمتع بحياة وإدراك خاص، وقد ذكر الفلاسفة الإلهيون عشرة أدلة عقلية على هذا الموضوع، ممّا لم يترك مجالاً للشك والتردد فيه، لأهل الإنصاف والوجدان.

وبالإضافة الى الأدلة العقلية... فهذا كتاب الله يُنادي - بأعلى صوته - بالحياة بعد الموت (١) وكذلك مئات الأحاديث الشريفة المروية في هذا المجال.

فما هذا الدليل العليل أيها الوهابيون؟!

وتسأل: فما معنى تلك الآيتين؟

الجواب: إن معناه أن الأجساد الراقدة تحت التراب غير قادرة على الفهم والإدراك، وهذا طبيعي، إذ أن الجسد عندما يتجرّد عن الروح يبقى جامداً لا فهم له ولا إدراك.

ولكن النقطة المهمة - هنا - هو أن الذين نُخاطبهم ونستشفع

(١) راجع آية ١٦٩ و ١٧٠ من سورة آل عمران، وآية ٤١ من سورة النساء، وآية ٤٥ من سورة الأحزاب، وآية ١٠٠ من سورة المؤمنون، وآية ٤٦ من سورة غافر، كلّها تدلّ على الحياة بعد الموت، وقد تحدّثنا عن هذا الموضوع في فصل سابق.

منهم - وكما يؤكد القرآن الكريم - ليس هو الجسد المدفون تحت التراب، وإنما هي الروح الطاهرة والحيّة التي تعيش في الجسد البرزخي في عالم البرزخ.

فلو لم تتمكّن الأجساد المدفونة في الأرض من الإدراك والفهم، فهذا لا يدلّ على أن أرواحها الطاهرة ونفوسها الطيبة - التي هي حيّة تُرزق في العالم الآخر - غير قادرة على الإدراك والفهم.

وأن السلام والتحيّة والزيارة هي لتلك الأرواح النورانية الخالدة، وطلب الشفاعة منها أيضاً.

و تسأل: فلماذا يقوم المسلمون بزيارة قبور أولياء الله؟

الجواب: للأمور التالية:

١ - ورود الأحاديث الشريفة المتواترة في استحباب زيارة مرآد الأولياء وفي طليعتهم رسول الله وأهل بيته المعصومون - عليهم الصلاة والسلام - وأن فيها مرضاة الله وحُسن ثوابه. وقد ذكرنا بعض تلك الأحاديث عند البحث عن زيارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

٢ - لأن زيارتها تُجسّد - في أذهاننا - وجودهم المبارك، وتُهيّئ أنفسنا للإتصال بأرواحهم المقدسة وأجوائهم الربّانية، ومن خلال السلام عليهم نشعر وكأننا نتحدّث اليهم وهم يستمعون لنا، كما جاء في إحدى الزيارات المنصوصة:

«أشْهَدُ أَنَّكَ تَشْهَدُ مَقَامِي وَتَسْمَعُ كَلَامِي وَأَنَّكَ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّكَ

تُرْزَقُ، فَاسْأَلْ رَبَّكَ وَرَبِّي قَضَاءَ حَوَائِجِي» (١).

وجاء أيضاً:

«اللَّهُمَّ... وَأَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَكَ وَخُلَفَاءَكَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَحْيَاءٌ

عِنْدَكَ يُرْزَقُونَ، يَرَوْنَ مَقَامِي وَيَسْمَعُونَ كَلَامِي وَيَرُدُّونَ سَلَامِي، وَ

أَنَّكَ حَجَبْتِ عَنِّي سَمْعِي كَلَامَهُمْ، وَفَتَحْتِ بَابَ فَهْمِي بِلَذِيذِ

مُنَاجَاتِهِمْ...».

٣ - لأن عشرات الأحاديث الشريفة تُصَرِّحُ بأن أجساد الأنبياء والأوصياء - وآخرين أيضاً - تبقى محفوظة في التراب - بإذن الله تعالى - من دون أن تتلاشى أو تفتنى، وفي هذا المجال قصص وقضايا كثيرة لا مجال لذكرها، ونكتفي بالإشارة إلى ما ذكره المؤرِّخون من أن المسلمين حفروا قنوات للماء في أرض «أُحُد» بالمدينة المنورة - بعد واقعة أُحُد بخمسين سنة - فانكشف التراب عن أجساد مُخَضَّبَة بالدماء، وهي سالمة كأنها دُفنت الساعة، لم تفسد حتى اكفانها، ووصل الخبر إلى المدينة فهرع من كان فيها من الصحابة وغيرهم - حتى النساء - فتعرَّفوا على تلك الأجساد بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأنها أجساد شهداء أُحُد، بقيت سالمة تتحدَّى الزمان والتراب، بإذن الله القدير سبحانه.

فاذا كان الأمر هكذا بالنسبة إلى هؤلاء، فما تقول في جسد

رسول الله والأئمة الهداة المعصومين من آل الطاهرين!!؟

لا شك أنها تبقى محفوظة من كل شائبة، وأن لها عند الله حرمة

(١) كتاب عُدة الداعي: لابن فهد الحلبي عن الامام الصادق - عليه السلام -.

عظيمة وقداسة كبيرة.

والبقعة التي تحتضن جسّد أحد أولياء الله، تكتسب الشرف والكرامة بذلك، فالحضور في تلك البقعة وعند ذلك المرقد الطاهر يفيض على الانسان الرحمة الإلهية والخير والبركة.

وهكذا ظهَرَ لك -أيها القارئ الكريم- أن الأدلة التي يستدل بها الوهابيون على حرمة الاستشفاع من أولياء الله أدلة واهية ضعيفة، وأن الحق هو ما يقوم به المسلمون، تبعاً للقرآن والأحاديث الشريفة.

الاعتقاد بالقدرة الغيبية لأولياء الله تعالى

هل الاعتقاد بالقدرة الغيبية لأولياء الله شركٌ بالله؟
مما لا شكَّ فيه أن الانسان لا يطلب حاجته من أحدٍ إلا إذا
تأكَّد من قدرة ذلك على قضاء حاجته وتلبية طلبه.

وهذه القدرة على قسمين:

١ - القدرة المادية الظاهرية، بأن تطلب الماء من إنسان،
فيملاً لك الإناء ماء ويُنالوك .

٢ - القدرة الغيبية المستقلة عن المادة، والخارجة عن المجاري
الطبيعية، كأن يعتقد الانسان - مثلاً - بأن الامام عليّ بن أبي
طالب - عليهما السلام - قادر على قلع باب خيبر - الذي يعجز
الانسان عن قلعه عادة - بقوة غيبية تتفوق على قدرة البشر.

أو يعتقد بأن النبي عيسى - عليه السلام - قادر بدعائه على
شفاء المريض الذي صعب علاجه، من دون استعمال دواء أو
إجراء عملية جراحية.

إذا عرفت هذا... فاعلم أن الاعتقاد بهذه القدرة الغيبية - إذا
كان مُستنداً الى قدرة الله وإذنه وإرادته - هو كالاعتقاد بالقدرة

المادية الطبيعية، وليس شركاً بالله سبحانه، لأن الله الذي وهب القدرة المادية لشخص قادر على أن يهب القدرة الغيبية لشخص آخر، دون الاعتقاد بكون المخلوق خالقاً أو مُستغنياً عن الله تعالى.

الرأي الوهابي

يعتقد الوهابيون بأنه لو طلب إنسان حاجة من أحد أولياء الله -حيّاً كان أم ميتاً- كأن يشفي مريضه أو يُعيد عليه مفقوده أو يقضي ديونه أو غير ذلك، فقد آمن بوجود قدرة غيبية عند مَنْ دعاه وسأله، بحيث يستطيع أن يخرق بها القوانين الطبيعية الحاكمة في هذا الكون، والاعتقاد بهذه القدرة لغير الله إعتقاد بالوهية ذلك الغير، وطلب الحاجة منه مع هذا الاعتقاد شركٌ بالله سبحانه.

مثال ذلك: لو طلب الانسان -العطشان في الصحراء- ماء من خادمه، فإن طلبه هذا ليس طلباً لخرق القوانين الطبيعية، فهو جائز وليس شركاً.

أما لو طلب نفس هذا الطلب من نبيٍّ أو إمام يرقد تحت التراب، أو يعيش في بلدة أخرى ومكان آخر، أو كان غائباً عن الأبصار، فقد أشرك بالله تعالى، لأنه يعتقد بأن ذلك النبي أو الامام يستطيع أن يُهتّىء الماء، خارج نطاق القوانين والأسباب الطبيعية، أي: بالقدرة الغيبية، وهذا اعتقاد بالوهية ذلك المدعو: النبي أو الإمام.

وقد صرّح بهذا الرأي الكاتب الوهابي «أبو الأعلى المودودي» حيث قال:

«إن التصوّر الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرّع إليه هو-لاجرم- تصوّر كونه مالِكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة» (١).

رأينا حول هذا الكلام

إن الخطأ الذي ارتكبه المودودي-ونظراؤه- هو أنه تصوّر بأن الاعتقاد بالسلطة الغيبية لغير الله شرك به سبحانه مطلقاً، ولم يُفرّق- أو لم يرد أن يُفرّق- بين الاعتقاد بالقدرة الغيبية المستمدة من الله والمعتمّدة عليه، وبين القدرة المستقلّة عنه سبحانه، حيث إن الشرك هو الاعتقاد الثاني لا الأول.

إن القرآن الكريم يذكر- بصراحة تامّة- أسماء أشخاص كانت لهم القدرة الغيبية، وكانت إرادتهم تتحكّم على قوانين الطبيعة وتُغيّر مجراها.

وإليك أسماء بعض من أشار إليهم القرآن:

١ - القدرة الغيبية للنبي يوسف

قال يوسف - عليه السلام - لإخوته:

«إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا».

«... فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِرَافٍ» (١).

إن ظاهر هذه الآية يدل على أن النبي يعقوب -عليه السلام- استعاد بصره الكامل بالقدرة الغيبية التي استخدمها يوسف -عليه السلام- من أجل ذلك، ومن الواضح أن استعادة يعقوب بصره لم يكن من الله بصورة مباشرة، بل تحققت بإذنه سبحانه، بواسطة النبي يوسف -عليه السلام-.

إن النبي يوسف كان السبب في عودة بصر أبيه كاملة، ولولا ذلك لما أمر إخوانه بأن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه، بل كان يكفي أن يدعو الله تعالى لذلك فقط. إن هذا تصرف غيبي صدر من أحد أولياء الله -يوسف- وغير المجري الطبيعي بإذنه سبحانه، ولا يقدر على هذا التصرف إلا من منحه الله السلطة الغيبية.

٢ - السلطة الغيبية للنبي موسى

لقد منح الله سبحانه القدرة الغيبية للنبي موسى -عليه السلام- فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد قبائل بني إسرائيل، كما قال سبحانه:

«فَلَمَّا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» (٢).

واستخدم موسى -عليه السلام- قدرته الغيبية مرة أخرى عندما

(١) سورة يوسف: آية ٩٣ و٩٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٦٠.

ضرب بعصاه البحر ليفتح - في عمق البحر وعلى أرضه - اثني عشر طريقاً يابساً لبني إسرائيل، كي يمرّوا فيه ويعبروا البحر، فتراكمت المياه كالجبال على أطراف هذه الطرق من دون أن تتدخّر قطرة منها في الطريق!

قال تعالى:

«فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ، فَكَانَ كُلُّ

فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ» (١).

في هذين الموقفين لا يمكن أن نتجاهل دور النبي موسى عليه السلام - في تفجير العيون وفتح الطرق على أرض البحر، وأنه استفاد من قدرته الغيبية، فتحقّق كل ذلك بإذن الله وإرادته سبحانه.

٣ - السلطة الغيبية للنبي سليمان

لقد كان النبي سليمان عليه السلام - يتمتع بقدرات غيبية متعدّدة، وقد عبّر عن تلك المواهب والمنح الإلهية العظيمة بقوله - كما في القرآن الكريم -:

«وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (٢).

وقد جاء تفصيل الحديث عن تلك المواهب والقدرات الإلهية الممنوحة له، في كلّ من سورة النمل من آية ١٦ الى ٤٤، وسورة سبأ

(١) سورة الشعراء: آية ٦٣.

(٢) سورة النمل: آية ١٦.

آية ١٢، وسورة الأنبياء آية ٨١، وسورة ص من آية ٣٦ الى ٤٠ .
 إن التأمل في هذه الآيات يكشف لنا عن جانب من المواهب
 العظيمة والقدرات الغيبية التي مَنَحها الله لعبده ونبيّه سليمان
 -عليه السلام- وقبل أن تفتح القرآن لتقرأ الآيات المشار إليها،
 نذكر لك الآن بعض تلك الآيات، كي تتجلى لك عظمة تلك
 السُّلطة الغيبية وترى بعينك أن القرآن الكريم يُثبت القدرة الغيبية
 لبعض عباد الله تعالى .

لقد كانت للنبيّ سليمان السُّلطة على الجنّ والطيور، وكان
 يعرف منطوق الطير ولغات الحشرات، يقول الله تعالى :

«وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَ
 أَوْسِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ، وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ
 جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ
 النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
 سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ
 رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ» الى
 آخر الآيات (١) .

أيها القارئ الكريم: ولو قرأت -في القرآن الحكيم- قصة
 «الهُدُود» الذي أرسله سليمان -عليه السلام- مبعوثاً الى ملكة
 سبأ، حاملاً رسالة منه إليها، لا ستولت عليك الدهشة والحيرة من
 القدرة الغيبية التي كانت له، لهذا نرجو منك التأمل في الآيات

٢٠ الى ٤٤ من سورة النمل، كي تتأكد أكثر من بطلان مذهب الوهابية وتناقضه مع القرآن.

هذا وقد كانت للنبي سليمان -بتصريح القرآن الكريم- السلطة على الريح، تجري بأمره حيث يشاء، قال تعالى:

«وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً، تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَ

كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ» (١).

إن ما يُلفت الانتباه - في هذه الآية - هو قوله سبحانه: «تَجْرِي بِأَمْرِهِ» حيث يدلّ على سلطة سليمان الغيبية على الريح، وتحكّمه في مسيرها ومجراها.

٤ - النبي عيسى والقدرة الغيبية

يمكننا أن نتعرّف على جانب من القدرة الغيبية التي كانت للنبي عيسى -عليه السلام- من خلال التأمل في الآيات القرآنية التي تتحدّث عنه وعنّها، ومنها قوله تعالى - عن لسان عيسى -:

«إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢).

لقد تکرّر قوله «بإذن الله» مرّتين في هذه الآية، تأكيداً على

(١) سورة الأنبياء: آية ٨١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٩.

أَنَّ التَّصَرُّفَاتِ الْغَيْبِيَّةَ الَّتِي يَقُومُ بِهَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ إِنَّمَا هِيَ بِالِاسْتِمْدَادِ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ، وَهَذَا تَرَى عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَعْتَبِرُ تَصَرُّفَاتِهِ كُلَّهَا رَهِينَةً بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَكَذَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ قَالَ تَعَالَى:

«وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (١).

وَلَكِنَّكَ تَرَى فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَيْسَى يُنْسَبُ كُلَّ أَعْمَالِهِ الْغَيْبِيَّةِ إِلَى نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ فَيَقُولُ: «أَخْلَقْتُ» «أَنْفَخْتُ» «أَبْرَيْتُ» «أَحْيَيْتُ» «أَنْبَتُّكُمْ» بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ.

هَذَا وَلَيْسَ النَّبِيُّ يُوسُفُ وَمُوسَى وَعَيْسَى وَسَلِيمَانُ هُمْ فَقَطْ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمُ الْقُدْرَاتُ الْغَيْبِيَّةُ، بَلْ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا وَلَا يَزَالُونَ يَمْلِكُونَ تِلْكَ الْقُدْرَةَ، وَهَذَا الْبَحْثُ يَتَطَلَّبُ كِتَاباً مُسْتَقِلاً، وَقَدْ تَحَدَّثْنَا حَوْلَهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي كِتَابِ «الْقُدْرَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ لِلْأَنْبِيَاءِ» وَقَدْ طُبِعَ عِدَّةُ مَرَاتٍ.

٥ - الْمَلَائِكَةُ وَالْقُدْرَةُ الْغَيْبِيَّةُ

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتِمَّتَعُونَ بِالسَّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ أَيْضاً، فَهَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَصِفُ جِبْرَائِيلَ بِقَوْلِهِ:

«شَدِيدُ الْقُوَى» (٢).

وَيَصِفُ بَعْضَ الْمَلَائِكَةِ بِقَوْلِهِ:

(١) سورة الرعد: آية ٣٨.

(٢) سورة النجم: آية ٥.

«وَالْمُدْرَاتِ أَمْراً» (١).

وغيرهما من الآيات التي تُصرِّح - أو تُشير - بأن الملائكة تتولَّى إدارة شؤون العالم، من قبض الأرواح وحراسة الناس والمحافظة عليهم وكتابة الأعمال «كراماً كاتبين» ومبيدات الأمم الطاغية، وغير ذلك من مسؤوليات هذا الكون.

إن كلَّ مَنْ له إمام بالقرآن الكريم - حتى لو كان قليلاً - يعلم بأنَّ للملائكة قدرات غيبية، وأنها تقوم بتصرفات إعجازية بإذن الله وقوته.

فلو كان الاعتقاد بالسلطة الغيبية يستلزم الاعتقاد بالألوهية، لكان كل واحدٍ من الأنبياء والملائكة إلهاً من دون الله سبحانه، وهذا واضح البطلان.

فما هو الحلّ؟

ما هو الحلّ والقول الفصل؟

الجواب: لقد ذكرنا أن الحلّ والقول الفصل هو في الفرق والتمييز بين القدرة المستقلّة والقدرة المكتسبة، فالاعتقاد بالقدرة المستقلّة - لغير الله - يستلزم الشرك به سبحانه، بينما الاعتقاد بالقدرة المكتسبة - في أيّ مجال - هو التوحيد بذاته.

إلى هنا تبيّن لك - أيها القارئ - أن الاعتقاد بالقدرة الغيبية لدى أولياء الله تعالى لن يُرافقه الشرك بل هو التوحيد بعينه،

بشرط أن تَعْتَبِرَ تلك القدرة مُسْتَدَةً الى القدرة الأزلية لله تعالى .
 كما تَبَيَّنَ لك بأنه ليس معنى التوحيد أن تُسْنِدَ الأفعال الطبيعية الى الانسان، وتُسْنِدَ الأفعال الغيبية الى الله تعالى، بل إن حقيقة التوحيد هي أن تُسْنِدَ كَلَّ الأفعال اليه تعالى، وتعتبر القوى والطاقات والقدرات نابعة منه وتابعة اليه جلَّ جلاله .
 و الآن... آن الأوان كي نتحدّث عن الركن الثاني - في هذا الفصل - وهو جواز طلب الأعمال الإعجازية الغيبية من أولياء الله تعالى .

ظَلَبُ الأَعْمَالِ الغَيْبِيَّةِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ

هل يجوز أن تطلب من أحد أولياء الله عملاً إعجازياً؟
 و هل يُعْتَبَرُ هذا الطلب شركاً؟

في البداية نقول: ممّا لا يختلف فيه اثنان هو أن «لكلّ معلولٍ علّةٌ ولكلّ مُسَبَّبٍ سَبَبٌ» فكلّ شيء لا يمكن أن يكون له وجود إلا بسبب، فالحياة حياة الأسباب والمسببات، وبالتالي: لا توجد في العالم ظاهرة دون أن يكون لها سبب .

كذلك معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء لا تحدث بدون سبب، بيّد أنّ السبب ليس سبباً مادياً طبيعياً، بل هو غيبيّ ماورائيّ فوق التصوّر .

فشلاً: اذا تحوّلت عصا موسى الى ثعبان، وأحيى عيسى الموتى، وانشقّ القمر لرسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم -

وسبّحتُ حَبّات الرمال في يده، وغير ذلك من معجزات الأنبياء... فإن كلّ هذه لم تحدث بلا سبب، ولكن السبب - كما قلنا - ليس مادياً ملموساً نراه بأعيننا، لا أنها حدثت بلا سبب أبداً.

بعد هذه الكلمة الخاطفة... نتحدّث الآن عن الموضوع المطروح على بساط التحقيق وهو: طلب الأعمال الاستثنائية والإعجازية من أولياء الله.

إن الوهابيّة - الضالّة المضلّة - تدّعي أنّ طلب الأعمال الخارقة للطبيعة شرك بالله سبحانه، ولكنّ طلب الأعمال المادية الطبيعية ليس كذلك، فما هو رأي الاسلام حول هذا الإدعاء؟

الجواب: هذا القرآن الكريم خير دستور نتحاكم اليه، ترى في مواضع متعدّدة منه التصريح بأنه قد طلب من الأنبياء - وغيرهم - القيام بأعمال إعجازية خارجة عن إطار القوانين الطبيعية المادية. فمثلاً: طلب قوم موسى - عليه السلام - منه أن يوفّر لهم الماء والمطر ويُنقذهم من الجفاف الذي كانوا يُعانون منه، وصدر الأمر من الله تعالى بتلبية طلبهم، قال سبحانه:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ - أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

الْحَجَرِ» (١).

فإن قال قائل: لا مانع من طلب المعجزة من الانسان الحي، والبحث إنما هو حول الطلب من الميت.

فالجواب: إن الحياة بعد الموت لا يُغيّران حقيقة التوحيد والشرك، بأن يكون الشيء توحيداً في حال الحياة وشركاً في حال الممات، أو بالعكس، بل تبقى الحقيقة ثابتة على كلّ حال. نعم... يمكن أن يكون للحياة والموت أثر في فائدة الطلب أو عدمها، أما حقيقة التوحيد والشرك فلا تؤثران فيها.

النبيّ سليمان يطلب عرش بلقيس

يُحدّثنا القرآن الكريم أن النبيّ سليمان - عليه السلام - طلب من الحاضرين عنده أن يُحضّر أحدهم عرش بلقيس، بقدره ماورائية غيبية وخارقة للطبيعة، فقال لهم - كما في القرآن الكريم -:

«أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟»

قَالَ عِفْرَتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ.

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» (١).

فاذا صحّ مذهب الوهابيين - في حرمة طلب الأعمال الخارقة من أحدٍ إلا الله - لكان طلب النبيّ سليمان من الحاضرين - إحضار عرش بلقيس بقوة ماورائية - كفراً وشركاً!!.

و كان طلب المعجزة ممّن يدّعي النبوة - في أيّ عصر ومصر -

(١) سورة النمل: آية ٣٨ الى ٤٠.

كفراً وشركاً، وقد كان الناس يُطالبون كلَّ من يدَّعي النبوة - صادقاً كان أم كاذباً- بالمعجزة الخارقة للطبيعة، دليلاً على صدق دعواه واتصاله بالعالم الأعلى، ولم يطلبوا ذلك من الله الذي بعثه، بل كانوا يقولون:

«إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (١).

وهذه عادة كلِّ الشعوب والأمم في العالم، حيث تريد التمييز بين النبي الصادق والمنتسب الكاذب، فتطلبه بالمعجزة الدالة على قدرته الغيبية، وكان الأنبياء - بدورهم - يدعون الناس لمشاهدة معجزاتهم الدالة على صدقهم.

وقد سجّل القرآن الكريم بعض ما دار بينهم وبين الأمم من حوار حول هذا الموضوع، دون أن ينتقدهم على طلبهم المعجزة من الأنبياء، ممّا يدلُّ على موافقته لهذا الطلب.

ولنذكر مثلاً: لو أنَّ أُمَّةً -تبحث عن الحق- جاءت إلى النبي عيسى -عليه السلام- وقالت به «إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ فَأُبْرِئْ هَذَا الْأَعْمَى وَرُدِّ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، وَاشْفِ هَذَا الْأَبْرَصَ» فإن هذه الأمة لا تُعتبر مُشركة، بل تُعدُّ من الأمم الراقية التي تبحث عن الحقيقة، وتُمدح على ذلك.

و الآن، لو فرضنا وفاة النبي عيسى -عليه السلام- (٢)

(١) سورة الأعراف: آية ١٠٦.

(٢) بالرغم من أنه حيٌّ يُرزق كما قال تعالى: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ... بل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ...» وتقول الأحاديث الصحيحة إن النبي عيسى سوف يعود إلى الأرض يوم ظهور الإمام المهدي المنتظر -عجل الله ظهوره- ليكون ردهً له وظهيراً.

وطلبت أمته من روحه الطاهرة أن يُبريء الأكمه والأبرص، فلماذا تُعتبر مشركة، مع العلم أن موت النبي وحياته لا يؤثران في التوحيد والشرك؟! (١).

خلاصة القول

و خلاصة القول: إن القرآن الكريم يُصرِّح بأسماء بعض الأولياء الذين اصطفاهم الله و وهبهم القدرة الغيبية لتنفيذ الأعمال الماورائية الخارقة للطبيعة، وكان هؤلاء يستخدمون هذه القدرة في الأوقات المناسبة، كما كان هناك أشخاص يأتون إليهم ويطلبون منهم الاستفادة من هذه القدرة.

وهكذا ظهر لك -أيها القارئ الكريم- إن آيات القرآن الكريم صريحة في ردّ مذهب الوهابية وإبطال آرائها الشاذة. فلو قال الوهابيون: إن طلب المعجزة من أولياء الله شرك .

قلنا: لماذا طلب سليمان - وغيره - ذلك؟!!

فإن قالوا: إن طلب الحاجة من أولياء الله - بطريقة إعجازية - يستلزم الاعتقاد بسلطتهم الغيبية.

قلنا: إن الاعتقاد بالسلطة الغيبية على نوعين: أحدهما: توحيد بعينه، والثاني: يستلزم الشرك .

فإن قالوا: إن طلب الكرامات من أولياء الله في حياتهم جائز،

(١) للاطلاع على بعض معجزات النبي عيسى راجع آية ٤٩ من سورة آل عمران وآية

ولكن طلبها من الموتى غير جائز.

قلنا: إن الموت والحياة ليسا ملاكاً للتوحيد والشرك ، ولا يُغيّران حقيقة أحدهما.

فإن قالوا: إن طلب الشفاء للمريض وتسديد الدّين -بطريقة غير عادية- هو طلب فعل الله من غير الله.

قلنا: إنّ شرط الشرك هو أن تعتقد ألوهية مَنْ تدعوه أو بكونه مصدرّاً لأفعال الله بالاستقلال، وأن طلب فعلٍ غير عادي ليس معناه طلب فعلٍ إلهي من غير الله، لأن مقياس أفعال الله ليس هو خروجه عن إطار القوانين الطبيعية، حتى يكون هذا الطلب طلب فعل الله من عبده، كلاً... بل إن مقياس أفعال الله هو أن يكون فاعله مستقلاً في إنجازه.

أمّا لو كان فاعله يُنجز ذلك الفعل بالاعتماد على قدرة الله تعالى فإن الطلب منه ليس طلب فعل الله من غير الله.

ولا فرق بين أن يكون الفعل عادياً أو غيبياً.

و نفس هذا القول يأتي بالنسبة الى الاستشفاء من أولياء الله، فإن البعض يُنكرون ذلك ويقولون: إن طلب الشفاء خاصّ بالله سبحانه بدليل قوله تعالى:

«وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» (١).

فكيف يصحّ أن يقال: يا رسول الله اشفني؟! وهكذا الأمر

بالنسبة الى كلّ عمل خارق للعادة.

والجواب: إن الذين يعتقدون هذا الاعتقاد لم يميزوا - ومع الأسف - بين الأفعال الإلهية والأفعال البشرية، ولهذا يتصورون بأن أي فعل يخرج عن مجراه المادي الطبيعي فهو من أفعال الله، وأي فعل يأخذ مجراه المادي الطبيعي فهو من أفعال البشر. إن هؤلاء لم يفهموا - أو تجاهلوا - المقياس المائز لأفعال الله عن غيرها، ولو كان كل فعل يخرج عن مجراه الطبيعي يعتبر من أفعال الله لكانت أفعال المرتاضين - في الهند - أفعالاً إلهية، وكانوا جميعاً «آلهة».

وقد ذكرنا أكثر من مرة أن المقياس - في الأفعال الإلهية - هو الاستقلال في الفعل، وعدم الاعتماد على أية قدرة أخرى، والفعل البشري هو عكس ذلك.

إن الإنسان يعتمد على الله ويستعين بقدرته في كل عمل - سواء كان مادياً أو خارجاً عن حدود المادة - والكثيرون يحصلون على قدرات اكتسابية ويستغلونها للوصول إلى أهدافهم المنشودة، فهل أن طلب الفعل من هؤلاء شرك بالله؟!!

إن نقطة الانحراف عن التوحيد تكمن في الاعتقاد المقرون بالطلب، فإذا كان طالب الحاجة - من أحد أولياء الله - يعتقد باستقلال ذلك الولي فقد اعتبره مستغنياً بالذات، ومعنى ذلك أنه اعتبره مستغنياً عن الله، وهذا هو الشرك، لأنه لا مستغني بالذات سوى الله الواحد الأحد سبحانه.

وقد كان كثير من المشركين - في العهد الجاهلي وعند طلوع

الاسلام- يعتقدون هذا الاعتقاد بالنسبة الى الملائكة والنجوم وأن الله خلقها وفوض اليها إدارة الكون وتدييره، تفويضاً مستقلاً تماماً (١) أو- على الأقل- أنها تملك الشفاعة والمغفرة، وتصرّف كما تشاء حيث تشاء.

المعتزلة والشرك

أما فرقة المعتزلة (٢) فهي تعتبر الانسان- من حيث الوجود- مخلوقاً لله تعالى، ولكنها- في الوقت نفسه- تعتبره مُستقلاً من حيث التأثير في الأشياء وإنجاز الأفعال، ولو أن المعتزلة تأملوا قليلاً في قولهم هذا، لأدركوا بأن في هذه العقيدة نوعاً من الشرك الخفي، ولكنهم في غفلةٍ منه.

طبعاً هذا الشرك الخفي لا يصل الى درجة شرك المشركين، والفرق بين الشركين هو أن المشركين يدعون استقلال أصنامهم في إدارة شؤون الكون وأفعال الله تعالى، وهؤلاء يدعون استقلال الانسان في أعماله.

(١) ولذلك عند ما سأل عمرو بن لحي من أهل الشام عن علّة عبادتهم للأصنام؟ قالوا- في جوابه:- إننا نطلب المطر من هذه الأصنام فتسقيننا، ونستعين بها فتعيننا، وبهذا الاعتقاد اصطحب عمرو معه «هبل» وجاء به الى مكة. راجع سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٧٧.

(٢) كما أن مذاهب السُّنة تنقسم- في فروع الأحكام- الى المذاهب الأربعة كذلك تنقسم في الأصول والمعارف الى قسمين: الأشاعرة والمعتزلة.

الفصل السابع عشر

الحلف على الله بحقّ الأولياء

إن من نقاط الخلاف بين الوهابيين والمسلمين هي أنها تدّعي حرمة:

١ - الحلف على الله بحقّ الأولياء.

٢ - الحلف بغير الله.

وتعتبر - أحياناً - هذين القسمين شركاً بالله في العبادة.

وفما يلي نضع هذا الموضوع على طاولة البحث والتشريح لاستخراج الحكم الشرعي الصحيح:

الحلف على الله بحقّ الأولياء

إن القرآن الكريم يصف بعض عبادة الله بقوله:

«الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ

بِالْأَسْحَارِ» (١).

فلو أن إنساناً قام في جوف الليل وصلّى لربّه ركعات، ثم

(١) سورة آل عمران: آية ١٧.

تضرع الى الله قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَشْحَارِ إِغْفِرْ لِي ذَنْبِي».

فكيف يمكن أن نعتبر قوله هذا شركاً في العبادة؟! إن الشرك في العبادة معناه عبادة غير الله، أو اعتبار غيره سبحانه إلهاً ومصدراً للأفعال الإلهية.

أما في هذا المجال فإن المصلي يتوجه الى الله تعالى ولا يطلب شيئاً إلا منه سبحانه، فاذا كان هذا العمل حراماً فلا بد أن يكون له سبب آخر غير الشرك .

نحن هنا نجلب انتباه الوهابيين الى أن القرآن الكريم قد ذكر مقياساً ومَحَكاً للفصل والتمييز بين المشرك - في العبادة - وبين الموحد، وهذا المقياس سدّ القرآن الطريق أمام كل تفسير بالرأي لمعنى المشرك ، وهذا المقياس هو قوله تعالى :

«وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَ

إِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» (١) .

و في آية أخرى يصف القرآن المجرمين - هم المشركون - بقوله :

«إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا

أَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ» (٢) .

إذن: إن المشرك - وفقاً لهاتين الآيتين - هو ذلك الذي يشمئز قلبه اذا ذكر الله الواحد الأحد، ويفرح اذا ذكرت الآلهة

(١) سورة الزمر: آية ٤٥ .

(٢) سورة الصافات: آية ٣٥ و ٣٦ .

الباطلة، أو يستكبر عن الاعتراف بوحداية الله سبحانه .
 بعد هذا المقياس القرآني نتساءل: هل الذي يقوم في ظلام
 الليل ويقضي ساعات في العبادة والمناجاة والدعاء، ويصلي بين
 يدي الله بكل إخلاص وخضوع، ويُقسم على الله بمنزلة أوليائه
 الصالحين ويسأله بعباده المتقين... هل أن هذا الانسان يكون
 مشركاً بعمله هذا؟!!

و كيف تمرّد على ذكر الله واستكبر عن الاعتراف بوحدايته
 سبحانه؟!!

لماذا ترى المؤلفين الوهابيين يستندون الى أسس خيالية وأدلة
 أوهن من بيت العنكبوت ويتهمون المسلمين بالشرك ويعتبرون
 أنفسهم فقط «شعبُ الله المختار»؟!!

و كيف يجوز أن يعتبروا تسعة وتسعين بالمائة من أهل القبلة
 مشركين، ويعتبروا «النجديين» هم الموحدين فقط، مع ماسبق
 من المقياس القرآني؟!!

و هل حوّل القرآن تفسير «الشرك» الى الوهابيين حتى
 يُفسّروه كيفما يشاؤون ويعتبروا جماعة مشركين وأخرى
 موحّدين؟!!

بل «ظنّ الله على قلوبهم فهم لا يفقهون».

أمير المؤمنين والحلف على الله بحقّ الأولياء
 إننا نلاحظ القسم على الله في أدعية أوليائه المقربين، فمثلاً:

هذا إمام المتقين أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - تراه يقول في دعائه بعد صلاة الليل:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ مَنْ عَادَيْكَ مِنْكَ، وَجَأِ إِلَى عِزِّكَ، وَ

اسْتَظَلَّ بِفَيْئِكَ، وَأَعْتَصَمَ بِحَبْلِكَ وَلَمْ يَتَّقْ إِلَّا بِكَ...» (١).

ويقول - عليه السلام - في دعاء علمه لأحد أصحابه:

«... وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَالرَّاعِبِينَ إِلَيْكَ وَالْمُتَعَوِّذِينَ بِكَ،

وَالْمُتَضَرِّعِينَ إِلَيْكَ، وَبِحَقِّ كُلِّ عَبْدٍ مُتَعَبِّدٍ لَكَ فِي كُلِّ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ أَوْ

سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ أَدْعُوكَ دُعَاءَ مَنْ اسْتَدَّتْ فَاقَتُهُ...» (٢).

فهل لهذه المناجاة المنشطة للروح والباعثة على العبادة، وهذا التذلل أمام الله... هل لذلك كله نتيجة أخرى سوى ترسيخ وُحدانية الله وأنه لا معاذ إلا به، وإظهار المحبة والمودة لأولياء الله وأحبابه - الذي هو توجُّه إلى الله في الوقت ذاته -؟!.

من هذا المنطق... يجب الكف عن توجيه تهمة الكفر والشرك - الرائجة في سوق الوهابية أكثر من أي شيء - وينبغي دراسة الموضوع من زاوية المنطق والبرهان.

لذلك ترى بعض الوهابيين - المعتدلين نوعاً ما - عاجلوا مسألة «القَسَمِ على الله بحق الأولياء» في إطار الحرمة أو الكراهة، بعكس «الصنعاني» - الوهابي المتطرّف - الذي بحث عن هذه المسألة في نطاق الشرك .

(١) الصحيفة العلوية: ص ٣٧٠.

(٢) الصحيفة العلوية: ص ٥١.

و الآن... وبعد ما تبين محور الحديث، يجب دراسة الموضوع في إطار الحرام والمكروه وبيان الدليل الواضح حول صحة هذا الموضوع وجوازه فنقول:

حقيقة هذا القَسَم في الاسلام وواقعيته

لقد ورد «القَسَم على الله بحق الأولياء» في أحاديث شريفة متواترة، بعضها مروية عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وبعضها عن أئمة أهل البيت المعصومين -عليهم السلام- وبناءً على هذه الأحاديث لا يمكن القول بحرمته ولا بكراهته.

وإليك نماذج من ذلك:

١ - لقد سبقت الإشارة الى أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- علم ذلك الأعمى الذي جاء يطلب منه أن يرد الله عليه بصره، علمه أن يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ» (١).

٢ - وروى أبو سعيد الخدري عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ

هَذَا...» (٢).

(١) سنن ابن ماجة: ج ١ ص ٤٤١، مستدرک الصحيحين: ج ١ ص ٣١٣، مسند أحمد: ج ٤ ص ١٣٨ وغيرها.

(٢) سنن ابن ماجة: ج ١ ص ٢٦١، مسند أحمد: ج ٣ حديث ٢١.

٣- وقد تاب النبي آدم -عليه السلام- الى الله بقوله:

«أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلَّا غَفَرْتَ لِي» (١).

٤- وبعد ما دَفَن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- السيدة

فاطمة بنت أسد والدة الامام أميرالمؤمنين -عليه السلام- دعا لها

بقوله:

«إِغْفِرْ لَأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ، وَوَسِّعْ عَلَيْهَا مَدْخَلَهَا، بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَ

الأنبياء الذين من قبلي» (٢).

إن هذه الأدعية -وإن خَلَّتْ من لفظ القَسَم بعينه- إلا أن

مضمونها هو ذلك، لوجود «باء» القَسَم فيها جميعاً، فعند ما يقول:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ «أي: أُقَسِّم عليك بحقهم».

٥- يقول سيد الشهداء الامام الحسين بن علي -عليهما السلام-

في دعاء له:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكَلِمَاتِكَ وَمَعَاقِدِ عِزِّكَ وَسُكَّانِ سَمَاوَاتِكَ وَ

أَرْضِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، أَنْ تَسْتَجِيبَ لِي فَقَدْ رَهَقَنِي مِنْ أَمْرِي

عُسْرٌ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَجْعَلَ مِنْ

أَمْرِي يُسْرًا».

و اذا أَلْقَيْتَ نَظْرَةَ عَلَي الصَّحِيحَةَ السَّجَّادِيَةَ المَرْوِيَّةَ عَن رَابِعِ

(١) تفسير الدر المنثور: ج ١ ص ٥٩، مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٦١٥، روح المعاني: ج ١

ص ٢١٧. وقد مرّت بعض هذه الأحاديث في فصل التوسّل بأولياء الله.

(٢) الفصول المهمة: ص ٣١ لابن الصبّاغ المالكي -المتوفى سنة ٨٥٥هـ-.

أئمة أهل البيت: الامام زين العابدين - عليه السلام - لرأيت القَسَم فيه كثيراً جداً، فهو خير دليل على صحة هذا النوع من التوسُّل... وإليك نموذجاً منه:

٦ - يقول - عليه السلام - في دعائه يوم عرفة، وهو يُناجي ربّه الكريم:

«بِحَقِّ مَنْ أَنْتَخَبْتِ مِنْ خَلْقِكَ، وَبَيْنِ اضْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ، بِحَقِّ مَنْ اخْتَرْتِ مِنْ بَرِيَّتِكَ، وَمَنْ اجْتَبَيْتِ لِشَانِكَ، بِحَقِّ مَنْ وَصَلْتَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِكَ، وَمَنْ يَنْظَتَ (١) مُعَادَاةً بِمُعَادَاتِكَ» (٢).

٧ - و عندما زار الامام الصادق - عليه السلام - مرقد جدّه الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - دعا في ختام الزيارة بقوله:

«اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ دُعَائِي وَاقْبَلْ ثَنَائِي وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَوْلِيَائِي، بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ» (٣).

أيها القارئ الكريم: لقد ورد هذا النوع من الأدعية - المتضمنة للقسَم على الله بحقّ أوليائه - كثيراً جداً عن الأئمة المعصومين من أهل البيت - عليهم السلام - ولا يسع المجال لذكر أكثر ممّا سبق... وكلّ هذه الأدعية تدلّ على جواز القَسَم على الله بحقّ أوليائه الصالحين.

(١) ينظت - من أناط ينيطه : الوضل والرئط.

(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

(٣) زيارة أمين الله المعروفة.

أدلة الوهابيين على الحرمة

لقد ذكر الوهابيون بعض الأدلة على حرمة القسم على الله بحق أوليائه، وهي أدلة واهية ضعيفة، لا تصلح للحجّة والاعتبار، والآن نذكرها مع الردّ والاجابة عليها فيما يلي:

الدليل الأول:

قالوا: إتفق علماء السلام على أن القسم على الله بالمخلوق -أو بحق المخلوق- حرام (١).

الجواب:

إن معنى الاجماع هو اتفاق علماء الاسلام -في عصرٍ واحد، أو في كلّ العصور- على حكمٍ من الأحكام الشرعية. هذا هو الإجماع، وهو حجة شرعية عند السُنّة، نظراً لا اتفاق العلماء على ذلك الحكم، وحجة شرعية عند الشيعة لكونه يكشف عن موافقته لرأي الإمام المعصوم الذي يعيش بين الناس -غائباً كان عن أعينهم أم حاضراً-.
و الآن لنرى: هل قام إجماع العلماء على الحرمة في هذه المسألة أم لا؟

نحن نصرف النظر -الآن- عن رأي علماء الشيعة وعلماء السُنّة

(١) كشف الارتباب: ص ٣٢ نقلاً عن «الهدية السنية».

في هذه المسألة، ونكتفي بذكر فتاوى أئمة المذاهب الأربعة،
ونتساءل: هل أفتى أئمة المذاهب الأربعة بالحرمة في هذه المسألة؟
وإذا كانوا قد أفتوا بالحرمة، فارجو أن تذكروا لنا نصَّ
الفتوى مع اسم الكتاب الذي جاء فيه ورقم الصفحة التي تشتمل
عليه.

إن كتب الفقه والحديث عند علماء السُّنَّة لم تتعرَّض إطلاقاً
لهذه المسألة، حتى نعرف نظرهم الشخصية فيها.
إذن: أين ذلك الإجماع والاتفاق الذي يدَّعيه مؤلف كتاب
«الهدية السنيَّة»؟!!

إن الشخص الوحيد الذي نقل المؤلف التحريم عنه هو شخص
مجهول الشخصية عديم الصيت، اسمه «العزّبن عبدالسلام»،
فهل انصهرت المؤلفات كلّها في كتاب الهدية السنيَّة وانصهر
علماء الاسلام كلّهم في «العزّبن عبدالسلام»؟!!
والجدير بالذكر أن المؤلف يروي في الكتاب نفسه أن أبا
حنيفة وتلميذه أبا يوسف قد أفتيا بكراهة القَسَم بحقّ المخلوق، لا
بجرمته.

ثم ما قيمة فتوى إنسان في مقابل الأحاديث الصحيحة المروية
عن رسول الله وآله الأئمة الأطهار -الذين اتفق علماء السُّنَّة على
أنهم الثقل الأصغر بعد القرآن وأن أقوالهم حجّة شرعية-؟! (١).

(١) حديث الثقلين متواتر عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ذكره أصحاب
الصحيح والسُّنن والمحدثون والمؤرخون، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند، والحديث هو: قال

بالإضافة الى أن ما ذكره عن أبي حنيفة غير ثابت.
و خلاصة القول: ليس هناك دليل باسم الإجماع في المسألة
إطلاقاً.

الدليل الثاني:

بعد إبطال الدليل الأول للوهابية وبيان عدم صحته نذكر
الدليل الثاني وهو قول أحدهم:

«إن المسألة بحق المخلوقين لا تجوز، لأنه لا حق للمخلوق على
الخالق» (١).

الجواب:

إن هذا الاستدلال ليس إلا اجتهاداً في مقابل النصّ
الصريح، إذ لو لم يكن للمخلوق حق في ذمّة الخالق سبحانه، فلماذا
أقسم النبي آدم - عليه السلام - والنبي محمّد - صلى الله
عليه وآله وسلم - على الله بهذه الحقوق، وسألاً من الله الحاجة
بسببها - كما ورد في الأحاديث السابقة -؟!

وبالإضافة الى ذلك ... ماذا يقول هؤلاء بشأن الآيات
القرآنية التي تُثبت لعباد الله الصالحين حقوقاً في ذمته سبحانه،

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل
بني ما إن تمسكتم بها لن تضلوا بعدي أبداً، وانها لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض،
فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

وكذلك الأحاديث الشريفة؟!
إقرأ هذه الآيات:

«وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

«وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» (٢).

«كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» (٣).

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ» (٤).

وبالإضافة الى ما سبق من الآيات الكريمة... هناك مجموعة
كبرى من الأحاديث الشريفة في هذا المجال، وإليك نماذج منها:

١ - «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنٌ مَنْ نَكَحَ التَّمَّاسَ الْعِصْفَافَ مِمَّا حَرَّمَ
اللَّهُ» (٥).

٢ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ -: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى
اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَ
النَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ التَّعَقُّفَ» (٦).

٣ - «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ...» (٧).

نعم... من الواضح أنه ليس لأحدٍ بذاته حقٌّ على الله تعالى،

(١) سورة الروم: آية ٤٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١١.

(٣) سورة يونس: آية ١٠٣.

(٤) سورة النساء: آية ١٧.

(٥) الجامع الصغير للسيوطي: ج ٢ ص ٣٣.

(٦) سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٨٤١.

(٧) النهاية لابن الأثير: مادة «حق».

حتى لو عبد الله قرناً طويلاً، خاشعاً خاضعاً لله، لأن كل ما للعبد فهو من عند الله تعالى، فلم يبذل العبد شيئاً من نفسه في سبيل الله كي يستحق بذاته الثواب.

ونسأل: فما معنى «الحق»؟

الجواب: إن المقصود من الحق - في هذه العبارات - هو الجزاء والمنزلة التي يمنحها الله لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم له سبحانه، فهو مزيدٌ من التفضل والعناية منه تعالى، ويدل على ألطافه وعظمته.

فهذا «الحق» الذي يُقسم به على الله - حقٌ جعله الله، لا أن العبد له حقٌ على الله، وقد أُشير إلى هذا المعنى بالذات في بعض الأحاديث الشريفة.

وهذا مثل القرض الذي يستقرضه الله من عباده في قوله سبحانه:

«مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» (١).

إن هذه التعهدات الإلهية - ومَنح الحق لعباده - نابعة من أطفاف الله وعناية الفائقة بعباده الصالحين حيث يعتبر ذاته المقدسة مديونة لعباده، ويعتبر عباده أصحاب الحق، وفي هذا الأمر من الترغيب والتشجيع إلى طاعة الله ما لا يخفى.

الحِلف بغير الله تعالى

إن الحلف والقَسَم بغير الله هو من المسائل الحساسة عند الوهابيين، والتي يُهرِّجون ضدها في أبواقهم وأقلامهم المنحرفة. فهذا «الصنعاني» - من مؤلّفي الوهابية - يعتبر الحلف بغير الله شركاً!! (١).

كما يعتبره مؤلف «الهدية السنّية» شركاً صغيراً (٢). نحن الآن نقوم - بحول الله وقوّته - بدراسة المسألة - دراسة موضوعية بعيدة عن التعصّب - متّخذين من كتاب الله وسُنّة رسوله والأئمة المعصومين - عليهم السّلام - مصباحاً منيراً يُضيء لنا الدرب في هذا المجال - وكلّ مجال - .

الأدلة على جواز الحلف بغير الله
الدليل الأول:

إن القرآن الكريم هو الثقل الأكبر والقائد الأعلى والمثل الحي

(١) تطهير الاعتقاد للصنعاني: ص ١٤ .

(٢) الهدية السنّية: ص ٢٥ .

لكلّ مسلم، وترى فيه الحلف بغير الله في عشرات المواضع منه، بحيث يؤدي ذكرها بالتفصيل الى إطالة البحث.

فمثلاً: أقسم الله تعالى - في سورة الشمس وحدها - بثمانية أشياء من مخلوقاته وهي: الشمس، ضُحى الشمس، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، النفس الانسانية (١).

كما أقسم سبحانه - في سورة النازعات - بثلاثة أشياء (٢) وأقسم بشيئين في سورة المرسلات (٣) وكذلك ورد الحلف بغير الله في سورة «الطارق» و «القلم» و «العصر» و «البلد».

وإليك نماذج من آيات الحلف بغيره سبحانه، من سور أخرى:

«وَالْتينِ وَالزَّئنونِ، وَطورِ سِنينِ، وَهَذَا الْبلدِ الْأَمينِ» (٤).

«وَاللَّيلِ إِذَا تَغشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى» (٥).

«وَالفَجْرِ وَليالِ عَشيرِ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتيرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسرِ» (٦).

«وَالطُّورِ وَكِتابِ مَسْطورِ، في رَقِّ مَنشورِ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمورِ، وَالسَّقْفِ

المَرْفوعِ، وَالْبَحْرِ الْجَسْجورِ» (٧).

(١) سورة الشمس: آية ١ الى ٧.

(٢) سورة النازعات: آية ١ الى ٣.

(٣) سورة المرسلات: آية ١ الى ٣.

(٤) سورة التين: آية ١ الى ٣.

(٥) سورة الليل: آية ١ و ٢.

(٦) سورة الفجر: آية ١ الى ٤.

(٧) سورة الطور: آية ١ الى ٦.

«لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (١).

فكيف يجوز الحكم بأن الحلف بغير الله شرك وحرام، مع هذه الآيات القرآنية الزاخرة بذلك؟!

فإن قال قائل: إن هذا القَسَم خاصٌّ بالله سبحانه.

فالجواب: كلاً... إن القرآن كتابٌ هدايةٌ للبشر، والناس يتخذونه قدوةً وأسوةً، فلو كان هذا النوع من الحلف حراماً على عباد الله، لكان المفروض أن يُحذَر منه القرآن ويذكر بأن هذا القَسَم هو من خصائص الله تعالى، عدم ذكر ذلك دليلٌ على عدم اختصاصه به سبحانه.

وقد قال بعض من لا ذوق له - ممن يجهل أهداف القرآن - بأنه يمكن أن يكون ما يصدر من الله جميلاً، وصدور نفس ذلك الشيء من غيره قبيحاً.

والجواب على هذا واضح، لأن الحلف بغير الله لو كان شركاً وتشبيهاً لغير الله بالله، فلماذا صدر هذا الشرك - الصغير أو المطلق - من الله تعالى؟!

أيصح أن يجعل الله لنفسه شريكاً، ويمنع غيره من ارتكاب مثل هذا الشرك؟!

الدليل الثاني:

لقد حلف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بغير الله في موارد

عديدة منها:

١ - روى مسلم في صحيحه:

«جاء رجلٌ إلى النبيِّ فقال: يا رسولَ الله أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟»

فقال: أما -وأبيك- لَتُبَيِّنَنَّ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ سَحِيحٌ، تَخْشَى

الْفَقْرَ وَتَأْمَلُ الْبُقَاءَ» (١).

٢ - وروى مسلم أيضاً:

«جاء رجلٌ إلى رسولِ الله - مِنْ نَجْدٍ - يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ

الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّم -: خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ.

فقال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟

قال: لا... إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ.

فقال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟

قال: لا... إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ الزَّكَاةَ.

فقال الرَّجُلُ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟

قال: لا... إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ.

فَأَذْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَالله لا أزيدُ على هذا ولا أنقصُ منه.

فقال رسولُ الله: أفلح - وأبيه - (٢) إن صدق.

- أو قال -: دَخَلَ الْجَنَّةَ - وأبيه - إن صدق (٣).

٣ - وجاء هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل، وفي نهايته أن

(١) صحيح مسلم: ج ٣ كتاب الزكاة باب أفضل الصدقة ص ٩٤.

(٢) أي: قَسَمًا بأبيه. فالواو واو القسم.

(٣) صحيح مسلم: ج ١ باب ما هو الاسلام ص ٣٢.

النبي قال له:

«... فَلَعَمْرِي لَأَنْ نَكَلِّمَ (١) بِمَعْرُوفٍ وَتَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ

تَسْكُتَ» (٢).

وهناك أحاديث أخرى، لا يسع هذا الكتاب ذكرها (٣).
وقد أقسم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليهما السلام- الذي يُعتبر النموذج البارز للتربية الإسلامية والقيم العالية أقسم بنفسه الشريفة أكثر من مرة في خطبه ورسائله وكلماته (٤) وكذلك أقسم أبو بكر بن أبي قحافة باب الشخص الذي كان يتكلم معه (٥).

المذاهب الأربعة والحلف بغير الله

قبل أن نتناول أدلة الوهابية على حرمة الحلف بغير الله، من الأفضل أن نسجل فتاوى أئمة المذاهب الأربعة حول هذه المسألة (٦):

(١) أي تتكلم -للمخاطب- كما في قوله تعالى: «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» أي: تصدّي.

(٢) مسند أحمد: ج ٥ ص ٢٢٥.

(٣) للتفصيل راجع مسند أحمد: ج ٥ ص ٢١٢، وسنن ابن ماجه: ج ٤ ص ٩٩٥ و ج

ص ٢٥٥.

(٤) راجع نهج البلاغة -تعليق محمد عبده-: خطبة رقم ٢٣ و ٢٥ و ٥٦ و ٨٥ و ١٦١ و ١٦٨ و

١٨٢ و ١٨٧ و الرسالة رقم ٦ و ٩ و ٥٤.

(٥) كتاب الموطأ: لمالك بن أنس -إمام المالكية- المطبوع مع شرح الزرقاني ج ٤ ص ١٥٩.

(٦) للتفصيل راجع كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: كتاب اليمين ج ١ ص ٧٥ طبعة

أما الحنفيّة فيقولون بأن الحلف بالأب والحياة - كقول الرجل: وأبيك، أو: وحياتك - وماشابه مكرهه.
و أما الشافعيّة فيقولون بأن الحلف بغير الله - لو لم يكن باعتقاد الشرك - فهو مكرهه.

و أما المالكيّة فيقولون: إن في القسم بالعظماء والمقدّسات - كالنبيّ والكعبة - فيه قولان: الحرمة والكراهة، والمشهور بينهم هو الحرمة.

و أما الحنابلة فيقولون بأن الحلف بغير الله وبصفاته سبحانه حرام، حتى لو كان حلفاً بالنبيّ أو بأحد أولياء الله تعالى.
هذه فتاوى أئمة المذاهب الأربعة، ولسنا الآن في مقام المناقشة مع القائلين منهم بالحرمة، وأن فتاواهم من الاجتهاد في مقابل النصوص القرآنية وسنة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة أولياء الله سبحانه، وأن علماء هذه المذاهب سدّوا باب الاجتهاد على أنفسهم، فصاروا مجبورين على الأخذ بآراء أئمة المذاهب الأربعة فقط.

ولسنا واثقين ممّا نُسب إليهم في هذه المسألة، لأن القسطلاني ذكر (١) عن مالك بن أنس أنه كان يقول بكراهة الحلف بغير الله.

ونسبة الحرمة الى الحنابلة غير ثابت أيضاً، لأن ابن قدامة يذكر - في كتاب المغني الذي كتبه إحياء لفقهِ الحنابلة - أن أحمد

(١) في كتاب إرشاد الساري: ج ٩ ص ٣٥٨.

بن حنبل أفتى بجواز الحلف بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
وأنه ينعقد لأنه أحد ركني الشهادة، وقال - أحمد - :

«لو حلف بالنبي انعقد يمينه، فإن حنث لزمته الكفارة».

مع كل ما سبق من الأقوال... لا يمكن التأكد - إطلاقاً - من
أن أحد أئمة المذاهب الأربعة قد أفتى بجرمة الحلف بغير الله
تعالى.

أيها القارئ الكريم: بعد الاطلاع على فتاوى أئمة المذاهب
الأربعة، ننتقل الى ذكر حديثين تمسك بهما الوهابيون في حرمة
الحلف بغير الله، وأراقوا من أجل ذلك دماء الأبرياء (١) واستهدفوا
ملايين المسلمين بسهام التكفير السامة:

الحديث الأول:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ عُمَرَ وَهُوَ يَقُولُ: وَآيِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ
تَخْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَخِيفْ بِاللَّهِ أَوْ يَسْكُتْ» (٢).

الجواب:

أولاً: لعل النهي عن الحلف بالآباء قد جاء لأنهم - في

(١) لقد شنَّ الوهابيون هجومين على مدينة كربلاء المقدسة، كان أحدهما في عام
١٢١٦هـ - والآخر في عام ١٢٥٩هـ، ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، حتى أنهم قتلوا ستة آلاف
مسلم خلال ثلاثة أيام فقط، ونهبوا كل ما كان في الحرم الحسيني الشريف من نفائس قيمة،
إقتداءً بما فعله جيش يزيد بن معاوية عند الهجوم على مدينة رسول الله - صلى الله عليه وآله
وسلم - ولكن لماذا؟ لماذا هذه الحملات الخاقدة؟ السبب هو أن هؤلاء المسلمين كانوا
يقسمون على الله بأبناء رسول الله ويحملون المحبة والمودة تجاههم.

(٢) سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٧٧، سنن الترمذي: ج ٤ ص ١٠٩ وغيرهما.

الغالب - كانوا مشركين وعبدة للأصنام، ولهذا فلا حُرمة ولا كرامة لهم حتى يحلف أحد بهم.

وقد جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -:

«لَا تَخْلِفُوا يَا بَائِكُمْ وَلَا يَأْتُواغَيْتِ» (١).

وروي أيضاً:

«لَا تَخْلِفُوا يَا بَائِكُمْ وَلَا يَأْمُهَائِكُمْ وَلَا يَأْتُواغَيْتِ» (٢).

ثانياً: إن المقصود من النهي عن الحلف بالأب هو ذلك الحلف الذي يُفصل به في القضاء والخُصومات وحسم الخلافات، لأن علماء الإسلام اتفقوا على أن اليمين التي تحسم الخلاف والنزاع هو الحلف بالله سبحانه وبصفاته التي هي عين ذاته فقط، أما سوى ذلك فلا.

مع وجود هذه القرائن الواضحة... كيف يمكن أن يقال بأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نهى عن الحلف بالمقدسات - كالكعبة والقرآن وأولياء الله تعالى - مع العلم أن النهي خاص بمورد معين، وأن النبي بنفسه كان يحلف بغير الله؟

الحديث الثاني:

«جاء ابن عُمَرَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَخْلِفُ بِالْكَعْبَةِ؟ قَالَ لَهُ: لَا، وَلَكِنْ إِخْلِفْ

(١) سنن النسائي: ج ٧ ص ٧، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٧٨، والطواغيت: هي

الأصنام.

(٢) سنن النسائي: ج ٧ ص ٩.

بِرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَإِنَّ عُمَرَ كَانَ يَخْلِفُ بِأَيْبِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: لَا تَخْلِفُ
بِأَيْبِكَ فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» (١).

الجواب الأول:

إن هذا الحديث يتألف من ثلاثة أمور:

- ١ - إن رجلاً جاء الى ابن عمر فقال: أحلف بالكعبة؟ فأجابه بقوله: لا، ولكن إحلف برَبِّ الكعبة.
- ٢ - إن عمر بن الخطاب كان يحلف بأبيه، فهناه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن ذلك .
- ٣ - إن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- علل ذلك بقوله «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» .

و القدر المتيقن منه كما هو مورد كلام الرسول ما اذا كان المحلوف به شيئاً غير مقدس كالكافر والصنم. ولكن ابن عمر اجتهد بأن قول النبي «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» الذي ورد في الحلف بالمشرك -وهو الخطاب الذي هو والد عمر- اجتهد بأنه يشمل الحلف بالمقدسات أيضاً كالكعبة، مع العلم بأن كلام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد ورد في الحلف بالمشرك كما أوضحناه عند البحث عن الحديث السابق، وعلى ذلك فقد كان كلام الرسول في الضابطة التي أعطاها خاصاً بما اذا كان المحلوف به أمراً غير مقدس ولكن ابن عمر اجتهد وجعله أعم منه ومن

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ج ١٠ ص ٢٩، وقريب منه في مسند أحمد: ج ٢ ص ٦٩.

غيره، واجتهاده حجّة على نفسه لا على غيره.
وقد أوضحنا سابقاً بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-
كان يحلف بغير الله سبحانه كثيراً، فيحب أن نحمل قوله: «مَنْ
حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» على الحلف بالمشرك وأمثاله، لا على
الحلف بالمقدّسات كالقرآن والكعبة والنبي، بدليل أن النبي إنما
أعطى هذه الظابطة عند حلف عمر بأبيه المشرك.

فطبيق هذا الحديث على الأعمّ من المشرك وغيره اجتهاد من
ابن عمر، واجتهاده حجّة لنفسه فقط لا لغيره.

وتسأل: لماذا اعتبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-
الحلف بالمشرك شركاً؟

والجواب: لأن الحلف به نوع من التشييد بشخصيته والتعظيم
له والتصديق لدينه الباطل وعقيدته المنحرفة.

والخلاصة: إننا نُسَلِّمُ أصل الحديث، ولا نُسَلِّمُ اجتهاد ابن عمر،
نظراً لمخالفته لسُنَّةِ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وسيرة
الصحابة، فالقاعدة المذكورة في حديث النبي الكريم مختصة بما
حَلَفَ به عمر، ولا تعمّ المقدّسات الإسلامية أبداً.

وأما الحلف بالكعبة والقرآن والأنبياء والأولياء -في غير
القضاء والخصومات- فهو خارج عن تلك القاعدة العامة، وليس
شركاً ولا حراماً.

الجواب الثاني:

وهنا جواب آخر أوضح من الجواب الأول وهو: إن قول

النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» يشير الى حلفٍ خاصٍّ وهو الحلف بالأصنام - كالألات والعُزْرِى - فقط ولا يعتم الإنسان المشرك فضلاً عن المقدّسات .

ويؤيد هذا الجواب ما رواه النسائي في سُنَنِهِ إن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال :

«مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي خَلْفِهِ : بِاللَّاتِ وَالْعُزْرِى فَلْيُقْل : لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» (١) .

وما رواه - في نفس المصدر - إن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

قال :

«لا تَخْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالْأَنْدَادِ» .

إن الحديث الأول يدلّ على أن رَواسب الجاهلية كانت باقية في بعض النفوس ، فكانوا يخلفون بأصنامهم المعبودة من دون الله ، فأمرهم النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بقول : «لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» من أجل القضاء على تلك الرواسب الجاهلية .

ويُستفاد ممّا رواه إمام الحنابلة أن قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» كان حديثاً مستقلاً ، فجاء ابن عمر وأدخل اجتهاده الشخصي - في عموم الحلف بالأب وبالمقدّسات - في سياق الحديث ، لم يكن الحلف بالآباء ولا المقدّسات داخلاً فيه ، وإن أدخلهما فيه ابن عمر .

الحديث الذي رواه إمام الحنابلة هو هذا :

«عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَ يَخْلِفُ أَبِي ، فَتَهَاؤُ النَّسِيِّ ، قَالَ : مَنْ حَلَفَ

بِشْيءٍ دُونَ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» (١).

فإنك ترى حديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مُستقلاً عن مقالة ابن عمر، ولم يأت به «(واو) العاطفة أو «(فاء) التفریع، بل قال «(فناه النبي، قال: ...» مما يدل على أن الحديث صدر في وقتٍ آخر، بصورة مستقلة.

أيها القارئ الكريم: لقد تلخّص من كل ما سبق:

١ - إن الحلف بغير الله لا مانع منه شرعاً، وقد صدر ذلك من الله تعالى في القرآن الكريم ومن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وخليفته أمير المؤمنين عليّ -عليه السلام- والمسلمين.

٢ - إن الحلف بغير الله لا يصح -ولا نقول: لا يجوز- لا يصح في القضاء والخضومات، بل لا بد من الحلف بالله جلّ جلاله أو بإحدى صفاته التي هي عين ذاته سبحانه، وقد ثبت هذا بالدليل الخاص ولا علاقة له بهذا البحث.

٣ - إن الحديثين اللذين استدلت بهما الوهابيون الضالون -على حرمة الحلف بغير الله- لا علاقة لهما بما نحن فيه من الحلف بالمقدسات الاسلامية -كالقرآن والكعبة والأنبياء والأئمة والأولياء- بل هي خاصة بالحلف بالأمر غير المقدسة كالآباء المشركين والأصنام المعبودة في الجاهلية.

وهكذا يتعرى الوهابيون من الأقنعة «الاسلامية!!» المزيفة التي يلبسونها آراءهم الشاذة وأفكارهم الباطلة والحمد لله رب العالمين.

الإستغائة بأولياء الله تعالى

هل يجوز نداء أولياء الله والاستغائة بهم في الشدائد والمكاره؟
هذه المسألة من المسائل التي وقع الاختلاف فيها بين
الوهابيين والمسلمين. فالسنة الإسلامية قائمة بين المسلمين على
الاستغائة بالأنبياء وأولياء الله، وندائهم بأسمائهم عند الشدائد
والمصاعب والأخطار المحتملة، سواء كانت الاستغائة عند قبورهم
الشريفة أو في مكان آخر. ولا يرى المسلمون بأساً في هذه
الاستغائة، ولا شركاً ولا مخالفةً للدين، في حين يتعصب
الوهابيون ضد هذه الظاهرة الإسلامية تعصباً شديداً، ويتذرعون
ببعض الآيات القرآنية - التي لا علاقة لها بالمسألة أبداً - لتلبيس
باطلهم بالحق، كقوله تعالى:

«وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (١).

ولكي تطلع - أيها القارئ الكريم - على الآيات القرآنية التي
يستدل بها الوهابيون على رأيهم الشاذ، نتناول تلك الآيات

بالبحث والتشريح - إن شاء الله تعالى - كي تعرف تفسيرها الصحيح، وبذلك نردّ عليهم من نفس القرآن الكريم الذي زعموا أنهم يستدلّون به قبل كلّ شيء، نذكر بعض تلك الآيات:

«لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ» (١).

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» (٢).

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» (٣).

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ» (٤).

«قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا اتِّخَاذِ الْوَيْلِ» (٥).

«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ» (٦).

«وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» (٧).

«إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ» (٨).

(١) سورة الرعد: آية ١٤.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٩٧.

(٣) سورة فاطر: آية ١٣.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٩٤.

(٥) سورة الإسراء: آية ٥٦.

(٦) سورة الإسراء: آية ٥٧.

(٧) سورة يونس: آية ١٠٦.

(٨) سورة فاطر: آية ١٤.

«وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ» (١).

بهذه الآيات يستدل الوهابيون على حرمة الاستغاثة بأولياء الله ودعائهم وندائهم بعد وفاتهم، وأن ذلك عبادة لهم وشرك بالله، فاذا قال رجل - عند قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو في مكان آخر - : «يا مُحَمَّد» فقد عبده بهذا النداء والدعاء!!! يقول الصنعاني - الوهابي - :

«وقد سمى الله الدعاء عبادة بقوله: «أذْغُونِي أُسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي» وَمَنْ هَتَفَ بِاسْمِ نَبِيِّ أَوْ صَالِحٍ بِشَيْءٍ، أَوْ قَالَ «إِسْفَعْ لِي إِلَهِي اللَّهُ فِي حَاجَتِي» أَوْ «أَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلَهِي اللَّهُ فِي حَاجَتِي» أَوْ خُوذْ ذَلِكَ، أَوْ قَالَ «إِقْضِ دِينِي» أَوْ «إِسْفِ مَرِيضِي» أَوْ خُوذْ ذَلِكَ فَقَدْ دَعَا النَّبِيَّ وَالصَّالِحَ، وَالدَّعَاءُ عِبَادَةٌ بِلِئَامِهَا، فَيَكُونُ قَدْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ وَصَارَ مُشْرِكاً، إِذْ لَا يَتَمَّ التَّوْحِيدُ إِلَّا بِتَوْحِيدِهِ تَعَالَى فِي الْإِلَهِيَّةِ (٢) بِاعْتِقَادَاتِ لَا خَالِقَ وَلَا رَازِقَ غَيْرِهِ، وَفِي الْعِبَادَةِ بِعَدَمِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَلَوْ بَعْضَ الْعِبَادَاتِ، وَغُبَادِ الْأَصْنَامِ، إِنَّمَا أَشْرَكُوا لِعَدَمِ تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ» (٣).

(١) سورة الأحقاف: آية ٥.

(٢) لقد استعمل الصنعاني كلمة «الإلهية» بدل «الربوبية» على خلاف عادة

الوهابيين.

(٣) كشف الارتباب: ص ٢٧٤ نقلاً عن تنزيه الاعتقاد للصنعاني.

الجواب:

مما لا شك فيه أن لفظ «الدعاء» - في اللغة العربية - معناه: النداء، وقد يُستعمل في معنى العبادة، إلا أنه لا يمكن - بأي وجه - أن نعتبر الدعاء والعبادة لفظين مترادفين في المعنى، فلا يمكن أن نقول: كل دعاء عبادة، وذلك للأُمور التالية:

الأول: لقد استعمل القرآن المجيد لفظ «الدعاء» في مواضع عديدة، ولا يمكن القول بأن مقصوده منه: العبادة، فمثلاً... يقول تعالى:

«قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا» (١).

فهل يصح أن يُقال: إن النبي نوحاً - عليه السلام - قصد من كلامه هذا أنه عبد قومه ليلاً ونهاراً؟! و اقرأ قوله تعالى - عن لسان إبليس في خطابه للمذنبين يوم القيامة -:

«وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ

لي» (٢).

هل هناك من يحتمل أن معنى دعاء الشيطان للمذنبين هو عبادته لهم؟! مع العلم أن العبادة - إذا تحققت - تكون من المذنبين للشيطان لا من الشيطان لهم.

(١) سورة نوح: آية ٥.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٢٢.

في هاتين الآيتين - و آيات أخرى مماثلة نصرف النظر عن ذكرها - جاء لفظ «الدعوة» في غير معنى العبادة، ولهذا لا يمكن القول بأن الدعاء والعبادة لفظان مترادفان، وأن من دعا أحد الأنبياء أو الأولياء فقد عبده وأشرك بالله، كلاً، لأن الدعوة - والدعاء - أعم من العبادة وغيرها (١).

الثاني: إن معنى «الدعاء» - في الآيات التي استدل بها الوهابيون - ليس مطلق النداء، بل معناه النداء على وجه يكون مُرادفاً للعبادة، لأن جميع هذه الآيات إنما نزلت في شأن عبدة الأصنام الذين كانوا يعتقدون بأنها آلهة صغيرة قد فُوض إليها بعض شؤون الكون، ولها الاستقلال في التصرف، فن الواضح أن كل دعاء ونداء لهذه الأصنام - سواء كانت آلهة كبيرة أو صغيرة، مع الاعتقاد بأنها مالكة الشفاعة والمغفرة - يُعتبر شركاً وعبادة لها. و أوضح دليل على أن عبدة الأصنام كانوا يدعون أصنامهم باعتقاد ألوهيتها هو قوله تعالى:

«فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (٢)»

إذن: لا علاقة بين الآيات المذكورة وهذه المسألة إطلاقاً، لأن البحث حول استغاثة إنسان بإنسان آخر من دون الاعتقاد

(١) وعلى اصطلاح أهل المنطق، بين الدعاء والعبادة عموم وخصوص من وجه، فالاستغاثة بأولياء الله - مع الاعتقاد بقدرتهم المستمثلة من قدرة الله - دعاء لا عبادة، وبعض الفرائض الدينية كالركوع والسجود - المقرونين بالوهمية من تركع وتسجد له - عبادة لا دعاء، والصلاة - مثلاً - دعاء وعبادة.

(٢) سورة هود: آية ١٠١.

بربوبيته وأوهيته ولا بمالكيته ولا باستقلاله في التصرف في أمور الكون والدنيا والآخرة، بل باعتبار أنه عبد صالح ووجه عند الله، قد اصطفاه الله للنبوّة أو للإمامة، ووعد باستجابة دعائه في حق من يدعو له، كما قال تعالى:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (١).

الثالث: إن في الآيات - التي استدلت بها الوهابيون - دليلاً على أن المقصود من «الدعاء» هو العبادة لا مطلقاً. تأمل قوله تعالى:

«وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (٢).

لقد ذكر سبحانه لفظ «ادْعُونِي» ثم أتبعها بلفظ «عِبَادَتِي» مما يدل - دلالة واضحة - على أن المقصود من «ادْعُونِي» - هنا - عبادة الله وترك عبادة غيره، ولهذا كان المشركون «يَسْتَكْبِرُونَ» عن دعائه وعبادته سبحانه.

يقول حفيد رسول الله الإمام زين العابدين - عليه السلام - في دعاء له:

«... فَسَمَّيْتُ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَرَمَكُةً اسْتِكْبَارًا، وَتَوَعَّدْتُ عَلَى تَرْكِهِ

دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (٣).

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) سورة غافر: آية ٦٠.

(٣) الصحيفة السجادية: دعاء رقم ٤٥.

وقد جاءت في القرآن الكريم آيتان بمعنى واحد، استعمل في إحداها لفظ «العبادة» وفي الثانية لفظ «الدعوة». فالأولى قوله سبحانه:

«قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؟» (١).

والثانية هي قوله سبحانه:

«قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا» (٢).

ويقول سبحانه:

«وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» (٣).

في هذه الآية جاء بلفظ «تَدْعُونَ» وفيها دلالة واضحة على أنَّ هذه الدعوة هي دعوة الأصنام، وكان المشركون يعتقدون بأنها آلهة «مِنْ دُونِهِ» تضرُّ وتَنْفَع، ولهذا رَدَّ اللَّهُ عليهم بقوله: «مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ».

وجاء هذا المعنى في آية مماثلة بلفظ «تَعْبُدُونَ» وهي قوله سبحانه:

«إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا» (٤).

وفي آية أخرى جاءت الكلمتان مُتقارنتان بمعنى واحد،

وهي قوله عز وجل:

«قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (٥).

(٢) سورة الأنعام: آية ٧١.

(١) سورة المائدة: آية ٧٦.

(٤) سورة العنكبوت: آية ١٧.

(٣) سورة فاطر: آية ١٣.

(٥) سورة الأنعام: آية ٥٦، وهذا المضمون في سورة غافر: آية ٦٦.

أيها القارئ الكريم: أرجو منك أن تقوم بمراجعة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» مادة: «عَبَدَ» و «دَعَا» كي ترى بعينك كيف جاء لفظ «العبادة» - في آية - و «الدعوة والدعاء» - في آية أخرى - بمعنى واحد ومضمون واحد، مما يدل - أوضح دلالة - على أن المقصود من الدعوة والدعاء - في هذه الآيات - هي العبادة، لا مطلق النداء والدعاء.

فاذا تأملت الآيات التي تَصَمَّنَتْ لفظ «الدعاء والدعوة» بمعنى العبادة، لرأيت أن تلك الآيات تتحدّث عن الصراع بين الإيمان والكفر، بين عبادة الله وتوحيد والإيمان بالوحيّته وربوبيّته وبين عبادة الطاغوت والأنداد والأصنام والاعتقاد بمالكيتها للرزق والمغفرة والشفاعة والنفع والضرّ.

فاستدلّال الوهابيين بهذه الآيات - على حرمة نداء الأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم - يدعوا إلى الإستغراب والتعجب، نظراً لعدم علاقتها بهذه المسألة إطلاقاً.

و خلاصة ما ثبت - من خلال هذا البحث - : إن قولك «يا علي» - مخاطباً خليفة رسول الله - أو «يا حسين» أو «يا زهراء» أو غير ذلك من أسماء أولياء الله الطاهرين لا إشكال فيه أبداً، بل هو نوع من الاستغاثة بهم - صلوات الله عليهم أجمعين - فهو محبوب مرغوب فيه، ويعود على الإنسان بالخلّاص من الأزمات والفرج من الشدائد والنجاة من المهالك .

الحجّ

موسم عبادي وملتقى سياسي

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس وجعل الحجّ موسماً للعبادة، وفرصة للقاء المسلمين الوافدين من كلّ صقع وصوب ليتعارفوا، وليتعرّفوا على معالم دينهم ويطلعوا على أحوالهم، فهذا هو-بعد العبادة- من أظهر مصاديق قوله تعالى «وليشهدوا منافع لهم»، وأيّ منفعة-بعد العبادة- اكبر من أن يلتقي الاخوة في الله في نقطة واحدة بعيداً عن جميع الاعتبارات الشخصية والاجتماعية والحواجز القومية والاقليمية والعرقية يُخيم عليهم ظلال الدين، وتغمرهم مشاعر المحبة والمودة، وتجمعهم روح الاخوة الصادقة الصافية؟

وأيّ مسألة أهمّ من أن يتعرّف المسلمون على الأخطار والمشاكل المحدقة بهم، ويتدارسوا حلولها المناسبة ويعملوا معاً وببيد واحدة، وعزيمة متضافرة لإزالتها، أو يخفّضوا من وطأتها وثقلها عن كواهلهم.

وأيّ مشكلة هي اكثر ضغطاً على المسلمين اليوم من مشكلة الاستعمار المتشكّل بأشكال مختلفة الذي يحتلّ بلاد المسلمين

عسكرياً أو يسيطر عليها سياسياً أو يغزوها ثقافياً، وينهب ثراوت المسلمين، ويثير الفتن بينهم، ويقتل أبناءهم، ويُفسد شبابهم، و.و.و.

أليس «الحجج» خير مكان لإعلان الاستياء الاسلامي العام من هذا الإستعمار الخبيث البغيض وفي طليعته أمريكا وروسيا؟ وإذا كان المسلمون المظلومون، المظطهدون في بلادهم لا يستطيعون الإعلان عن استيائهم وغضبهم على المستعمرين في عقر ديارهم، لوجود حكومات عميلة تخنق الأصوات، وتكتم الأفواه، أفلا يكون الحجج أنسب فرصة وأنسب مكاناً لإعلان هذا الاستياء والغضب جنباً الى جنب مع كافة الاخوة المسلمين إلى جانب العبادة والخضوع والتضرع والإنابة؟

أليس رفض -الطواغيت- التي يعتبر الخضوع لحكمها، والسير في ركابها، والركون اليها من مصاديق الشرك في الطاعة- من أبرز مظاهر التوحيد الذي جعل الله الحجج تجسيداً له، وتحقيقاً لحقيقته؟.

ولقد أدرك المسلمون اليوم هذه الحقيقة، ومع تنامي الحركة الإسلامية وتصاعد الصحوة الاسلامية أدركوا أن الحجج هو المكان المناسب والفرصة المناسبة لتوحيد صفوف المسلمين، وإيقاضهم، وإيقافهم على حقيقة الأحداث المأساوية التي يقف وراءها أعداء الاسلام: أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وغيرهم من قوى الاستكبار والاستعمار.

لقد أدركوا أن الحج خير فرصة لإعلان الاستياء الاسلامي العام من الاستعمار البغيض جنبا الى جنب مع العبادة والإنابة امتثالاً لقوله تعالى «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ» (١) الذي يشير إلى فلسفة الحج المزدوجة: العبادة والسياسة وبُعديه الدنيوي والأخروي.

ومن أجل هذا كانت التظاهرات السياسية العظيمة التي بدأها المسلمون أيام الحج منذ سنوات، ويتقدمهم الاخوة الايرانيون المسلمون.

ولكن مع الأسف نجد بعض من يدعي العلم، ويتصدّر مقام الدعوة الى الاسلام يخالف بشدة هذه الحركة المباركة وهذه الخطوة العظيمة المؤثرة التي لا تهدف إلا إنقاذ المحرومين والمظلومين، وشجب الاستعمار والاستعباد، وهو يسمع باستمرار أخبار المذابح والمجازر التي تؤدي بحياه آلاف الآلاف من أبناء الأمة الاسلامية كل يوم وبسبب مباشر من استعمار في الهند وفلسطين ولبنان و أفغانستان وارتيريا، والحدود العراقية الايرانية، وغيرها وغيرها.

هذا البعض بدل أن يضمّ صوته الى أصوات بقيّة المسلمين المستنكرة لأعمال الاستعمار، الشاجبة لجرائمهم بحق الإسلام والمسلمين نجده يضمّ صوته إلى أصوات الدوائر الاستعمارية ويرفع عقيرته ضدّ المسلمين، ويستنكر غضبهم على الاستعمار المتمثل اليوم في أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا الملطخة أيديهم بدماء

المسلمين المبنية قصورهم من جماجم أبناء الاسلام.
و أعجب من كلّ هذا تمسّكه لتحريم هذه الخطوة المباركة
بقوله تعالى «لَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» الذي لا علاقة له بهذه
المسألة أصلاً.

ذلكم هو الشيخ عبدالله خياط إمام وخطيب المسجد الحرام
الذي اعتبر طرح مشاكل المسلمين السياسية في موسم الحجّ
خروجاً عن مفاهيم الحجّ، واستدلّ لذلك بقول الله تعالى: «قَمَنْ
فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» (١)، وقال:

«و كما أرادها الرسول في قوله -ص- «من حجّ ولم يرفث ولم يفسق
عاد كيوم ولدته أمه».

أما دعوة إيران الخميني التي يريد أن يحول الحجّ الى شعارات سياسية،
والى مظاهرات دعائية، والى ممارسات فوضوية، فهي مرفوضة شكلاً
ومضموناً لأنها تتنافى مع تعاليم ديننا الحنيف، وتخرج عن مفاهيمه
ومبادئه السمحة، ولأنها تقوّض ركناً من أركانه، ففيها انتهاك لحرمات
الله، واجترأ على شعائر الله، وخروج على النهج الذي رسمه الله.

إن دعوة إيران الخميني تثير الفتنة وتشتت الشمل وتحوّل المحبة الى
أحقاد، وتحوّل المشاعر المقدسة الى ساحات لرفع الشعارات السياسية،
ونشر الدعوات المشبوهة، فها من مسلم على وجه الأرض إلا ويرفض
هذه الدعوة ويستنكرها، لأن فيها خروجاً على الاسلام وانتهاكاً
لشعائره.

والحج لا يمكن أن يكون إلا ملتقىً روحياً ومؤتمراً سنوياً يجتمع فيه

المسلمون الوافدون من كل فج عميق» (١).

إن ما ورد في هذا الخطبة من العبارات والكلمات هي التي نسمعها من مرتزة السعودية في كل عام، وفي كل خطاب، ومن كل خطيب، فهم لا يتجاوزون عن تلاوة نفس الآية، وإتباعها بما قرأت من هذا الخطيب من الكلمات والعبارات الجوفاء.

ونحن - هنا - لا نقابل الشيخ إلا بما أمرنا به سبحانه في قوله: «وجادهم بالتي هي أحسن» فنشرح معنى الآية ونوضحه، حتى يظهر المراد منها، ويعلم الجميع أن المظاهرات السياسية وإعلان البراءة من الكفار وشجب أعمالهم المعادية للإسلام والمسلمين، ودعوة المسلمين إلى الوحدة التي هي روح تلك المظاهرات التي أمر بها الإمام الخميني، ليست مصداقاً للجدال الوارد في الآية. وإليك تفسير الآية وبيان المراد منها، قال سبحانه:

«الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا

جدال في الحج» (٢).

١ - إن تكرار لفظ «الحج» في الآية ثلاث مرات مضافاً إلى أنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمرة، فيه لطف الإيجاز، فإن المراد بالحج الأول: زمان الحج، وبالحج الثاني: نفس العمل، وبالثالث: زمان الحج ومكانه، ولولا الإظهار لم يكن بد من

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي - السنة الحادية والعشرون - العدد الثاني عشر.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

إطنا ب غير لازم .

قال في تفسير المنار لرشيد رضا :

«إن من بلاغة الایجاز في الآية التصريح في مقام الإضمار بذكر الحج

ثلاث مرّات، المراد بأولها: زمان الحج كقولهم البرد شهران، وبالثاني:

الحج نفسه المسمى بالنسك، وبالثلث: ما يعمّ زمان أدائه ومكانه وهو

أرض الحرم وما يتبعها كعرفات» (١) .

٢ - المراد من قوله: «فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ» أي ألزم نفسه

بالشروع في الحج بالنية قصداً باطناً، والإحرام فعلاً ظاهراً،

وبالتلبية نطقاً مسموعاً (٢) .

٣ - المشهور أن الرفث هو الجماع، وعن عبد الله بن عمر

وطا ووس وعطاء وغيرهم الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام (٣) أو

مطلق الفحش (٤) وقيل غير ذلك .

٤ - وفسرّ الفسوق بجميع المعاصي كلّها، وقال ابن زيد

ومالك: الفسوق الذبح للأصنام، وقال الضحاك: الفسوق

التنازب بالألقاب، وقال ابن عمر: الفسوق السباب، والقول الأول

هو الأصح، لأنه يتناول جميع الأقوال .

وقد روي عنه - ضلّى الله عليه وآله وسلّم - أنه قال :

(١) المنار: ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير القرطبي: ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري: ج ١ ص ٢٦٤ .

«من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رَجَعَ كيوم ولدته أمه» و«الحجّ المبرور

ليس له جزاء إلا الجنة» أخرجه مسلم وغيره (١).

٥ - والجدال في اللغة هو المنازعة والمشاجرة والمخاصمة.

يقال: جدلت الحب فتلته، والجديل زمام البعير.

وسميت المخاصمة مجادلة لأن كل واحد من الخصمين يروم

أن يفتل صاحبه عن رأيه.

والمهمّ في المقام هو تفسير قوله تعالى: «ولا جدال في الحجّ» وتعيين

المقصود منه، وقد اتخذته مرتزقة السعودية دليلاً على حرمة

المظاهرات وإلقاء الخطب السياسية، والمناشدات الجماعية وإظهار

البراءة من الكفار والمنافقين.

ولا يتبين مقدار دلالة الآية على ما يرتئيه هؤلاء إلا بنقل

جميع الاحتمالات التي ذكرها الكبار من المفسرين وإليك بيانها:

(ألف): ما ذكره القاضي البيضاوي ومال إليه الرازي (٢)

من حمل قوله سبحانه «لا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جدالَ في الحجّ» على الخبر،

ومعناه أن الحجّ لا يثبت مع واحدة من هذه الخلال بل يفسد،

لأنه كالضد لها، وهي مانعة من صحته، وعلى ذلك يجب أن

يحمل الألفاظ الثلاثة على أعمال تفسد الحجّ، وتوجب القضاء من

قابل اذا كان واجباً، فيفسر «الرفث» بالجماع، و«الفسوق»

بالزنا، لأنه مفسدة، ويحمل الجدال على خصوص الشكّ في الحجّ

(١) تفسير القرطبي: ج ٢ ص ٤٠٨.

(٢) مفاتيح الغيب: ج ٢ ص ١٧٥ ونقله عن القاضي أيضاً.

ووجوبه وصحة تشريعه وكونه عملاً موافقاً للعقل.

والحاصل: إن الظاهر هو حصول المضادة بين هذه الأشياء والحج الذي أمر الله تعالى بها ابتداءً.

وعلى ذلك... فكما لا يمكن الأخذ بمطلق «الفسوق» إذ ليس كل فسوق مفسداً كالكذب والغيبة لا يمكن الأخذ بمطلق «الجدال» إذ ليس كل جدال مفسداً غير مجامع مع الحج بل جдалاً خاصاً غير مجامع معه كالشك في وجوبه وصحة تشريعه، والقول بلغوية الطواف على الحجر والتراب والأخشاب.

وهذا المعنى الذي اختاره القاضي وجنح إليه الرازي في تفسيره هو المختار لكثير من الفقهاء في بعض التراكيب مثل قوله: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» أو «لا صلاة إلا بطهور» والمقصود نفي الصحة بدونها، وأن حقيقتها تتقوم بهما، كما أن المقصود من الآية أيضاً نفي صحة الحج مع أحد هذه الأمور الثلاثة.

فلو صح ذلك الاحتمال، فلا يصح الاستدلال معه على ما يرتبه هؤلاء من حرمة مطلق الجدال، ومنه المظاهرات، إذ الآية بصدد بيان حرمة الجدال الذي لا يجتمع مع صحة الحج، وليس بصدد بيان حرمة كل جدال وإن جامع مع صحته.

والمظاهرات على فرض كونها جдалاً حراماً ليست مفسدة للحج بالضرورة.

(ب): التفريق بين الأمور الثلاثة بحمل الأولين على النهي، وإن كان عدولاً عن ظاهر اللفظ أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، وحمل

الثالث على الخبر، أي أنه لا جدال ولا خلاف في وقت الحجّ ومكانه، وعلى هذا فالمراد: لا جدال ولا خلاف في وقت الحجّ ومكانه، وهذا المعنى هو الذي أصرّ عليه ابن جرير الطبري في تفسيره (١) وذكره الزمخشري (٢) واستشهدا عليه بوجهين:

الأول: إن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «مَنْ حجّ لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أمّه» ولم يقل «ولم يجادل» وفي هذا دلالة على أن الأولين بمعنى النهي عن الرفث والفسوق، دون الثالث، وإلا كان عليه عطف الثالث عليهما بصورة النهي، بل هو بمعنى الخبر والنفي عن الحجّ أن يكون في وقته ومكانه جدال ومرء، وأنه من ذينك الجانبين بمكان من الوضوح لا يليق أن يشكّ ويرتاب فيه.

الثاني: إن قريناً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب بعرفة، وكانوا يقدّمون الحجّ سنة ويؤخّرونه سنة وهو النسبيء فردّ الى وقت واحد، وردّ الوقوف إلى عرفة، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحجّ، وقد أخبر الله عن النسبيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونّه عاماً ويحرّمونه عاماً.

نعم رجع الحجّ الى زمانه ومكانه في حجة الوداع قال -صلى الله عليه وآله وسلم- «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق

(١) تفسير الطبري: ج ٢ ص ١٦٢.

(٢) تفسير الكشاف: ج ١ ص ٢٦٤.

السموات والأرض» وقال القرطبي: يعني رجع أمر الحج كما كان، أي عاد الى يومه ووقته، وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-
 لَمَّا حَجَّ: «خَذُوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ» فبيّن بهذا مواقف الحج ومواضعه (١).

فلو قلنا بهذا الوجه لما كان لقوله تعالى صلة بما يرتثية الخطيب الخياط، إذ ليس هو بمعنى النهي حتى يكون تكليفاً إلزامياً شاملاً لمطلق الجدل، بل هو كلام خبري، والخبر حقيقة تكوينية وأن أمر الحج -بعد عمل رسول الله وتحديد المواقف والمشاعر، وتبتيته في شهر خاص- أصبح كالشمس في رابعة النهار فهو أرفع من أن يحرم حوله الشك من حيث الزمان والمكان. فأبي صلة لهذا الكلام بجرمة المجادلة أولاً وحرمة المظاهرات السياسية ثانياً، لو قلنا بأنها من مصاديق الجدل.

قال ابن جرير:

«وأعجب الأقوال التي في ذلك - إذ كان الأمر على ما وصفت - قراءة من قرأ «فلا رَفَتْ ولا فُسوقٌ ولا جدالٌ في الحج» برفع الرفع والفسوق وتنوينها، وفتح الجدل بغير تنوين، وذلك هو قراءة البصريين وكثير من أهل مكّة منهم عبدالله بن كثير، وابن عمرو بن العلاء (٢).

وإنما رفع الأولان ونصب الثالث حملاً للأولين على معنى

(١) تفسير القرطبي: ج ٢ ص ٤١٠.

(٢) تفسير ابن جرير: ج ٢ ص ١٦١.

النهي كأنه قيل: فلا يكونن رفث، ولا فسوق، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدل كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج، أي في مواعده وزمانه.

الثالث: ما اختاره كثير من المفسرين هو حمل النفي على النهي والغاية هو النهي عن الأمور الثلاثة، وعندئذ يتوهم المستدل أن ظاهر الآية هو النهي عن مطلق الجدل ومنه المظاهرات السياسية. غير أنه يجب على المرید للحقيقة وقفة قليلة حتى يتبين أمران:

١- إن الجدل ينقسم إلى محرّم ومباح ومندوب، فهل المنهي عنه هو مطلق الجدل أو يختص بالقسم الأول منه، وكونه محرماً في غير الحج لا ينافي كونه محرماً فيه أيضاً إذ تكون الحرمة أكد.

٢- إن المظاهرات السياسيّة، وإلقاء الخطب، وإيقاظ المسلمين عن غفلاتهم، وإظهار البراءة من أعدائهم الشرقيين والغربيين، هل هي من مصاديق الجدل وموارده أو لا صلة لها بذلك أبداً، وإليك بيان الأمرين:

إن المراد بالجدال هنا هو المرء الذي يجب الاجتناب عنه في الحج وغيره، ولكنه في الحج أولى.
قال الزمخشري:

«ولا جدال: أي ولا مرء مع الرفقاء والخدم والمكارين، وإنما أمر

باجتناب ذلك، وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنه في الحج

اسمح كلبس الحرير في الصلاة، والتطرب في قراءة القرآن» (١).

وقال في المنار:

«الجدال: المرء والخصام، فتكون هذه المناهي كلها آداب لسانية،
ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله سبحانه على
اكمل الآداب وأفضل الأحوال» (١).

قال الجصاص:

«الجدال: المرء، وقال ابن عباس: الجدال أن تجادل صاحبك حتى
تغيضه. ثم قال: إن المحرم منهي عن السباب والمماراة في أشهر الحج
وفي غير ذلك وعن الفسوق، وإن كانت محظورة قبل الإحرام، فإن الله
نص على حظرها في الإحرام تعظيماً لحرمته الإحرام، ولأن المعاصي في
حال الإحرام أعظم واكبر عقاباً في غيرها منها» (٢).
ويوضح ذلك اقتران «الجدال» مع «الفسوق» فهو يكشف
عن كون الأمرين من قماشة واحدة وجنس واحد، فلا يصح
تعميمه الى مطلق الجدال المباح أو المندوب في الشريعة.
وفي الشريعة الاسلامية أنواع جدال مباحة بل ومنذوبة لا
تعمها الآية.

أما المباح منها فهو ما ورد في قوله سبحانه:

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ» (٣).
فلو اتفق مثل هذا الأمر في الحج لم يكن محرماً لا من المتكلم

(١) المنار: ج ٢ ص ٢٢٧ و ٢٢٨

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ج ١ ص ٣٠٨.

(٣) سورة المجادلة: آية ١.

ولا من المستمع.

ويدلّ على أن المراد من الجدل هو الجدل الممنوع والمرء اللازم الاجتناب، أنهم فسّروا الجدل في الآية بأمر ولا تخرج جميعها عن الجدل والمرء الممنوع.

قال الرازي: «ذكر المفسرون وجوهاً في هذا المجال:

١ - هو الجدل الذي يخاف منه الخروج الى السباب والتكذيب والتجهيل.

٢ - قال محمد بن كعب القرظي: إن قريشاً كانوا اذا اجتمعوا بمنى قال بعضهم: حجّنا أتم، وقال آخرون: بل حجّنا أتم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

٣ - قال مالك في الموطأ: الجدل في الحجّ أن قريشاً كانوا يقفون عند المشعر الحرام في المزدلفة بقزح وكان غيرهم يقفون بعرفات وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، قال الله تعالى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَايِعُوكَ فِي الْأُمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ» (١) قال مالك: هذا هو الجدل.

٤ - قال القاسم بن محمد: الجدل في الحجّ أن يقول بعضهم: الحجّ اليوم، وآخرون: بل غداً، وذلك أنهم أمروا أن يجعلوا حساب الشهور على رؤية الأهلة.

٥ - قال القفال: يدخل في هذا النهي ما جادلوا فيه رسول الله

(١) سورة الحجّ: آية ٦٧ و٦٨.

حين أمرهم بفسخ الحج الى العمرة فشق عليهم ذلك ، وقالوا: نروح الى منى ومذاكيرنا تقطر منياً؟ فقال -ص- : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي وجعلتها عمرة، وتركوا الجدل حينئذ.

٦ - قال عبدالرحمن بن زيد: جداهم في الحج بسبب اختلافهم في أيهم المصيب في الحج لوقت إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٧ - إنهم كانوا مختلفين في السنين فقليل لهم: لا جدال في الحج فإن الزمان استدار وعاد الى ما كان عليه الحج في وقت إبراهيم.

فهذا مجموع مقاله المفسرون في هذا الباب»(١).

فهذه الأمثلة تفيد أن المراد من الجدل في الآية هو الجدل المنهي عنه سواء كان منهيًا عنه بالنهاي التحريمي أو النهي التنزيهي الكراهي.

وجاء في «الفقه على المذاهب الأربعة»: ويحرم الخروج عن طاعة الله تعالى بأي فعل محرّم، وإن كان ذلك محرماً في غير الحج، إلا أنه يتأكد فيه وتحرم المحاصمة مع الرفقاء والخدم ونحوهم لقوله تعالى: «فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» والجدال: المحاصمة(٢).

(١) تفسير الإمام الفخر الرازي: ج ١ ص ١٧٥.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة: ج ١ ص ٥٢٤.

وعلى ذلك فالجدال المباح والمناقشة من غير أن يثير غضب الآخر كالجدال الوارد في قوله سبحانه: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ» خارج عن مصب الآية فلو كانت المرأة الشاكية محرمة، وقد رفعت أمرها الى النبي وطلبت حقها من زوجها، لم يُعَدَّ ذلك من الجدال المحرم والمراء المنهي عنه والمخاصمة المبعوضة بل يعد طلباً للحق عن طريقه.

روى المفسرون أن امرأة من الأنصار بعد ما ظاهر منها زوجها جاءت الى النبي وقالت: إن زوجي تزوجني وأنا شابة غانية ذات مال وأهل حتى إذا اكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهرمتي... الى آخر ما ذكرته.

فاذا كان الجدال المباح خارجاً عنها فالجدال المندوب أولى بالخروج منه، كيف لا وقد أمر سبحانه نبيه بالجدال المندوب في كتابه. فلو طرحت في أثناء الحج مسألة فقهية أو عقائدية أو تفسيرية وعرض كل واحد رأيه في المسألة وجادله الآخر بالتي هي أحسن، فلا يكون ذلك حراماً محظوراً بل هو عمل بقوله: «أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (١).

ولو اتفق أن وقع في مخيمات عرفات بحث حول مسألة فقهية أو كلامية فأخذ أحد المسلمين موقفاً خاصاً، ودافع عن معتقده بالدليل والبرهان من دون إبراز مخاصمة أو لجاج أو عناد فلا شك في جواز ذلك، ولا يعد ذلك داخلاً في الجدال الوارد في الآية.

هذا ما لدى القوم، وأمّا ما عند أهل البيت الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه في لسان النبيّ الأعظم (١) فقد فسّر الجدل المذكور في الآية بقول الرجل: لا والله وبلى والله، فاذا حلف بثلاث أيمان متتابعات صادقاً فقد جادل وعليه دم، واذا حلف بيمين واحدة كاذبة فقد جادل وعليه دم (٢).

و أين هذا من تحريم مطلق الجدل الذي يدعيه القوم، وإنما المحرّم حسب رواياتهم هو الجدل الخاص كما عرفت.

لنفترض أن الآية تعمّ جميع المجادلات المحرّمة في غير الحجّ والمباحة والمندوبة كافة، غير أن المراد هو مجادلة الحاج مع الحاج الآخر، وأمّا مجادلة الحاج مع من في الحرم، وأمّا المظاهرات التي تقوم بها جموع الحجّاج المسلمين وإعلان البراءة من الكفّار والغضب من ممارساتهم المعادية للإسلام والمسلمين، والدعوة إلى الاتحاد والوحدة بين المسلمين لمواجهة الأخطار والتحديات، فليس شيء من ذلك من الجدل أصلاً. فليس في ذلك المحتشد إلاّ المسلمون وهم يد واحدة وليس في مقابلهم أحد من الكفّار والمنافقين حتى يقع الجدل بين الطرفين.

ترى هل يعدّ ما فعله الإمام عليّ - عليه السّلام - حيث قرأ آيات من سورة البراءة على الكفّار خلال موسم الحجّ بأمر رسول الله

(١) تواتر عنه - صلى الله عليه وآله - : «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا» وقد نشرت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية رسالة خاصة في تحقيق أسناده ومتونه.

(٢) نور الثقلين: ج ١ ص ١٦٢، ولا حظ كتب الحديث كالوسائل وغيرها.

-صلى الله عليه وآله وسلم- جدالاً؟ أم أنه إعلان لبراءة الله
ورسوله من الكفار والمشركين. وأي فرق بين المقامين.

وإن المظاهرات التي يقوم بها المسلمون الحجاج خلال
الحج بأمر من الإمام الخميني -حفظ الله- ليس إلا تجسيداً
وتحقيقاً لما جاء في قول الله تعالى: «أشداء على الكفار رُحماً يَبْتَهُمُ» (١).

نعم إن السلطات السعودية هي التي توجد -بمنعها المسلمين من
إعلان الغضب على الكفار والإستياء من أعمالهم الإجرامية -جواً
من الجدل الممنوع، لأنهم يمنعون المسلمين من أداء واجبهم
الاسلامي، ويدفعونهم الى مناقشتهم ومجادلتهم، فتكون السلطات
السعودية هي المجادلة وهي سبب الجدل.

فلو أُتيحت الفرصة لاتفق الحجاج على ضرورة المشاركة في
هذه التظاهرات الشاجبة لأعمال الكفار وجرائم الملحدين، ولا
يوجد أي نقاش بينهم إلا ما تثيره سلطات آل سعود، وفي الختام
نسأل الحيات: أنه يقول في خطابه أن الحج مؤتمر سنوي يجتمع فيه
المسلمون من كل فج عميق. لو كان الحج على ما زعم فماذا يجب
أن يطرح في هذا المؤتمر من مسائل؟

هل يجب أن تلقى كلمات بسيطة حول كراهة اكل البصل
والشوم لمن يريد دخول المسجد أو غسل الأقدام والأحذية من
الأتربة والعرق كما سمعناه مراراً من خطباء المسجد الحرام في
أيام الحج وجمعاتها، وكأنه ليست هناك مسألة إسلامية

غير هذا.

فاذا تبين لك أيها القارئ بطلان ما قاله الخياط وبطلان استدلاله، بل عدم علاقة الآية بالمقام، ينبغي أن نقف معاً على فلسفة الحج الحقيقية بصورة مفصلة وفي ضوء الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والوقائع التاريخية من سيرة السلف وإليك ذلك إجمالاً.

ما ذا يهدف إليه الحج؟

الحج عبادة أولاً:

لا شك أن أول ما يهدف إليه الحج وأهم ما تقصده مناسكه هو المزيد من توجيه العبد إلى الله، ودفعه إلى الخضوع له، وتمتين صلواته به سبحانه، وتعميق الإيمان في قلبه، وتكريس الاعتقاد بوحدانيته في ضميره.

و الأخرى أن نقول بإيجاز بأن الهدف الأهم من الحج هو العبادة والتعبّد، إبتداءً من الإحرام للعمرة ومروراً بالطواف بالكعبة المشرفة فالصلاة فالسعي فالتقصير فالإحرام ثانية للحج فالوقوف بعرفة فالإفاضة إلى المزدلفة والوقوف بها، فالذهاب إلى منى والمبيت بها ليالي، فالرمي فالنحر أو الذبح فالحلق فالطواف بالكعبة المعظمة أيضاً، وانتهاءً بالسعي بين الصفا والمروة، وما يتخلل كل ذلك، أو يصاحبه من أذعية وأذكار، وامتناع عن محرّمات خاصّة، قربة إلى الله سبحانه وتعالى.

إنها العبادة في أفضل أشكالها.

وإنها إظهار العبودية في أعلى مظاهرها.

وإنها الخضوع لذي الجلال في أسمى صورته وأتماطه.

وإنها التضرع إلى الله في أعرق أنواعه.

فالْحجَّ عبادة جامعة تتوقَّر فيها كلَّ عناصر إظهار العبودية، وكلَّ أشكال الخضوع والطاعة للربِّ العظيم الكريم، من انقطاع عن الدنيا، وإعراض عن الشهوات وتضحية بالمال، وتذللٌ وذكر، وتهليلٌ وتسبيحٌ، وتحميدٌ وتكبيرٌ، وتوحيدٌ لله في الطاعة والانقياد والخضوع والإلتماس، والاستعانة والعبادة، وخروج عن إطار الرغبات المادِّية، وتناسٍ مؤقتٍ للمال والولد والأهل والوطن في سبيل الله، ومن أجل الله، وبأمر الله، وتقرباً إلى الله، وامثالاً لحُكم الله، وتنفيذاً لإرادة الله، وتلبيةً لنداء الله وحده لا شريك له. إنها عبادة ولا شكَّ، ولكن هل يتلخَّص هدف الحجِّ هذا المنسك العظيم في العبادة المحضة؟

وهل فرض الحجِّ على عاقمة المسلمين رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، ومن كلِّ لون وجنس، ليؤدِّوا أمراً في مجال العلاقة بربِّهم خاصَّة، دون أن يكون لهذا الواجب المقدَّس أيُّ بُعد اجتماعي، وأيُّ ارتباط بحياتهم وشؤونهم؟

وهل أصغر عمل عباديٍّ في الإسلام يخلو عن البُعد الاجتماعي، حتى يخلو منه هذا المنسك العظيم، وهذه الفريضة الكبرى ذات الأجزاء والعناصر الكثيرة، وذات الطابع

الاجتماعي - كصلاة الجمعة - ؟

إن الآيات القرآنية، والسنة الشريفة، وسيرة السلف، وأقوال العلماء، كلها تُجمع على أن هدف الحج لا ينحصر ولا يتلخص في كونه طقساً عبادياً محضاً، وضراعة يُبديها العبد بجيانه الاجتماعية، شأنه شأن غيره من الفرائض الاسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والجهاد وغيرها التي لا تشتمل على الأمور التعبديّة فقط بل تنطوي على أهداف اجتماعية وآثار سياسية في حياة المسلمين، أفراداً وشعوباً.

وهو أمر يؤيده العقل السليم ويؤكد المنطق المستقيم.

إن الاسلام دين شامل أي أنه نظام عبادي وسياسي واقتصادي واجتماعي، وأنه على العكس من اليهودية والنصرانية الحاضرة والمبادئ البشرية الوضعية، ليس إلا مجموعة متناسقة من المعتقدات والقوانين والأخلاق في شتى حقول الحياة، بل وكلّ جزء من هذا الدين هو الآخر خليط مدروس، ومزيج محسوب من الأبعاد المختلفة، وتركيب متوازن من الفرد والجماعة، والعبادة والسياسة والاقتصاد والصحة، والدنيا والآخرة.

بل العبادة في منطق هذا الدين يتسع نطاقها حتى تشمل الحياة كلها وتعم جميع الأعمال البشرية اذا كانت لأجل الله، فلا تقتصر على الشعائر التعبديّة المعروفة من صلاة وزكاة وحج، إنها تشمل كلّ عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

ولهذا قال النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لأبي ذر:

«ليكن لك في كل شيء نية صالحة حتى في النوم» (١).

فالحجّ كما نكتشف ذلك من الكتاب والسنة وسيرة السلف وأقوال العلماء المحققين لا يتلخّص في كونه موسماً عبادياً - بالمفهوم المألوف عند كثيرين - بل هو الى جانب ذلك مؤتمر سياسي عالمي وملتقى اجتماعي عام يوفّر للمسلمين القادمين من شتى أنحاء المعمورة فرصة التعارف والتآلف واللقاء والانتفاع بعضهم ببعض، ومداولة أمورهم، وحلّ مشاكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في جوّ من الأمن والقداسة والصفاء والمحبة.

وهذا هو ما نبتغي استعراضه والتدليل عليه في هذه الصفحات القلائل مع الاعتراف بأن هذه المسألة ودراسة أبعاد الحجّ العبادية والسياسية والاجتماعية أوسع بكثير من أن تستوعبها هذه الدراسة الموجزة، ولهذا نأمل أن يكون ما جاء في هذا الفصل مجرد دليل لا أكثر، وعلى المسلمين عامّة، والحجيج خاصّة أن يحاولوا - بأنفسهم - التعرف على المزيد من الحقائق في هذا المجال وذلك بالتدبّر في هذه الفريضة ومناسكها، والتأمّل في الآيات والأحاديث الشريفة في هذا الصعيد.

أبعاد الحجّ الإجتماعية والسياسية في القرآن

لقد وصف القرآن الكريم «الحجّ» في عدّة مواضع بأن فيه ما ينفع الناس ويضمن مصالحهم إذ قال تبارك وتعالى:

(١) مدينة البلاغة في خطب النبيّ وكتبه ومواعظه: ج ١ ص ٤٦٩.

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَنَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُتْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (١).

والملاحظ في الآية الثانية من الآيات أمور ثلاثة:

أولاً: جعل المنافع إلى جنب ذكر الله وفي مقابله وهو يوحى بأن الحج ذو بُعدين: أحدهما عباديّ ويتجسد في ذكر الله، والآخر غير عباديّ بالمعنى المصطلح المألوف ويتمثل في المنافع. ثانياً: تقديم «المنافع» على «ذكر الله» الذي يمثل الجانب العبادي.

ثالثاً: جعل المنافع مطلقة غير مقيّدة، فلم يقل سبحانه: منافع اقتصادية، مما يوحى بأن هذه المنافع تشمل المنافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وغيرها.

قال الإمام الراحل الشيخ محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر

الأسبق في تفسير الآية:

«فالمنافع التي يُجْعَل الحجّ سبيلاً لشهودها والحصول عليها - وهي أول ما ذُكر في حكمة الحجّ - عامة مطلقة لم تُقَيّد بنوع دون نوع، ولا ناحية دون ناحية، وهي بعمومها وإطلاقها يشمل كلّ ما ينفع الفرد والجماعة، وتصلح شأنها، فطهارة النفس والتقرب إلى الله منفعة، والتشاور في رسم خطط العلم والثقافة، وفي جمع الكلمة على تركيز الدعوة، والعمل على إظهار الإسلام وأحكامه الرشيدة منفعة، وإعداد العُدَد لنسج خيوط الشخصية الإسلامية من التحلّل والذوبان منفعة، وهكذا تتعدّد المنافع، وتتنوَّع على حسب مقتضيات الأحوال التي توحى بها الأزمنة ومواقف الناس من الناس» (١).

وقال أيضاً:

«والحجّ باعتبار مكانته في الإسلام، وغايته المقصودة منه للفرد والجماعة جدير بأنه يتجه إليه رجال العلم والرأي، ورجال التربية والثقافة، ورجال النظام والإدارة، ورجال المال والاقتصاد، ورجال الشرع والدين، ورجال الحرب والجهاد.

جدير أن تفد إليه الطبقات ذات الرأي والحزم، ذات النظر والاجتهاد، ذات الإيمان الصادق والأهداف السياسية التي يجب أن يقصدها المسلمون في حياتهم، جدير أن يتجه إليه هؤلاء جميعاً فتراهم وقد نشرت مكّه أجنحتها عليهم، وجمعتهم بكلمة الله حول بيت الله يتعارفون ويتشاورون ويتعاونون ثم يعودون إلى بلادهم أمّة واحدة

(١) الشريعة والعقيدة: ص ١٥١.

متحدة القلب، متحدة الشعور والاحساس» (١).

هذا والجدير بالذكر أن آيات الحج هذه تستمر حتى تنتهي وتتصل بقوله تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ،
أَذِنَ لِّلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ،
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ
اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَائِعُ وَيَبَعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ» (٢).

وليس من قبيل الصدفة - حاشا القرآن عن ذلك - أن تنتظم الآيات لهذا الشكل دون أن يكون بينها رباط.

إن وحدة السياق وتوارد هذه الآيات بهذا النحو يشعر بوجود صلة قوية بين الحج والعمل السياسي ولا نريد القول بأن يتحوّل الحج الى ساحة قتال، ولكن أقلّ ما يوحي به السياق هو أن يكون الحج مرحلة للإعداد للمواجهة.

إن أقلّ ما يمكن استفادته من هذا النظم والسياق الذي جمع بين آيات الحج والجهاد، ومقاومة الظلم والنصر الإلهي للمظلومين هو أن الحج خير مكان لتعبئة المسلمين روحياً ونفسياً لمواجهة الظلم والظالمين، ومقارعة الاستكبار والمستكبرين، والاستعمار

(١) المصدر السابق: ص ١٥٠.

(٢) سورة الحج: آية ٣٨ - ٤٠.

والمستعمرين.

إنه خير فرصة لأن يلوّح المسلمون المجتمعون هناك من كلّ قطر بما لديهم من قوّة وشوكة، ويعلنوا عن موقفهم السياسيّ الموحد، ويلقّنوا الأعداء درساً لا ينسوه وإن كان هذا لا ينحصر في الحجّ، فقارعة الظلم والظالمين والاعلان عن الاستياء ضدّ أعداء الله لا يخضع لحدود الزمان والمكان.

هذا وقد فسّر المفسّرون المنافع بما يعتمّ أمور الدنيا والدين، فعن ابن جرير الطبري بعد نقله أقوالاً في تفسير المنافع:

«وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عني بذلك «ليشهدوا منافع لهم» من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عمّ منافع لهم جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكّة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة ولم يخصّ شيئاً من منافعهم بخبر ولا عقل فذلك على العموم في المنافع» (١).

ثم إن القرآن الكريم يصف الكعبة المشرفة بأنها جُعِلت قياماً للناس إذ يقول:

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ» (٢).

وقد وردت كلمة «قيام» في شأن المال أيضاً إذ يقول سبحانه:

«وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً» (٣).

(١) تفسير الطبري: ج ١٧ ص ١٠٨.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٧.

(٣) سورة النساء: آية ٥.

وهذا يوحي بوجه التشابه بين الحج والمال، فكما أن الاقتصاد والمال يقيم حياة الناس، ويضمن مصالح الأمة الإسلامية فكذلك الحج، وهذا يعني أن إطار الحج لا يقتصر على العبادة والتعبّد والضراعة بل يتسع حتى يشمل كلّ ماله ارتباط بمصالح المسلمين ممّا يقيم حياتهم وكيانهم، وأي شيء يقيم حياتهم أفضل من العمل السياسي الذي يعني مقاومة الاستعمار والاستعباد والاستغلال، وتحقيق الاستقلال في جميع المجالات، وتنبيه المسلمين باستمرار على ما يدور حولهم من مؤامرات وكيد ومكر، ودفعهم الى اتخاذ موقف واحد موحد يجابه العدو ويصدّ المهاجم.

ثم إذا كان المال لا يجوز إعطاؤه للسفهاء الذين لا يعرفون كيف يتصرفون فيه لعدم رشدهم أو لنقصان عقولهم، فلا يجوز بطريق أولى أن يُترك الحج لمن لا يعرفون قيمته ووزنه وأهميته في حياة الأمة الإسلامية.

وإليك ما قاله بعض المفسرين في هذه الآية: قال ابن جرير الطبري:

«يقول تعالى ذكره: صير الله الكعبة البيت الحرام قواماً للناس الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قوتهم عن ضعيفهم ومسبئهم عن محسنهم وظالمهم عن مظلومهم، وجعلها معالم لدينهم ومصالح أمورهم» (١).

وفي تفسير المنار:

«انه جعلها قياماً للناس في أمر دينهم المهذب لأخلاقهم المركزي

لأنفسهم بما فرض عليهم من الحجّ الذي هو من أعظم أركان الدين
لأنه عبادة روحية مالية اجتماعية.

وقال أيضاً:

«إن جعل الله تعالى هذه الأشياء - أي مناسك الحج - هو جعل
تكويني تشريعي معاً وهو عامّ شامل لما تقوم به وتحقق مصالح دينهم
ودنياهم» (١).

ولو تغاضينا عن كلّ ذلك فهل يمكن أن نتغاضى عن أن
سورة «براءة» التي تعلن عن أوضح موقف سياسي تجاه المشركين
نزلت لتتلى في أيام الحجّ، وهو عمل سياسي بدون شك .
ولنستمع الى الذكر الحكيم وهو يقول:

«بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي
الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي
الْكَافِرِينَ، وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ
بَرْئِيٍّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ إِنَّا بُنِيتُمْ فَهَوَّ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (٢).

وقد أمر النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً
- عليه السلام - بأن يبلغ هذا الإنذار والنداء إلى المشركين في أيام
الحجّ ففعل الإمام عليّ - عليه السلام - ذلك بشهادة كلّ المفسرين
والمؤرخين والمحدّثين.

(١) تفسير المنار للسيد رشيد رضا ج ٧ ص ١١٩.

(٢) سورة التوبة: آية ١ - ٣ وبعدها.

ففي تفسير الطبري وفي حديث مسند:

«إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأذّن في الناس بالذي أمره رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - فقال: يا أيّها الناس أمرت بأربع:

١ - أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك .

٢ - ولا يطوف بالبيت عريان .

٣ - ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة .

٤ - وأن يتمّ إلى كلّ ذي عهد عهده، وفي رواية أخرى: ومن

كان له عهد عند رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - فهو إلى مدّته» (١).

وإن شئت قلت: إن قوله سبحانه: «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين» وقوله عزّ من قائل: «وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر أنّ الله بريء من المشركين ورسوله»، إن البراءة في هذه الآيتين لا تختصّ بمشركي قريش أو مشركي الجزيرة العربية، وإنما البراءة فيها هتاف إلهي يعمّ البراءة من مشركي العالم كلّهم، الموجودين في عصر الرسالة ومن بعدهم إلى يوم القيامة.

فالذكر الحكيم يؤدّب الأمة الإسلامية وينصّ على وظيفتهم الدينية ويلزمهم بإنشاء البراءة في كلّ زمان من المشركين عامّة،

(١) تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٤٧. والحديث مكرّر بأسناد مختلفة ومتعدّدة. وتجد مثلها في

مسند أحمد وتفسير ابن كثير والدر المنثور في تفسير الآيات وفي سنن الترمذي والبيهقي وغيرها.

وعلى ذلك فلو قام ضيوف الرحمن كلّهم بالبراءة من الملحدين والمشرّكين - المتسلّطين على رقابهم - لأدّوا واجبهم بشكل جماعي .
 وربما يتخيّل: إن البراءة والاستنكار الواردين في هذه الآيات مختصّان بعصر الرسول - صلّى الله عليه وآله - ولا يتجاوز غيره . إنه قول بلا دليل ، وهو نظير قول المبّتلين الذين يريدون أن يخصّصوا رسالة الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهداية الذكر الحكيم بعصر خاصّ دون غيره .

ولا أفكر أن المسلم الحرّيشك بأن الشيوعيين والملتفتين حولهم أسوء من المشرّكين الذين أوجب الوحي الإلهي البراءة منهم . كما لا أفكر أن يشكّ المنصف في أن الشيطان الأكبر - أمريكا - أسوء من المشرّكين وأضرّ منهم . كما وقد جاء في كتب الفريقين: أن هشام بن عبد الملك حجّ في خلافة أبيه وطاف بالبيت فأراد استلام الحجر فلم يقدر عليه من الزحام فنصب له منبر فجلس عليه إذ أقبل عليّ بن الحسين وعليه أزار ورداء من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم رائحة وبين عينيه سجادة كأنها ركة عزّ فجعل يطوف بالبيت فاذا بلغ الحجر تنحّى عنه الناس حتّى يستلمه هيبةً له وإجلالاً ، فغاظ ذلك هشاماً فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة وأفرجوا له عن الحجر؟ فقال هشام: لا أعرفه، لئلا يرغب فيه أهل الشام فقال الفرزدق - وكان حاضراً - : لكنني أعرفه، فقال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فأنشأ قصيدة نذكر بعض أبياتها هنا:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
 والبيت يعرفه والجبل والحرم
 هذا ابن خير عباد الله كلهم
 هذا النبي الطاهر العلم
 هذا الذي أحمد المختار والده
 صلى عليه إلهي ماجرى القلم
 الى أن قال:

فجده في قرش في أرومتها
 محمد وعلي بعهده علم
 بدرله شاهد والشعب من أحد
 والخندقان ويوم الفتح قد علموا
 وخيبر وحنين يشهدان له
 وفي قريظة يوم صيلم قتم (١)

وهكذا نجد هذا الشاعر الاسلامي الكبير يجابه ذلك الخليفة
 الجائر بهذه القصيدة الحماسية ويعرف بالامام الحق من آل
 الرسول في مواجهة سياسية حامية، الأمر الذي يدل على شرعية
 هذا العمل في موسم الحج وجوازه لعدم إنكار أحد من المسلمين
 عليه، لا آنذاك ولا بعدئذ.

(١) الأغاني: ج ٢١ ص ٣٧٦ طبعة بيروت، ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٦٩. وقد نقلت هذه القضية في كثير من الكتب التاريخية والأدبية لاحظ البيان والتبيين والعقد الفريد ومطالب السؤل، وتذكرة الخواص، ونور الأبصار.

وبعبارة أخرى إنه يستغلّ تلك المناظرة السياسية القوية ليُعرّف الإمام أمام جموع الحجيج الوافدة الى بيت الله الحرام، باعتباره وارثاً محقاً لآل رسول الله -صلى الله عليه وآله- وهذه الحادثة تعطينا الدليل الناصع على أن العمل السياسي في موسم الحجّ يعتبر قانونياً وشرعياً، وذلك لأنه لم يتمّ منع أو تحريم أداء مثل هذه الممارسات سواء في تلك الأيام أو الأعوام التي أعقبت ذلك.

أبعاد الحجّ الاجتماعية والسياسية في السنّة

إن السنّة والسيرة النبوية الشريفة هي الأخرى تشير الى أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مارس الأعمال السياسية في الحج، هذا مضافاً إلى أن هناك أحاديث تفيد بأن الحجّ نوع من الجهاد لقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«نعم الجهاد الحجّ» (١).

وقوله -عليه وعلى آله السلام-:

«الحجّ جهاد» (٢).

وقوله -صلوات الله عليه وآله-:

«الحجّ جهاد كلّ ضعيف» (٣).

وقوله -صلى الله عليه وآله- في جواب نسوة استأذنه في

الجهاد:

(١) البخاري: الجهاد.

(٢ و ٣) سنن ابن ماجه: المناسك، وسنن النسائي: الحج، ومسند أحمد بن حنبل.

«جهاد كَنَ الحج» (١).

و في بعض الأحاديث قرَنَ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
الحجَّ بالجهاد دون بقية الفرائض إذ قال:

«الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله دعاهم» (٢).

وهو يوحى بوجود الصلة وأوجه التشابه في الآثار والأهداف
بين هاتين الفريضتين.

وإن شئت قلت: إن ذلك يوحى بأن الحج ليس مجرد عبادة
- بالمعنى المتعارف - بل عمل مشابه للجهاد في الآثار والأهداف،
أي أنه عبادة وعمل سياسي، فهو موسم للعمل السياسي كما هو
موسم للعبادة والضراعة والتوجه إلى الله بالتعبّد.

ثم أن السيرة تحدّثنا بأن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
خطب في موضعين: عرفة (٣) ومثى وأعلن في خطبتيه عن
مواقف وأحكام اقتصادية وسياسية واجتماعية إسلامية هامة
نذكر هنا مقاطع منها:

(١) البخاري: الجهاد.

(٢) سنن ابن ماجه: المناسك، وسنن النسائي: الحج والجهاد.

(٣) في سنن الترمذي: عن جابر في باب حجة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: لما
كان يوم التروية وتوجهوا إلى مئى أهلوا بالحج، فركب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
العصر والمغرب والعشاء والصبح، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر
فصربت له بد «نَمِرَة» فسار رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له فنزل بها
حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فركب حتى أتى بطن الوادي فخطب الناس
فقال...

١ - إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

٢ - ألا وأن كلّ شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين.

٣ - و دماء الجاهلية موضوع وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث.. وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل..

٤ - و ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كلّه.

٥ - إن كلّ مسلم أخ المسلم، و إن المسلمين اخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب نفسه منه.

٦ - ثلاث لا يُغَيَّرَ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمّة الحق، واللزوم لجماعة المؤمنين.

٧ - الناس في الاسلام سواء. الناس طف الصاع - أي متساوون - لآدم وحواء لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بتقوى الله.

٨ - إن المسلم أخ المسلم لا يَغشيه ولا يخونه ولا يغتابه، ولا يحلّ له دمه ولا شيء منه إلّا بطيبة نفسه.

٩ - لا ترجعوا بعدي كفاراً مضليّين، يملك بعضكم رقاب بعض.

١٠ - إنكم مسؤولون فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

ثم استشهدهم على ما بلغ فشهدوا له بذلك (١).

(١) وقد وردت هاتان الخطبتان اللتان دمجناهما هنا في صحيح مسلم في حديث حجّ

و لعلّ ما جاء وصحّ عن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- من الأدعية والأذكار في الحجّ -تلك التي تتضمّن معاني سياسية إلى جانب معانيها التوحيدية- خير شاهد على أن الحجّ موسم مناسب لأن يظهر فيه المسلمون موقفهم من أعداء الله والاسلام خاصّة واذا عرفنا أنه يستحب ترديد هذه الأدعية ضمن مناسك الحجّ مثل الدعاء التالي:

«لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد يحيي

ويُميت وهو على كلّ شيء قدير».

«لا إله إلاّ الله وحده وحده، أنجز وعده، ونَصَرَ عبده، وهَرَمَ الأحزاب

وحده»(١).

هذا مضافاً الى ما في مناسك الحجّ من رمزية، فكلّ منسك من هذه المناسك يرمز الى شيء اجتماعي وسياسي وأخلاقي مضافاً الى كونها عبادةً وانقياداً وإن لم يمكن الوقوف الكامل على كلّ ما تنطوي عليه هذه المناسك من معاني.

وقد أشار كثير من علماء الاسلام والمفكرين الاسلاميين إلى ما ترمز اليه هذه المناسك من أمور معنوية واقتصادية واجتماعية وسياسية نخيل القاريء الكريم اليها رعاية للاختصار.

هذا مضافاً الى أن هناك ما يدلّ على أن النبيّ -صلى الله

النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي سنن أبي داود، وسيرة ابن هشام وغيرها.

(١) البخاري: العمرة، ومسلم: الحج، وداود: المناسك، والترمذي: الحج، وابن ماجه:

المناسك، والموطأ لمالك: الحج، ومسنند أحمد.

عليه وآله- مزج الأعمال العبادية بالأهداف والممارسات السياسية في الحج.

ففي البخاري عن سعد بن جبير عن ابن عباس قال:

«لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ - لِعَامِهِ الَّذِي اسْتَأْمَنَ

فِيهِ قَالَ: ارْمُلُوا لِي رِيَّ الْمُشْرِكِينَ قَوْتَهُمْ» (١).

قال ابن الأثير في النهاية:

«أمر النبي -ص- برَمَل الطواف أصحابه في عمرة القضاء ليري

المشركين قوتهم حيث قالوا: وهنتهم حرّ يشرب وهو مسنون في بعض

الأطواف دون بعض.

ولمّا استقر أمر الإسلام واستتبّ قال عمر: فيم الرّمْلان -أي:

الطواف بتلك الكيفية- أو الكشف عن المناكب وقد أظأ الله الإسلام

ونفي الكفر وأهله...».

قال ابن الأثير أيضاً:

«المراد بقول عمر «رَمْلان» الطواف وحده الذي سنّ لأجل

الكفّار».

وهذا يشير الى أنه يجوز أن يضمّ الحاج إلى مناسكه مقاصد

سياسية وأغراض جهادية مثل إرهاب الأعداء واستنكار أعمالهم،

وشجب مؤامراتهم وفضح خططهم.

ثمّ ألا يدلّ اختيار الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لسورتي

التوحيد «قل هو الله أحد» و الكافرون «قل يا أيها الكافرون» في صلاة

(١) البخاري: ج ٥ ص ١٨١ باب عمرة القضاء.

الطواف (١) واستحباب قراءتها للمسلم الحاج، والحال أن هناك سوراً أخرى أو آيات أخرى قد تحتوي على معانٍ وأبعاد أخلاقية وتربوية أكثر، ويشهد على أن الحج هذا المشهد الاسلامي العالمي، وهذا المجمع العام خير وقت لإعلان الموقف السياسي الصارخ ضدّ قوى الكفر والاستكبار، كما ويوحى بذلك أن عمر ابن الخطّاب كان يقول إذا كبر واستلم الحجر:

«بسم الله والله أكبر على ما هدانا، لا إله إلا الله لا شريك له، آمنت

بالله وكفرت بالطاغوت» (٢).

ثم أنّ الامام جعفر بن محمد الصادق -عليه السلام- قال في

بيان فلسفة الحج ضمن ما قال:

«إن الله عزّوجل خلق الخلق لا لعلّه إلاّ أنه شاء ففعل فخلقهم الى

وقت مؤجل أمرهم ونهاهم ما يكون من أمر الطاعة في الدين

ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من المشرق الى

المغرب ليتعارفوا... ولتعرف آثار رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-

وتعرف أخباره ولا تُنسى، ولو كان كل قوم إنما يتكلمون على بلادهم

ومافيا هلكوا وخرت البلاد وسقط الجلب والأرباح، وعميت

الأخبار ولم يقفوا على ذلك، فذلك علّة الحج» (٣).

(١) راجع صحيح مسلم: ج ٤ ص ٤٠ كتاب الحج باب حجة النبي -صلى الله

عليه وآله-.

(٢) تاريخ مكنة ج ١ ص ٣٣٩ طبعة مكنة المكرمة عام ١٣٨٥ هـ.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٩ ص ٣٣ عن علل الشرائع للصدوق.

و عنه - عليه السلام - أنه قال أيضاً:

«ما من بقعة أحب إلى الله من المسعى، لأنه يذل فيه كل

جبار» (١).

أبعاد الحج السياسية والاجتماعية في سيرة السلف

إن التاريخ يحدثنا أن السلف الصالح لم يقتصر في الحج على المناسك والعبادة بل استغلوا هذا المناسبة للعمل السياسي كجزء طبيعي من هذه الفريضة لا كشيء زائد عليها أو أجنبي عنها. فها هو الامام الحسين بن علي سبط الرسول و حفيده - صلوات الله عليهم أجمعين - يحتج على حاكم جائر من حكام زمانه في منى أيام الحج.

فقد جمع - عليه السلام - بني هاشم و رجالهم و نسائهم و مواليمهم من حج منهم و من لم يحج و من الأنصار من يعرفونه و أهل بيته، ثم لم يدع أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله - و من أبنائهم و التابعين و من الأنصار المعروضين بالصلاح و النسك إلا جمعهم، فاجتمع عليه بمنى أكثر من ألف رجل، و الحسين - عليه السلام - في سرادقه عامتهم التابعون و أبناء الصحابة، فقام الحسين - عليه السلام - فيهم خطيباً فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإن هذا الطاغية قد صنع بنا ما قد علمتم و رأيتم و شهدتم

و بلغكم، و إنني أريد أن أسألکم عن أشياء فإن صدقت فصديقوني،

وإن كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي واكنموا قولي ثم ارجعوا الى
أمصاركم وقبائلكم من أمتموه وثقتم به فادعوهم الى ما تعلمون فإنني
أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب، والله متم نوره ولو كره الكافرون» (١).
فما ترك الحسين شيئاً أنزل الله فيهم من القرآن إلا قاله...
وقال:

«أنشدكم بالله رجعتم وحدتكم به من تثقون به».

ثم نزل وتفرق الناس على ذلك .
وها هو عثمان بن عفان يكتب الى جميع الأمصار الاسلامية
أيام خلافته كتاباً قال فيه:

«إني آخذ عُثمالي - أي ولائي - بموافاتي في كل موسم - أي موسم الحج -
وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرْفَعُ
عليّ شيء ولا على أحد من عُثمالي إلا أعطيته، وليس لي ولا لعُمالي
حقٌ قبيل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً
يشتمون ويضربون من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم - أي
فليات إلى الحج - يأخذ حقه حيث كان مني أو من عُثمالي، أو تصدقوا
إن الله يجزي المتصدقين» (٢).

بل ووجد غير المسلمين فرصتهم في الحج ليعرضوا على الخليفة
شكاواهم، فيقوم الخليفة بإنصافهم في زمن الحج لا بعدئذ، فكنا
يعلم قصة ابن القبطي الذي سابق ابن ووالي مصر وفتحها عمرو

(١) الاحتجاج للطبرسي: ص ١٩، وكتاب سليم بن قيس: ص ١٨٣.

(٢) راجع العبادة في الاسلام: للدكتور قرضاوي.

بن العاص فسبق القبطي فضربه ابن عمرو فأنهى أبوه مظلمته الى عمر فاقتص منه في موسم الحج على مرأى ومسمع من الوف الحجاج، ثم قال للوالي عمرو بن العاص كلمته أمام شهود المؤتمر الكبير:

«يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» (١).

و يجدر هنا أن نشير إلى ما كتبه الكاتب الاسلامي المعاصر فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه القيم «العبادة في الاسلام» في هذا الصدد:

«عرف الخلفاء قيمة هذا الموسم العالمي، فجعلوا منه ساحة لقاء بينهم وبين أبناء الشعب القادمين من كل فج عميق. وبينهم وبين ولائهم في الأقاليم، فمن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية فليتقدم بها الى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب، وهناك يواجه الشعب الوالي أمام الخليفة بلا تهيّب ولا تحفظ، فيبغاث الملهوف وينصف المظلوم ويردّ الحق إلى أهله، ولو كان هذا الحق عند الوالي أو الخليفة».

فاذا كان الحج موسماً لبيان الظلمات والشكاوى من الحكام والولاة المسلمين، أفلا يكون من الأولى أن يجوز فيه الشكوى من الاستعمار وأذنايه وعملائه، واستنصار المسلمين عليهم؟ وهل يجوز أن نشكو الوالي المسلم اذا تعدى حدوده، ولا يجوز أن نشكو المستعمر الظالم والأجنبي الغازي وهو يرتكب كل

(١) راجع: المصدر السابق، وكذلك كتاب «ماذا خسر العالم الاسلامي» لأبي الأعلى المودودي نقلاً عن تاريخ ابن الجوزي.

تلك الجرائم والمجازر؟

أبعاد الحج السياسية والاجتماعية في أقوال العلماء
 لقد كتب العلماء والمفكرون الاسلاميون الكثير عن أهمية
 الحج سياسياً واجتماعياً واعتبروه خير موسم وأفضل فرصة
 للمسلمين للتعبير عن قوتهم وشوكتهم، ويقظتهم ووحدهم بالقول
 والعمل بالشعار والشعور.
 فهذا هو العلامة محمد فريد وجدي يكتب في دائرة معارفه،
 مادة «حج» قائلاً:

«أما حكمة فرض الحج على المسلمين، فمما لا يتسع لبيانه مثل هذا
 المؤلف ومما يتبادر الى الذهن من أمر الحج ان أصحاب السلطة في
 المسلمين لو أرادوا أن يستخدموه في إحداث الوحدة الاسلامية
 لنجحوا، فإن اجتماع عشرات الألوف من الوفود في صعيد واحد من
 سائر أقطار الأرض واتجاه قلوبهم وآذانهم في ذلك الموقف المهيّب
 لكل ما يلقى اليهم يستوجب أن يتأثر الكل بروح واحدة لا ستم اذا
 دعوا الى ما فيه خيرهم، فاذا رجعوا الى أقطارهم وتشعبوا في قراهم
 وأمصارهم أذاعوا ما تعلموه بين اخوانهم وكانوا لهم كأعضاء مؤتمر
 عام شكّل من جميع الأجناس والأجيال مجتمع أعضاؤه في كل عام
 مرة، فأبى أنرتقدره لذلك الحادث الجليل في حياة هذه الأمة
 الضخمة وأي نتائج جلييلة ترجوها منه اذا ساعد نهوض هذه الأمة من
 رقدها، فسيكون الحج من اكبر عواملها ويسبقن الى فكرك أن الأمم

الأجنبية المختلة لبعض بلاد المسلمين تمنع رعاياها عن الحج إذ ذلك ،
فإن حركة الحياة لودبت في الأمم فلا يستطيع أن يوقفها شيء والله
الأمر من قبل ومن بعد» (١) .

و جاء في كتاب «الدين والحج على المذاهب الأربعة»:

«الحج سبيل التعارف والتآلف والتعادل وتوثيق العلاقات والروابط
والصلات بين سائر الشعوب الاسلامية فتألف قلوبهم وتتحدهم كلمتهم
فيعملون ما يصلح شأنهم ويقوم ما اعوجج من أمرهم» .

و كتب الاستاذ الجليل محمد المبارك المستشار في جامعة
الملك عبدالعزيز يقول:

«والتجرد لمعنى العبادة الخالصة واضح في الحج بالإضافة الى المعنى
الاجتماعي الرائع فهو مؤتمر عالمي يجتمع المشتركون فيه على صعيد
واحد لعبادة إله واحد، ومع ذلك فإن هذه العبادة المنجردة الخالصة
ليست منعزلة عن الحياة بل متصلة بها إذ يقول الله تعالى في كتابه
الكريم «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ»
فشهود منافعهم معنى عام يمكن أن يشتمل مختلف مصالح المسلمين» .

فاذا كان العمل السياسي يجوز في الحج - كما عرفت من
الكتاب والسنة وسيرة السلف وأقوال العلماء الأجلاء، بل أن
الحج فرصة مناسبة لتخويف الأعداء وإرهابهم وشجب مؤامراتهم -
فأي عدو أعدى علينا من الولايات المتحدة التي تتآمر ضد الاسلام
والمسلمين على الدوام وتنهب خيراتهم وتسرق بتروولهم؟

وأيّ عدوّ أعدى علينا من إسرائيل التي اغتصبت أرضنا
وشردت شعبنا وقتلت ولا تزال تقتل أبناء فلسطين وتستبيح
دماءهم وأعراضهم؟

وأيّ عدوّ أعدى علينا من روسيا التي تعادي الاسلام
والمسلمين في العقيدة وفي كلّ شيء وتحتلّ أرضنا في أفغانستان
وتقتل أبناءها وتدمر مدنها... ولا تزال؟

وأيّ عدوّ أعدى علينا من بريطانيا التي أوجدت الدولة
اللقبطة إسرائيلي وتآمرت ولا تزال تتآمر ضدنا في حقد صليبيّ
عريق؟

وأيّ عدوّ أعدى علينا من فرنسا التي قتلت مئات الآلاف
من شعبنا المسلم في الجزائر ولا تزال لها مجازر ومؤامرات هنا
وهناك في بلاد المسلمين؟

ولماذا نفرّق بين الولايات المتحدة وروسيا وكلّهم ملّة واحدة
في الكفر بديننا والتآمر البغيض علينا وقتل شعوبنا وسرقة
ثرواتنا؟

ولماذا نترك فرصة الحجّ العظيمة والاجتماع المليوني الفريد
من نوعه والذي يتكون من ٤٠ قطراً إسلامياً يذهب أدراج الرياح
دون أن نستثمره لإيقاظ المسلمين وإيقافهم على جرائم الغرب
والشرق ضدنا، وهل نحن عارفون بأحكام الحجّ أكثر من النبيّ
-صلى الله عليه وآله وسلّم- والسلف الصالح من بعده الذين كانوا
يخلطون في الحجّ بين العبادة والعمل السياسي؟

ولماذا لا نفسح المجال في مكة والمدينة وعرفات ومنى
لمظلومي فلسطين والفلبين والعراق وايران وأفغانستان وأفريقيا
ولبنان واريتريا وغيرها لبيبتنا ظلامتهم ويوقفوا المسلمين على ما
يلاقونه من ظلم وحيف وقتل وجناية الاستعمار وأذنا به وعملائه؟
ولماذا لا نفسح المجال في الحج لأن يتداول المفكرون
المسلمون من كل البلاد وجميع الطوائف مشاكل المسلمين ويبحثوا
عن حلول مشتركة لما يعانونه من الطغاة؟

لماذا لا تفسح السلطات في مكة والمدينة لأن تقام مؤتمرات
وندوات لايقاف المسلمين على حقيقة الاستعمار الأمريكي
والروسي والبريطاني والفرنسي وخططهم الجهتية، ويطلعوهم
على ما يفعله هؤلاء الغزاة الأجانب من نهب وسلب وقتل
واستغلال؟

الى متى يعطل الحج من آثاره الاجتماعية والسياسية نزولاً
عند رغبة الأجانب؟

و الى متى يجتمع هذا العدد الهائل من المسلمين من كل أنحاء
العالم ثم ينفصّ دون أن يتعرّف الأخ على أخيه ودون أن يقف الأخ
على آلام أخيه وآماله؟

و الى متى نخسر هذه الفرصة العظيمة التي هيئها الاسلام لهذه
الأمة؟

و اذا فاتنا الحج فأين يمكن الحصول على مثل هذا الجمع
الحاشد والعدد الهائل، وهذه الجماهير المؤمنة المهيسة للعمل

والتجاوب مع أي نداء إسلامي يطلبهم للجهاد ويستحثهم على النهوض؟

و كيف تسمح السلطات في الحجاز أن يهدروا هذه الفرصة العظمى، ويحرموا المسلمين من الانتفاع بها كما أمر الله «ليشهدوا منافع لهم»؟

بل و كيف يسمح المسلمون لأنفسهم أن يتركوا فرصة الحج تذهب هدراً دون أن يستثمروها في سبيل قضاياهم الملحة وحل مشكلاتهم؟

خاتمة المطاف

بقي هنا بحثان مهمّان نشير اليهما في هذه الخاتمة وهما:

أ - البكاء على الميّت قبل الدفن أو بعده.

ب - إضافة لفظ «العبد» الى المخلوق.

فرمّا تخيّل الجاهل بالأحكام الشرعية حرمتها، وها نحن نبين

حكمهما على ضوء الكتاب والسنّة فنقول:

أولاً - البكاء على الميّت:

لا عتب على العين والقلب عندما يقف المرء على قبر نبيّه والأئمّة من أهل بيته - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وخيار صحابته - رضوان الله تعالى عليهم - أن تذرف الدموع ويحزن، تعبيراً عمّا يكنّ في النفس من المودّة والولاء والمحبة والتعاطف والشوق والحنين، فإن هذا أمر تقتضيه الفطرة الإنسانية ولا يأباه التشريع الإلهي .

أما الفطرة: فالحزن والتأثر مقتضى العاطفة الإنسانية إذا ابتلي المرء بمصاب عزيز من أعزّائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه، ومن غديمّ هذا الشعور غمّاً شادداً عن الفطرة الإنسانية،

ولا أرى أحداً فوق أديم الأرض ينكر هذه الحقيقة إنكاراً جدياً وموضوعية.

وأمّا التشريع: فيكفي في ذلك بكاء النبي الأقدس -صلى الله عليه وآله وسلم- والصحابة والتابعين لهم بإحسان على موتاهم.

فهذا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يبكي على ولده العزيز «إبراهيم» ويقول: «العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم محزونون» (١).

روى أصحاب السير والتاريخ أنه لما احتضر إبراهيم ابن النبي جاء -صلى الله عليه وآله- فوجده في حجر أمه، فأخذه ووضعهُ في حجره وقال: «يا إبراهيم إنا لن نغني عنك من الله شيئاً -ثم ذرفت عيناه وقال: -إنا بك يا إبراهيم محزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ فإنها ماشية لحزنا عليك حزناً شديداً أشد من هذا».

ولما قال له عبدالرحمن بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيت عن صوتين أحقّين وآخرين صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشقّ جيوب ورنّة شيطان وصوت عن نعمة فهو، وهذه رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم» (٢).

وليس هذا أول وآخر بكاء منه -صلى الله عليه وآله وسلم-

(١) سنن أبي داود: ج ٣ ص ٥٨، وسنن ابن ماجه: ج ١ ص ٤٨٢.

(٢) السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٤٨.

عند ابتلائه بمصاب أعزائه، بل هو كان يبكي على ابنه «طاهر» ويقول: «إن العين تذرف وإن الدمع يغلب والقلب يحزن ولا نعصي الله عزوجل» (١).

وقد قام العلامة الأميني في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكى فيها النبي -صلى الله عليه وآله- والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزائهم عند افتقادهم، وإليك نص ما جاء ذلك المتتبع الحخير:

[و هذا هو -صلى الله عليه وآله وسلم- لما أصيب حمزة -رضي الله عنه- وجاءت صفيّة بنت عبدالمطلب -رضي الله عنها- تطلبه فحالت بينها وبينه الأنصار فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وإذا نشجت نشج، وكانت فاطمة -عليها السلام- تبكي ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كلما بكت يبكي وقال: لن أصاب بمثلك أبداً (٢).

ولما رجع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من أحد بكت نساء الأنصار على شهدائهم فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: لكن حمزة لا بواكي له فرجعت الأنصار فقلن لنسائهم: لا تبكين أحداً حتى تبدأن بحمزة قال: فذاك فيهم

(١) مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٣ ص ٨.

(٢) امتاع المقرئزي: ص ١٥٤.

إلى اليوم لا يبكين ميتاً إلا بدأن بحمزة (١).
 وهذا هو -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني جعفرأ وزيد بن
 حارثة وعبدالله بن رواحة وعيناه تذر فان (٢).
 وهذا هو -صلى الله عليه وآله وسلم- زار قبر أمه وبكى عليها
 وأبكى من حوله (٣).
 وهذا هو -صلى الله عليه وآله وسلم- يقبل عثمان بن مظعون
 وهو ميت ودموعه تسيل على خده (٤).
 وهذا هو -صلى الله عليه وآله وسلم- يبكي على ابن لبعض
 بناته فقال له عبادة بن الصامت: ما هذا يا رسول الله؟ قال:
 الرحمة التي جعلها الله في بني آدم وإنما يرحم الله من عباده
 الرحماء (٥).

وهذه الصديقة الطاهرة تبكي على رسول الله -صلى الله
 عليه وآله وسلم- وتقول: يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه أجا
 رياً دعاه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه (٦).

(١) مجمع الزوائد: ج ٦ ص ١٢٠.

(٢) صحيح البخارى: كتاب المناقب في علامات النبوة في الاسلام، سنن البيهقي: ج ٤

ص ٧٠.

(٣) سنن البيهقي: ج ٤ ص ٧٠، تاريخ الخطيب البغدادي: ج ٧ ص ٢٨٩.

(٤) سنن أبي داود: ج ٢ ص ٦٣، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٤٤٥.

(٥) سنن أبي داود: ج ٢ ص ٥٨، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٤٨١.

(٦) صحيح البخارى: باب مرض النبي ووفاته، مسند أبي داود: ج ٢ ص ١٩٧، سنن

النسائي: ج ٤ ص ١٣، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٦٣، تاريخ الخطيب: ج ٦ ص ٢٦٢.

وهذه هي - سلام الله عليها - وقفت على قبر أبيها الطاهر
وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت
تقول:

ما ذا على من شَمَّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صُبَّت عليّ مصائبٌ لو أنّها صُبَّت على الأيامِ صِرْنَ لياليا (١)
وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله - صَلَّى الله
عليه وآله وسلّم - ويرثيه بقوله:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحقّ البكاء على السيّد
وهذا حسان بن ثابت يبكيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم -
ويقول:

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت عيونٌ ومثلاها من الجفن أسعد
ويقول:

يُبْكُون من تبكي السماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمُد
ويقول:

يا عين جودي بدمع منك إسبال ولا تملنّ من سخّ وإعوال
وهذه أروى بنت عبد المطلب تبكي عليه - صَلَّى الله عليه وآله
وسلّم - وترثيه بقولها:

ألا يا عين! ويحك أسعديني بدمعك ما بقيت وطاوعيني
ألا يا عين! ويحك واستهلي على نور البلاد وأسعديني
وهذه عاتكة بنت عبد المطلب ترثيه وتقول:

عينيَّ جوداً طوال الدهر وانهمراً سكباً وسحاً بدمع غير تعذير
يا عين فاسحنفري بالدمع واحتفلي حتى الممات بسجل غير منذور
يا عين فانهملي بالدمع واجتهدي للمصطفى دون خلق الله بالنور
و هذه صفيّة بنت عبدالمطلب تبكي عليه وترثيه - صلى الله
عليه وآله وسلّم - و تقول :

أفاطمُ بكّي ولا تسأمي بصحبك ما طلع الكوكبُ
هو المرء يُبكي وحقّ البكاء هو الماجد السيّد الطيّبُ
و تقول :

أعينيَّ ! جوداً بدمع سجم يبادر غرباً بما مُهدم
أعينيَّ ! فاسحنفراً وأسكبا بوجدٍ وحزنٍ شديد الألم
و هذه هند بنت الحارث بن عبدالمطلب تبكي عليه وترثيه
و تقول :

يا عين جودي بدمع منك وابتدري كما تنزل ماء الغيث فانثعبا
و هذه هند بنت أثاثة ترثيه و تقول :

ألا يا عين ! بكّي لا تملي فقد بكر النعيُّ بمن هويتُ
و هذه عاتكة بنت زيد ترثيه و تقول :

و أمست مراكبه أوحشت وقد كان يركبها زينها
و أمست تُبكي على سيّد تردّد عبرتها عينها

و هذه أمّ أمين ترثيه - صلى الله عليه وآله وسلّم - و تقول :
عين جودي فإنّ بذلك للدمع مع شفاء فاكشري من بكاء

بدموع غزيرة منك حتى يقضي الله فيك خير القضاء (١)
 وهذه عمّة جابر بن عبد الله جاءت يوم أُحد تبكي على أخيها
 عبد الله بن عمرو قال جابر: فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهوني
 ورسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلّم- لا ينهاني، فقال
 رسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلّم-: أبكوه ولا تبكوه فوالله
 مازالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى دفنتموه (٢) [*].

نعم روي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر أن رسول الله
 -صلى الله عليه وآله- قال: «إن الميت يعذب ببكاء أهله» أقول:
 إن ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن كثيرة أثبتها
 التاريخ.

منها: أنه بكى على النعمان بن مقرن المزني لما جاءه نعيه
 فخرج ونعاه الى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي (٣).
 ومنها: بكائه مع أبي بكر على سعد بن معان حتى قالت
 عائشة: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من
 بكاء عمر، وإني لفي حجرتي (٤).

ومنها: بكائه على أخيه زيد بن الخطاب، وكان صحبه رجل

(١) راجع طبقات ابن سعد: ص ٨٣٩-٨٥٥، وسيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٣٤٦.

(٢) الاستيعاب: في ترجمة عبد الله ج ١ ص ٣٦٨.

(٥) الغدير: ج ٣ ص ١٦٥-١٦٧.

(٣) الاستيعاب: في ترجمة النعمان ج ١ ص ٢٩٧، العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي:

ج ٣ ص ٢٣٥.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٥٣.

من بني عدي بن كعب فرجع الى المدينة فلما رآه عمر دمعت عيناه وقال: وخلفت زيدا قاضياً وأتيتني (١).

فالبكاء المتكرر من الخليفة يهدينا الى أن المراد من الحديث -لوصح سنده- معنى آخر، كيف وأن ظاهر الحديث لوقلنا به فإنه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه «ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (٢). فأني معنى لتعذيب الميت ببكاء غيره عليه!!

قال الشافعي: «وما روت عائشة عن رسول الله -ص- أشبه أن يكون محفوظاً عنه -ص- بدلالة الكتاب والسنّة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عزوجل «ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» و«أن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا ما سَعَى» (٣) وقوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٤) وقوله: «لنجزى كل نفس بما تسعى» (٥). فإن قيل: أين دلالة السنّة؟ قيل: قال رسول الله لرجل: ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: أما أنه لا يجي عليك ولا تجني عليه. فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أن جناية كل امرئ عليه، كما أن عمله لا لغيره ولا عليه» (٦).

(١) العقد الفريد: ج ٣ ص ٢٣٥.

(٢) سورة فاطر: آية ١٨.

(٣) سورة النجم: آية ٣٩.

(٤) سورة الزلزلة: آية ٧ و ٨.

(٥) سورة طه: آية ١٥.

(٦) اختلاف الحديث بهامش كتاب الأم للشافعي: ج ٧ ص ٢٦٧.

فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقّفنا على أن المراد من الحديث «إن الميت يعذب...» - إن صحّ سنده - غير ما يفهم من ظاهره، وقد كان محتقفاً بقرائن سقطت عند النقل، ولأجل ذلك توهم البعض حرمة البكاء على الميت استناداً على هذا الحديث، غافلاً عن مرمى الحديث ومغزاه.

روت عمرة: أنها سمعت عائشة -رض- وذكرت لها أن عبدالله بن عمر يقول: إن الميت ليُعذب ببكاء الحي، فقالت عائشة -رض- أما أنه لم يكذب، ولكنه أخطأ أو نسي إنما مرّ رسول الله -ص- على يهودية يبكي عليها أهلها، فقال: إنهم ليكون عليها وأنها لتعذب في قبرها (١).

وعن عروة عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله -ص-: إن الميت ليُعذب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت -وهي تعني ابن عمر-: إنما مرّ النبي -ص- على قبر يهودي فقال: إن صاحب هذا ليُعذب وأهله يبكون عليه. ثم قرأت: «ولا تزدوا زرةً وزراً أخرى» (٢).

هذا فقه الحديث ومعناه، ولا يشكّ في صحة هذا المعنى من

(١) صحيح البخاري: الباب ٣٢ من أبواب الجنائز ج ٢ ص ٨٠، اختلاف الحديث للشافعي: ج ٧ ص ٢٦٦، الموطأ لمالك: ج ١ ص ٩٦، صحيح مسلم: ج ١ ص ٣٤٤، سنن النسائي: ج ٤ ص ١٧، سنن البيهقي: ج ٤ ص ٧٢.

(٢) سنن أبي داود: ج ٢ ص ٥٩، سنن النسائي: ج ٢ ص ١٧.

له إمام ومعرفة بالكتاب والسنة.

وهناك روايات أخر تدلّ على أن رسول الله -صلى الله عليه وآله- نهى عمر عن منعه الباقيات لبكائهنّ على الميت.

عن ابن عباس قال: لما ماتت زينب بنت رسول الله قال رسول الله: ألقوها بسلقنا الخير عثمان بن مظعون، فبكت النساء، فجعل عمر يضربهنّ بسوطه، فأخذ رسول الله -ص- يده وقال: مهلاً يا عمر، دعهنّ يبكين، وإياكنّ ونعيق الشيطان -الى أن قال-: وقعد رسول الله على شفير القبر وفاطمة الى جنبه تبكي، فجعل النبيّ يمسح عيني فاطمة بثوبه رحمه لها (١).

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى نظيره في موت رقية بنت رسول الله، وقال رسول الله -ص- مه يا عمر -ثم قال-: إياكنّ ونعيق الشيطان، فإنه مهما يكن من العين والقلب فن الرحمة، وما يكون من اللسان واليد فن الشيطان (٢).

وفي رواية أخرى: فقال رسول الله: يا عمر دعهنّ فإن العين دامعة والقلب مصاب والعهد قريب (٣).

هذا ما نقلناه من الروايات يوقف القارئ الكريم على حكم الاسلام في مسألة البكاء على الميت، سواء كان الميت قريباً وحميماً

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ٢٣٥-٢٣٧، مستدرک الحاكم: ج ١ ص ١٩١، وقال الذهبي في تلخيص المستدرک: سنده صالح.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ج ٤ ص ٧٠.

(٣) عمدة القارئ: ج ٤ ص ٨٧.

أو كان عزيزاً وصديقاً، فاذا جاز البكاء عليهم فالبكاء على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وأهل بيته الأطهار وصحابته الأخيار أولى بالجواز.

كيف لا وقد وردت في هذا المضممار روايات كثيرة من الفريقين في البكاء على النبي ومصائب آله لسنا بصدد ذكرها لخروجها عن الاختصار، ومن أراد الوقوف فليرجع الى كتاب «سيرتنا وستنا سيرة النبي وسته» للعلامة الكبير الشيخ عبدالحسين الأميني -رضوان الله عليه- وإن كان ما ذكرناه في هذه الصحائف مقتبساً عما حققه -رحمه الله- في هذا الباب.

ثانياً - إضافة لفظ «العبد» الى المخلوق:

قد تعارف لدى محبي أهل البيت -عليهم السلام- تسمية أولادهم بـ «عبدالرسول» و «عبدعلي» و «عبدالحسين»... و نحوها، أي إضافة كلمة العبد الى أسمائهم -عليهم السلام-. وأثارت هذه التسمية قلقاً في بعض الأوساط خصوصاً الوهابية، زاعمين أن تلك التسمية رمز الشرك، ولا توافق أصول التوحيد، وقد جمعني والشيخ ناصرالدين الألباني -وهو مصحح ومحقق بعض كتب الأحاديث- مجلس في سوريا فرأيت فيه كراهة شديدة أن يتكلم باسم عبدالحسين، وكان ذلك عند ما جاء الحديث عن العلامة الحجة السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي -قدس الله سره-، صاحب المراجعات.

ولأجل رفع الستر عن وجه الحقيقة نقوم بتحليل المسألة من وجهة نظر القرآن والسنة فنقول:

العبودية تطلق ويراد منها:

(أولاً) ما يقابل الألوهية، وهي بهذا المعنى ناشئة من المملوكية التكوينية التي تعم جميع العباد، ويكون المالك هو الله سبحانه وتعالى، وقد عرفت أن منشأ كون الانسان عبداً والله سبحانه هو المولى، كونه خالقاً له من العدم، والمفيض والمعطي له كل ما يتعلق به.

فالعبودية بهذا المعنى ذاتية كل موجود، وجوهرة كل شيء، لا تنفك عنه أبداً، والى ذلك ينظر قوله سبحانه «إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً» (١). كما يشير إليه قول المسيح عليه السلام- «قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً» (٢) الى غير ذلك من الآيات. والعبودية بهذا المعنى تستدعي حصر إضافتها بالله سبحانه وتعالى.

(ثانياً) تطلق ويراد منها الطاعة أو ما يقارها، وقد صرح بهذا المعنى أصحاب المعاجم اللغوية.

قال في لسان العرب: التبعّد: التنسك، العبادة: الطاعة.

وقال في القاموس المحيط: والعبودية والعبودية والعبودة

والعبادة: الطاعة.

(١) سورة مريم: آية ٩٣.

(٢) سورة مريم: آية ٣٠.

وعلى هذا الأساس فالمراد من «عبدالرسول وعبد علي و...» هو مطيع الرسول ومطيع عليّ ولاغبار على ذلك، كيف لا وأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بطاعتها «أطيعوا الله وأطيعوا الرّسولَ وأولي الأمر منكم» (١). فعرف القرآن النبيّ مطاعاً والمسلمين مطيعين، ولا عتب على الانسان أن يظهر هذا المعنى في تسمية أولاده ومحبيه.

نعم في حديث أبي هريرة «لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي» وعلمه ابن الأثير في كتابه «النهاية» بقوله: هذا على نفي الاستكبار عليهم وأن ينسب عبدويّتهم اليه، فإنّ المستحقّ لذلك الله تعالى هو ربّ العباد كلّهم».

والحديث بظاهره يخالف الذكر الحكيم. كيف لا وهو الذي نسب العبودية الى الناس الذين يملكونهم، قال سبحانه «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله والله واسعٌ عليم» (٢). ترى أنه سبحانه ينسب العبودية والامائية الى الذين يملكونهم، ولو كان في التعبير شيء من التكبر للمولى لما استعمل سبحانه هذا التعبير.

ثم أن أساس الشبهة أن المستشكلين لا يفرقون بين العبودية التكوينية الحقيقية - التي لا تنفك عن الانسان منذ بدء وجوده الى أخريات أيامه - وبين المملوكية العارضة على الانسان حسب الأحوال والشرائط، فيصير السيّد عبداً رفاً، والعبد الرق سيّداً وحاكماً.

(٢) سورة النور: آية ٣٢.

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

هذا هو الفقه الاسلامي يحكم في أسرى الحرب بجواز استرقاقهم رجالاً ونساءً، قال ابن قدامة في كتابه «المغني»: وإذا أسبى الامام فهو مخير إن رأى قتلهم، وإن رأى من عليهم وأطلقهم بلا عوض، وإن رأى أطلقهم على مال يأخذه منهم، وإن رأى فادى بهم، وإن رأى استرقهم.

هذا وفي الكتب الفقهية باب واسع لأحكام العبيد والإماء، فلهم أحكام خاصة يقف عليها العارف بالفقه الاسلامي، فيطلقون كلمة المولى على السيد الذي ملكهم بالأسر أو بالشراء، كما يطلقون كلمة العبد والأمة على الأسرى الذين رأى الحاكم استرقاقهم، ولم يرَ أحدٌ من الفقهاء في هذه التسمية حرجاً.

ومما يُقضى منه العجب قول محمد بن عبد الوهاب «أن من قال لأحد مولانا أو سيدنا فهو كافر» (١) مع أن القرآن الكريم يطلق كلمة السيد على غيره - سبحانه وتعالى - قال «مصدقاً بكلمة من الله و سيداً و حصواً» (٢) وقال - عز وجل - «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» (٣) وقال - تعالى - «وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا» (٤).

أضف الى ذلك ما تواتر في الروايات من إطلاق السيد على

(١) كشف الارتباب للسيد محسن الأمين: نقله عن خلاصة الكلام.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٩.

(٣) سورة يوسف: آية ٢٥.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٦٧.

النبيّ والحسين (١) حيث لا يشكّ في صحتها أحد.

وقد رثى أبو بكر النبيّ الأعظم بأبيات أولها:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحقّ البكاء على السيّد

على خير خندق عند الب بلاء أمسى يغيب في الملحد (٢)

نعم أورد السيوطي في الجامع الصغير عن الديلمي في مسند

الفردوسي عن عليّ «السيّد الله».

كما أورد العزيزي في شرح الجامع والصغير عن مسند أبي داود

أنه جاء وفد بني عامر الى النبي فقالوا: أنت سيّدنا، فقال:

السيّد الله.

فلوصحّ الحديثان فيجب أن يحملا على المعنى الحقيقي

للسيادة - أعني المالك والخالق - فإن السيادة بهذا المعنى تختصّ بالله

سبحانه.

كيف وقد أطلق رسول الله كلمة السيّد على سعد بن معاذ

- رضي الله عنه - روى الطبري: لما طلع سعد قال رسول الله:

قوموا الى سيّدكم (٣).

فهذه المناهي الواردة حول كلمة السيّد محمولة على إرادة المعنى

الذي ينافي إخلاص العبادة وتوحيد الله.

(١) المقصود «الحسن والحسين سيّد شباب أهل الجنة».

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٢ ص ٣١٩، والهمزة الأولى في البيت الثاني جزء من كلمة البلاء، وإنما يتلفظ بها في المصراع الثاني، ويسمى هذا القسم في علم العروض بالشعر المدثور، باعتبار امتزاج الصدر بالعجز.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٢٤٩.

و لعمرى أن الحقيقة واضحة لا تحتاج الى التويل، كيف وكلمات العرب والرسول والصحابة والتابعين والأئمة من آل الرسول وفقهاء الأمة مشحونة باستعمال هذه الكلمات في غيره - سبحانه - . ولم يرَ أحدٌ في إطلاقها على غيره - عزّاسمه - حرجاً، وقد نظروا الى هذه المسائل بصدور رحب وعين بعيدة المدى، ولم يضيّقوا الأمر على المسلمين ووجدوا الاسلام شريعة سهلة سمحة تتبع المقاصد والأغراض لا الظواهر والألفاظ.

فالموهابيّة - كالخوارج - ضيّقوا الأمر على أنفسهم وعلى المسلمين بما لم يضيّق به سبحانه، والطائفتان تسيران في عدّة من المسائل جنباً الى جنب.

خاتمة مسك

حان الآن أيها القارئ الكريم أن نختم هذا البحث الضافي حول عقائد الموهابيّة وأصولها وأهدافها بكلمة قصيرة نافعة للجمتمع الاسلامي عامّة وللشباب المسلم الغيور خاصّة.

إن الاسلام بُني على كلمتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فيجب على الأمة الاسلامية أن تحفظ وحدة الكلمة وعُرَى الاخوة، كما يجب عليها أن تحتفظ بكلمة التوحيد، فإنها صنوان نابتان من أصل واحد.

فكما أن القرآن والسنة حثّا على تويده - سبحانه - ذاتاً وفعلاً وعبادةً، فقد حثّا أيضاً على الاعتصام بحبل الله ونهيا عن التفرق

«واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرقوا» (١) وقال عز شأنه «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» (٢).

وقال الامام علي - عليه السلام - «وألزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب، ألا ومن دعا الى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامي هذه» (٣). فإذا كان توحيد الكلمة بهذه المكانة العالية، فما حال من شق عصا المسلمين وبث فيهم الفرقة ومزق صفوفهم وشتت شملهم بغرس شكوك في أمور طالما اتفقت عليها الأمة الاسلامية قبل أن يتولد باذر الشكوك - أعني ابن تيمية - وساقياها - أعني محمد بن عبد الوهاب -.

أيها القارئ العزيز: إن ما تلوناه عليك في هذه الصحائف هو مقتضى نصوص الكتاب الحكيم وستة النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - ونتيجة ما أجمعت عليه الأمة الاسلامية طوال القرون، فأبي قيمة لكلمة أو كلمات تضاد كتاب الله وستة نبيه - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - وما اتفقت عليه الأمة.

يعز على الأمة الاسلامية وفي مقدمتها علماءها ومفكروها أن يوجد أناس في «أم القرى» ومهبط الوحي يكفرون الأمة جمعاء من سنة وشيعة ولا يستثنون منهم إلا شذاد الآفاق من بلاد نجد.

(١) سورة آل عمران: آية ٨٤.

(٢) سورة النساء: آية ١١٥.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٣.

وقد وقف الأعظم من أبناء الأمة الإسلامية على خطورة الموقف وأضرار هذه الهواجس الشيطانية التي زرعتها الشيخ ابن تيمية حتى قال الحافظ ابن حجر في كتابه «الفتاوى الحديشية» في حقه ما هذا نصه:

«ابن تيمية عبءٌ خذله الله وأضلّه وأعماه وأصمّه، وبذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد فعله بمطالعة كلام الامام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد أبو الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الامام العزّ من جماعة وأهل عصرهم من الشافعية والمالكية والحنفية، ولم يقصر اعتراضه - ابن تيمية - على متأخري الصوفية بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهما - .

والحاصل: أنه لا يقام لكلامه وزن يرمى في كلّ وعرو حزن، ويعتقد فيه أنه مبتدع ضالّ مضلّ غال عامّله الله بعدله وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله - أمين - « الفتاوى الحديشية: ص ٨٦.

والله أسأل أن يجعلنا من «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»

وصلّى الله على سيّدنا محمّد خاتم النبيّين

وآله الطيّبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

جعفر السبحاني

قم المشرفة

عيد الغدير - ١٨ ذي الحجة ١٤٠٦

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الاولى
١١	مقدمة الطبعة الثانية
	الفصل الاول
٣٦	لمحات عن حياة مؤسس الوهابية
	الفصل الثاني
٥٣	الوهابيون و بناء قبور الأولياء
	الفصل الثالث
١٠٧	بناء المسجد بجوار المراقد المشرفة
	الفصل الرابع
١٢٣	زيارة القبور على ضوء الكتاب والسنة
	الفصل الخامس
١٣٦	النتائج البتاءة لزيارة قبور الشخصيات الدينية
	الفصل السادس
١٥٣	إقامة الصلاة و الدعاء عند قبور الأولياء
	الفصل السابع
١٦٢	التوسل بأولياء الله

- الفصل الثامن
النذر لأهل القبور ١٨٩
- الفصل التاسع
تكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم ١٩٧
- الفصل العاشر
التبرُّك والاستشفاء بآثار أولياء الله ٢١٠
- الفصل الحادي عشر
التوحيد في العبادة ٢٢١
- الفصل الثاني عشر
الإستعانة بأولياء الله في حياتهم ٢٥٥
- الفصل الثالث عشر
الإستعانة بأرواح أولياء الله ٢٧٠
- الفصل الرابع عشر
طلب الشفاعة من أولياء الله ٢٩٢
- الفصل الخامس عشر
أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة ٣٠٣
- الفصل السادس عشر
الاعتقاد بالقدرة الغيبية لأولياء الله ٣١٧
- الفصل السابع عشر
الحلف على الله بحقِّ الأولياء ٣٣٤
- الفصل الثامن عشر
الحلف بغير الله تعالى ٣٤٦
- الفصل التاسع عشر
الإستعانة بأولياء الله ٣٥٨

الفصل العشرون

- ٣٦٦ موسم عبادي وملتقى سياسي
- ٤١٠ خاتمة المطاف
- ٤١٠ البكاء على الميت
- ٤٢٠ إضافة لفظ «العبد» الى المخلوق



Princeton University Library



32101 059520294

اشعاع - ۸ - پیل